ميخائيل نعيمه

هوامش

مؤسسة نوفل ش.م.م

بيروت ـ لبنان

هَوَامِش

الطبعة الخامسة
١٩٨٨

© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل - شارع المعماري - ص.ب ١١٫٢١٦١ - تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ - تلكس نوستن ٢٢٢١٠ - بيروت - لبنان
NAUFAL BLDG. - MAMARI STR. - P.O.BOX 11-2161 - PHONE 354898-354394 - TELEX NAUSTN 22210 LE - BEIRUT - LEBANON

منك وا ، عليك وا ، إليك !

الأرض في مخاض .
ونفسي في مخاض .
مخاض الأرض لا ينتهي .
ومخاض نفسي لا ينتهي .
في كلّ رفّة جفن تتمخّض الأرض عن ألف ألف عجيبة ، لتعود فتحبل بألف ألف عجيبة .
وفي كلّ رفّة جفن تتمخّض نفسي عن مواليد لا حصر لها ولا عدّ ، لتعود فتحبل بمواليد لا تحصى ولا تُعدّ .
مواليد الأرض تشقى وتسعد إلى حين .
ومواليد نفسي تشقى وتسعد في كلّ حين .
فلا الأرض تشكو .
ولا أنا أشكو .

* * *

ها هو نيسان يعود إلى الأرض للمرّة المليون بعد مئات الملايين . فتميع جبالنا البيض بهجةً بقدومه ، وتهدر لــه شلاّلاتنا ، وتضحك سماؤنا ، وتصفّق شمسنا .

وها أنا ، وقد ضاقت نفسي بالسقوف والجدران ، وبالمحابر والأقلام ، وبالأهل والجيران ، أمشي الهوينا ، ويدي في يد نيسان ، على أديم بقعةٍ حبيبة إلى قلبي من هذه الجبال .

إنّها لبقعة لا تتجاوز مساحتها الكيلومتر المربّع . وهي صغيرة الشأن في نظر أهل الجوار . لأنّها قليلة التراب ، كثيرة الصخر ، وعرة المسالك . ولكنها كبيرة الشأن في نظري لتلك الأسباب بالذات ، ولأنّها لم يغزها العمران حتّى اليوم برغم أنّها تتصل مباشرة بتخوم ضيعتي إلى الشرق . ولعلّ قيمتها الكبرى عندي تكمن في عزلتها ، وفي الصخور الشاهقة ، الباهقة ، العجيبة التكوين والهندسة ، القائمة في أسفلها . وهذه الصخور تطلّ على وادٍ عميق ، رهيب ، تهدر فيه هديراً ساحراً جميع الأمواه المنحدرة في الربيع من الجبال الّتي تكتنفه من جهات ثلاث .

تلك الصخور بعضها من العلوّ بحيث لو استطعتَ الدنوّ من طرفه المشرف على الوادي ، ثمّ التفتّ إلى أسفل ، لبدا لك الكبش في الوادي بحجم الديك والديك بحجم العصفور .

في تلك الصخور من التجاويف ، والأفاريز ، والدهاليز ، والتماثيل الأسطوريّة التي نحتتها العناصر على مرّ الدهور ما لا ترتوي العين من النظر إليه ، والقلب من الدهشة بعظمته وجماله . وإني لأشفق على الذين إذا نظروا إليها قالوا إنّها صخور ، ولا شيء أكثر من صخور . فحسبها ان الزمان ينام في تجاويفها ودهاليزها نوم أهل الكهف ؛ وأن الفصول تتناوب العبادة في هياكلها على ترانيم أبي الأبلق ، وأبي الحنّاء ، والحسّون ، والنقّار ، والسنونو ، وتسابيح البوم ، وعواء بنات آوى ؛ وعلى وشوشات النسمات الحالمات ، وتهاليل الرياح السافيات ، ولعلعة البروق ، وزمجرة الرعود ، وأناشيد المياه الهابطة من السحاب ، أو المتراكضة من الجبال إلى البحر .

وفي الجانب المقابل من الوادي ، وعلى مرمى حجر بالمقلاع ، قامت صخور أخرى شاهقة ، باهقة . ولكنّها تتميّز من هذه برفاريف يكسوها شيء من التراب . فتخضرّ في الربيع اخضراراً يزدري ببساتين بابل المعلقة التي باتت من زمان خبراً من الأخبار .

في تلك البقعة من الأرض ، المتنسكة بين البقاع التي يحتضنها صنّين المشمخرّ ، رحت أمشي أنا ونيسان . وراح نيسان يحدّثني فأصغي إليه بعينيّ قبل أذنيّ ، بل بكلّ جارحة

من جوارحي ، بل بقلبي الذي فرغ من كلّ شهوة ورغبة وذكرى ما خلا غبطة الاستمتاع بحديث رفيقي .

كان نيسان يحدّثني تارة بلسان الزّغَب الأخضر الذي فرشته الأرض بساطاً لأقدامنا . وطوراً بألسنة الزهرات الحييّة التي كانت تطلّ علينا من شقوق الصخور هنا ، ومن أحشاء التراب هناك . وما أكثر ما حدّثني بلسان الثلوج المنسابة رحيقاً أبيض إلى الوادي ، ولسان النسيم الثملان على أجفاننا ، وأشعّة الشمس المتغلغلة في عيوننا ، والغيمة البيضاء التي نبتت بغتة في الجلد الأزرق وراحت تتهادى فوق رأسينا .

لله ذلك الزّغَب الأخضر ما كان أروعه منظراً ورائحة وملمساً ! ففي كلّ وريقة من كلّ عشيبة روايات وروايات ، وآيات وآيات . وما أفقر الذين يمرّون بذلك الزّغَب فيدعونه عشباً لا أكثر ، ويطأونه بنعالهم ، ويمضون في سبيلهم مسوقين بشتى الحاجات والغايات .

لله تلك الزهيرات الحييّة بألوانها السحريّة وشذاها العبقري !

لله تلك الخيوط النورانيّة المتدلية إلينا من بؤبؤ الشمس البعيدة !

لله تلك الترانيم والزغاريد والأهازيج تتدفّق علينا من الجوّ ، ومن أفواه الصخور ، ومن حنجرة الوادي !

ثمّ لله تلك الصخور تفتح لنا قلوبها ، وتبسط أيديها ، وتقول بمنتهى الإخلاص ، ودونما أقلّ تصنّع أو تكلّف : « أهلاً ومرحباً ! »

* * *

ونجلس ، أنا ونيسان ، على شفا صخرة ماردة تشرف على ملتقى وادٍ صغير بالوادي الكبير ، وعلى صنّين وجناحيه الجبّارين المنبسطين إلى الشمال وإلى الجنوب ، وعلى سفوح صنّين الكثيرة الأخاديد والتعاريج ، والمليئة بالسحر والفتنة .

ونصمت ، أنا ونيسان ، وقد أخذتنا رهبة المكان . ويطول صمتنا ويطول . وأخيراً يتحرّك لساني فأقول :

ــ أتسمح يا نيسان ؟

ويندهش نيسان لسؤالي فيجيب :

ــ تستسمحني ؟ ! بماذا ؟

ــ في داخلي غبطة يرهقها السكوت . إنّها تريد أن تغنّي ــ أن ترنّم ــ أن تصلّي ــ أن تبوح عالياً بذاتها .

ــ وهل صوتك رخيم ؟

ــ قد تجفل منه أنت . قد تجفل منه هذه الخطاطيف المتسابقة في الفضاء من فوقنا . قد تجفل منه هذه الأعشاب الطريئة والأزهار البديعة بالقرب منّا . قد تجفل منه هذه

الصخور ، وهذا الوادي ، وحتى صنّين الهادىء ، المطمئن . ولكنّني لا أستطيع إلاّ أن أغنّي — أن أرنّم — أن أصلّي . وإن لم أفعل احترقت .

فتبسّم نيسان كما لا يتبسّم غير نيسان وأجاب :

— صلّ ولا تحترق .

ولقد أذهلني ، فوق ما أذهل نيسان ، أن ينطلق صوتي في الحال بكلمتين اثنتين . انطلق خافتاً ، متردّداً ، خجولاً في البداية ، ثمّ راح يرتفع أعلى — فأعلى — فأعلى ، حتى خيّل إليّ أنّه طغى على هدير النهر في الوادي ، وعلى كلّ صوت في السفوح وفي القمم ؛ وأنّه راح يتغلغل في أحشاء الصخور ، وفي آذان الأعشاب والطيور ، وأنّه شقّ طريقه إلى السماء ، وبات يملأ الفضاء .

أمّا الكلمتان اللتان بهما انطلق لساني فكانتا :

« رَبّي وإلهي ! »

مضيت أنغّم الكلمة الأولى ، ثمّ الثانية ، ثمّ الاثنتين معاً تنغيماً يمعن في الصعود وفي النزول ، وفي الامتداد والانكفاء ، وفي التلوين بين لفحة الشوق ، وفرحة اللقاء ، ولذّة العناق ، ونشوة الانعتاق . أمّا الضراعة ، وأمّا الذلّ والانسحاق والانكسار فلم يكن لها في صوتي من أثر .

وأنتهي من تنغيم تينك الكلمتين إلى تنغيم كلمات ثلاث

فرضت ذاتها عليّ فرضاً . والكلمات الثلاث هي :
« مِنكَ ، وعليك ، وإليك » .

وهذه كذلك أمضي في تنغيمها بحيث لا يتردّد النغم الواحد مرّتين . وكثيراً ما كنت أنطق بها وكأن ألِفاً أضيفت إلى واو العطف فيها . فتنطلق من فمي هكذا : منك وا ، عليك وا ، إليكْ .

ولم يخطر في بالي أن أسأل نيسان عن وقع أنغامي في نفسه ، ولا الهواء الذي كان يحمل تلك الأنغام إلى الجهات الأربع إذا كانت أمعاؤه قد تضايقت منها .

على أنّني ، وأنا أفتنّ في تنغيمي ، نسيت أنّني المنغّم ، ونسيت أن لي قلباً ينبض ، ورئتين تتنفّسان ، وأعضاء أخرى تعمل عملها بانتظام . أجل . نسيت أنّني من لحم ودم ، وتحوّلت بكليّتي صوتاً ونغماً وخمس كلمات .

ولكنّني سرعان ما تذكّرت الذي نسيته عندما كاد صوتي يبحّ ، وكادت الصخرة التي كنت جالساً عليها تنفذ نواتئها إلى عظامي . فحبست صوتي ، وعدّلت جلستي ، وعاد الصمت فران عليّ وعلى نيسان .

ـ مَن هو هذا الربّ والإله الذي تناجيه ؟

جاءني هذا السؤال من نيسان ساعة لم أكن أدري أين أنا . فأجبته على الفور ، ودون أن أفكّر في الجواب :

– سَلْه يجبك .

– ولكنّني لا أعرفه .

– ولا أنا أعرفه .

– تناجيه ولا تعرفه ؟

– أناجيه لأعرفه .

– لست أفهم .

– أناجيه بلساني . ولكنّه هو الذي يحرّك لساني . فكأنّه بلساني يناجي ذاته بذاته . وكأنّي إذ أناجيه ، أناجي ذاتي بذاتي .

– كلامك ، كغنائك ، نشاز في نشاز . وأين هو الذي تناجيه ؟

– لا أدري . والذي أدريه هو أنّني أحسّ وجوده في وجودي أعمق الإحساس . ولولا ذلك لما ناجيته .

– وما الذي ذكّرك به الآن فرحت تناجيه مناجاة المتيّم الولهان ؟

– هذا الجمال الذي من فوقي ومن تحتي ، وعن يميني وعن يساري ، وفي أعمق أعماق ذاتي . وأنت رسول من رسل الجمال يا نيسان . والجمال هو الحياة يا نيسان . فحيث لا جمال لا حياة . وحيث لا حياة لا جمال . تباركت الحياة .

– ما كنت أظنّك من الذين يسكرون بزبيبة .

آلمني هذا التهكّم في صوت نيسان وكلماته . فسألته بشيء من الامتعاض والحدّة :

— وأيّ زبيبة تعني ؟

— هذه الأعشاب والأزهار والأطيار ؛ وهذه الجبال والتلال والأودية ؛ وهذا الهواء وهذي السماء — تلك هي الزبيبة التي أسكرتك فأخرجتك عن وقارك . إنّها الأحساك على بيدر الزمان . يلهو بها حيناً ثمّ يذروها ، ثمّ يعود فيجمعها ليلهو بها من جديد . وما أنا غير مذراة من المذاري الكثيرة في يد الزمان . وما أنت غير حفنة من الحسك على بيدره .

— أيكون حسك حيث لا حبّ ؟

— لا . ولكن الحبّ كذلك ملهاة من ملاهي الزمان .

— أيكون زمان حيث لا حياة ؟

— ولا تكون حياة حيث لا زمان .

— ولكنّني في نشوتي نسيت الزمان ، وما بقيت أحسّ غير حيويّة الحياة . وهي التي ، عن غير قصدٍ مني ، دفعتني على مناجاتها فناجيتها بقولي : « ربّي وإلهي ! منك وعليك وإليك ! » فأنا منها جئت ، وعليها أتوكّل ، وإليها أعود . بل أنا كنت معها وفيها من الأزل ، ومعها وفيها سأبقى إلى الأبد . ولولا أنّها أحبّتني لما تمثّلتْ فيّ . ولولا أنّني أحببتها لما سكرت بجمالها . فحبّها جمال . وجمالها حبّ . وليس غير

الحبّ ربّاً أو إلهاً .

وكأنّي بنيسان شاء أن يغيّر مجرى الحديث ، فمدّ إصبعه في اتجاه صخرة قريبة منّا ، وأشار إلى دائرة حمراء عليها ، ثمّ سألني :

ــ ما هذه الدائرة الحمراء ، وهل هي من يد الإنسان أم من يد الطبيعة ؟

قلت ، وقد صوّبت بصري نحو الدائرة التي أشار إليها نيسان ، فأدركت في الحال ما هي :

ــ هذه علامة من علامات المساحة . إنّها تحدّد التخم بين مُلْكٍ وآخر .

ــ أتعني أن هذه الصخور لها مَن يملكها من الناس دون كلّ الناس ؟

ــ ذلك هو واقع الناس ، وذلك هو نظام الناس . ولو شاء أصحاب هذه الصخور أن يطردوك ويطردوني عنها لوقف القانون إلى جانبهم ، ولجنّد لنجدتهم المحاكم والجيوش إذا اقتضت الحاجة .

ــ تبّاً لهم من مجانين يقيمون التخوم ثمّ يقتتلون لأجل الحفاظ على التخوم . ويتفانون في سبيل تملّك الأرض والمتاع فيتملّكهم الذي يتملّكون ، ويُفنيهم الذي في سبيله يتفانون .

ـ صدّق أن الناس لو استطاعوا أن يتملّكوك يا نيسان لتملّكوك من زمان . فليس يغريهم من حياتهم أيّ شيء مثلما يغريهم أن يملكوا كلّ شيء .

ـ مجانين . مجانين .

ـ أتعجب لي بعد هذا يا نيسان أسكر بلحظات لا تحوم فيها ولا سموم ، ولا حاكم ومحكوم ، ولا مالك ومملوك ، ولا سيّد وعبد ، ولا فلس ودينار ، ولا سيف ولا نار ، ولا نزاع ولا خصام ، ولا شهوات تفحّ في الظلام ؟ إنّها لَلَحظات تنفتح فيها لنفسي كنوز أين من ألَقها ألَقُ كنوز الأرض وجميع الكواكب السابحة في الفضاء ؟ إنّها تمطر عليّ النور والبركات . ولذلك تهتف الحياة في داخلي :

« رَبّي وإلهي !

منك ، وعليك ، وإليك ! »

وعاودتني الرغبة في تنغيم ذلك الهتاف . فلم يزجرني نيسان . ولا زجرتني نفسي .

ورحت ، ويدي في يد نيسان ، أتوقّل وإيّاه ضلوع الجبل باتجاه الطريق العام . حتّى إذا بلغناه خرستُ وخرس نيسان . فاللياقة تقضي ، وقد أمسينا في أرض مأهولة بالسكان ، أن نحيي الذين نلتقيهم منهم ، أو أن نردّ تحيّاتهم . إلاّ أنّني ،

وإن امتنعت عن الغناء بلساني ، فقد بلغت عتبة بيتي وفي داخلي أوتار ما انفكّت تغنّي :

« ربّي وإلهي !

منك وا ، عليك وا ، إليكْ ! »

شحاذ

كنّا ، ونحن صغار ، نخاف من الشحّاذين ونحتمي منهم بأمّهاتنا . فقيافة الشحّاذ وحدها كانت تكفي لإثارة الرعب في قلوبنا : سروال مهلهل ، ممزّق ، ومرقّع إلى حدّ أن لا تتبيّن نسيجه الأصلي ؛ وقميص طلّقته أزراره من زمان ، وجفاه الماء والصابون ، وكثرت شقوقه فبانت من خلالها بقع متفاوتة الحجم من الجلد والشّعر ؛ وغطاء على الرأس قد يكون كوفيّة تناثرت خيوطها ، أو خرقة بالية ، أو طربوشاً كان من حقّه أن يتقاعد منذ نصف قرن ؛ وحذاء تطلّ الرجل من ثقوبه وشقوقه ، ولا يدري أيّ منجّم من أيّ مادة صُنع .

ولتكتمل القيافة كان لا بدّ من مخلاة تتدلّى من الكتف ، ونصيبها من المتانة والنظافة نصيب السروال والقميص وغطاء الرأس . مثلما لم يكن بدّ من عصا تبدو ، في الغالب ، وكأنّها ذنَب الكلب . وإذا اتّفق وكان الشحّاذ محدودب الظهر ، كثّ اللحية ، رَمِد العينين ، أو كان في وجهه وباقي بدنه عاهة من العاهات فبإمكانك أن تتخيّل الرعب الذي كان

يبعثه في نفوسنا منظره . أضف إلى ذلك ما كنّا نراه في مشية الشحاذين البطيئة ، وفي وجوههم الكالحة من مذلّة وانكسار . فما أذكر أنّي رأيت مرّة شحّاذاً يتبسّم ، أو أنّي سمعت واحداً يضحك . فكأن المهنة تقضي عليهم بأن يطردوا من وجوههم جميع أمارات القوّة والرجاء والسرور .

فلا عجب أن تلجأ أمّهاتنا إلى تخويفنا بالشحّاذين كلّما تضايقن من شيطناتنا :

« اهدأوا ! وإلاّ ناديت الشحّاذ ! »

أمّا أنّ وجود الشحّاذين في الأرض هو غلّ في أعناق المتحكّمين في مقدّرات أبناء الأرض فذلك ما لم تقُله لنا أمّهاتنا في أيّ يوم من الأيّام .

* * *

واتفق ذات صباح من الصيف الذي عدت فيه من المهجر إلى مسقط رأسي في سفح صنّين أن اشتدّ بي الشوق إلى رحلة في الجبال . فارتديت بنطلون « غولف » من النوع الذي يُربط طرفاه السفليان تحت الركبة فيتدلّيان إلى منتصف البطّة . ولبستُ قميصاً بليت جدّته ، واعتمرتُ قبّعة من الكاكي تطفطف فوق عينيّ وأذنيّ ، وعلّقت في كتفي كيساً من الكتّان الأسمر وضعت فيه كتاباً وبعض الزاد ، وأخذت

بيدي عصاً غليظة من السنديان ، وانطلقت في طريقي .

وإذا بي ، بعد دقائق من السير ، ألتقي في الطريق صبيّاً حافي القدمين ، متورّد الوجنتين ، منفوش الشعر ، أسود العينين . وإذا بالصبيّ – وما أظنّه كان فوق السادسة – يقف بغتة حالما وقع بصره عليّ ، ثمّ يتأمّلني بالكثير من الدهشة ؛ ثمّ يدور على عقبيه ويطفق يعدو وهو يصيح بأعلى صوته :

« إمّي ، إمّي ، لَيكِ الشحّاذ . لَيكِ الشحّا – ا – ا – ذ ! »

وتفتح الأم للصبي ذراعيها ، وتضمّه إلى صدرها ، وتقبّل جبينه ، وتهدّىء روعه . وكانت جالسة على عتبة بيتها بجانب الطريق . إلاّ أنّها ما إن رأتني وعرفتني حتّى لطمت الولد لطمتين ، ودفعته من حضنها ووقفت تؤهل بي وتعتذر عن « قباحة » ابنها : « يا عيب الشوم . يا عيب الشوم » .

فقلت لها وأنا موقن أنّها لن تفهم ما أقول :

« أينطق بالحق وتضربينه ؟ حرام . حرام ! »

وكيف كان لها أن تفهم أنّني كنت في سبيلي لأستعطي قبساً من النور ، ولمحة من الجمال ، ودفقة من نسيان الذات ، وأن جميع النّاس ليسوا بأكثر من شحّاذين على أبواب الحياة ؟

النعنوعة

كان يرعى نعجة وحمَلَيها الصغيرين بالقرب من الطريق.

فتوقفت لأسأله :

ــ إبن مَن أنت ؟ فأجابني :

ــ إبن شكر الله .

ــ وما اسمك ؟

ــ منصور .

ــ وكم عمرك ؟

ــ عشرة .

لقد كان في وقفة الصبيّ ، وفي تقاطيع وجهه الوسيم ، وفي نظراته ونبراته ، الكثير من الجرأة والاعتداد بالنفس . وكان ، وهو يردّ على أسئلتي ، يحدّق إليّ حيناً ، وحيناً يمضي يضرب الأعشاب والأشواك عن يمينه وعن شماله بقضيب في يده . فأثار إعجابي والمزيد من فضولي :

ــ ألا تذهب إلى المدرسة يا منصور ؟

ــ حين لا يكون عندي من الشغل ما هو ضروري أكثر من المدرسة .

ـ وهل لك إخوة وأخوات ؟
ـ أخوان وأخت ـ أصغر مني . أنا البكر .
ـ وأبوك وأمّك ؟
ـ أبي مات . مات قبل سنة . وأنا وأمّي نعول العائلة .
ـ عندكم أملاك ؟
ـ بستان صغير ، وبقرة ، وعنزتان ، وهذه النعجة .
ـ وأين العنزتان والبقرة ؟
ـ العنزتان مع القطيع ، والبقرة في البيت .
ـ وهذه النعجة ـ ما بال عرقوبها مضمّد ، وكأنّي بها تعرج قليلاً ؟
ـ عرقوبها كسرتُه منذ أيّام بضربة حجر . ولكنّه عاد فجبر والحمد لله .

في هذه اللحظة راح ولدا النعجة يقفزان ويتظاهران كما لو كانا يتناطحان . ثمّ اندفعا سويّة نحو منصور وأخذا يدوران حواليه كأنّهما يتمّمان رقصة على مسرح . فما كان من الصبيّ إلاّ أن طرح القضيب من يده ، وجلس القرفصاء ، وأخذ كلاًّ من الحَمَلين بيد ، وضمّهما إلى صدره وطفق يقبّلهما بلهفة ولا لهفة الأمّ لولدها . فسألته ، وقد هزّني المشهد :

ـ أيّ الاثنين أحبّ إلى قلبك ؟

ــ النّعنوعة . روحها أخفّ من روح أخيها ، وحركاتها ألطف من حركاته . إذا قدّر الله لهما الحياة فسيكون هو كبشاً عظيماً . وتكون هي نعجة عظيمة . أحبّ الاثنين . ولكنّني أحبّ النّعنوعة أكثر من النّعنوع . دمها أخفّ من دمه .

وأطلق الولد « النّعنوع » من يده ليتسنّى له أن يقبض على « النعنوعة » بكلتا يديه ، ويمضي يشدّها إلى صدره ، ويقبّل عينيها الوديعتين وفمها الأبيض ، وهو يخاطبها كما لم يخاطب أيّ عاشقٍ معشوقه ، أو أي عابد معبوده . وكانت « النعنوعة » بصوفها المتجعّد ، والأبيض ولا بياض الثلج ، تحاول الإفلات منه فلا تستطيع . ولعلّها كانت تتظاهر كما لو كانت تحاول الإفلات . وكانت الشمس تضحك من فوق ، والعصافير ترنّم أعذب ترانيمها .

مرّ أسبوع . وخطر في بالي منصور ونعجته ونعنوعه ونعنوعته . فما دريت إلاّ وأنا في طريقي إلى المكان الذي فيه التقيته . وكنت أشكّ في أن ألقاه حيث لقيته أوّلاً . ولكنّني كنت آمل أن أجده في مكان ما بالقرب من ذلك المكان .

ولم يخب فألي . فقد وجدت الصبيّ على بعد أمتار من المكان الذي وجدته فيه قبل أسبوع . حيّيته فلم يردّ التحيّة . وظننت أنّه نسيني ، فذكّرته بما كان بيني وبينه ، ولكنّه لم يهشّ ولم يبشّ . عندئذ اقتربت منه ، وأخذته بيده ، وناديته :

ـ منصور !

فردّ على ندائي دون أن يرفع بصره إلى وجهي :

ـ ماذا تريد ؟

ولم يزد على ذلك حرفاً واحداً . وأقلقني شحوب في وجهه ، وجمود في عينيه وحركاته . وأعجزني أن أحمله على البوح بما به . إلاّ أنّه ، عندما سألته عن « النعنوعة » انفرطت الدموع من عينيه غزيرة ، حارّة . وبعد جهد تمكّن من النطق فقال :

ـ دهستها سيارة منذ يومين . سحنتها سحناً . وتوقّف صاحب السيارة ليدفع لي ثمن النعنوعة خمس ليرات . فمزّقتها ورميتها في وجهه . آه . ليتني كنت كبيراً ... ولكنّني سأكبر وآخذ بثأر « النعنوعة » .

وهنا ثغت الشاة الأمّ ثغاء حزيناً . وتبعها النعنوع . وكان ثغاء الاثنين نداء للنعنوعة .

فيلسوفة الضيعة

لم يخطىء الذين لقّبوها بفيلسوفة الضيعة . فلو أنّها عاصرت سقراط لكانت ، ولا ريب ، من ألصق الناس به .

في طبيعة أمّ فَدْعُوس ما يأبَى أن يأخذ الأمور على علاّتها . فعقلها لا ينفكّ يسأل ويمحّص ويستنتج . والذي يستنتجه عقلها هو ، في الغالب ، غير ما يستنتجه جيرانها وجاراتها . لذلك تبدو لهم وكأنّها تحمل السلّم بالعرض ، وعلى الأخص في انتقادها اللاذع ، المستمر ، لعاداتهم وتقاليدهم التي لا يحيدون عنها قيد أنملة . فما حضرت عرساً أو مأتماً إلاّ انبرت تسخر بأفراح الناس وأتراحهم ، وبالأساليب التي يلجأون إليها في التعبير عنها .

تزوّجت أمّ فدعوس في سنّ مبكرة ولم ترزق أولاداً . فاتخذت لنفسها لقب « أمّ فدعوس » نكايةً بجاراتها اللواتي كنّ يتنادين أبداً على مسمع منها « يا أمّ فلان » أو « يا أمّ فليتان » وكأنّهن يسخرن بعقمها . أمّا زوج أمّ فدعوس فشيخ عاجز ، طريح الفراش . في حين أنّها لا تزال نشيطة ، ولم تجاوز بعد الستّين .

« الزواج قلّة عقل . والأولاد قلّة عقل » . هكذا كانت تقول أمّ فدعوس وتعلّل قولها بأن الإنسان من الضعف والجهل بحيث لا يستطيع أن يسوس نفسه ويربّيها كما ينبغي . فكيف به يسوس غيره ويربّي غيره ؟ اجمع ضعيفاً مع ضعيف فماذا تكون النتيجة ؟ — ضعيفَين . وأقِم جاهلاً مربّياً لجاهل فماذا تكون النتيجة ؟ — جاهلَين .

لكنّ أمّ فدعوس ، على كرهها للعادات والتقاليد المتأصّلة في حياة الناس ، كانت تسايرها في بعض الظروف . وكانت تبرّر مسايرتها بقولها : « يد واحدة لا تصفّق » . أو بقولها : « الذي لا يساير الناس ليس من الناس » .

كان يوم خرجت فيه الضيعة على بكرة أبيها تقريباً تشيع إلى « المقرّ الأخير » صبيّة اخترمها السرطان من زوجها وأهلها وطفلها الوحيد الذي لم يُكمل الثالثة من عمره . فلم تلبث الكنيسة أن غصّت بالمصلّين ، فاضطرّ جانب كبير منهم أن يبقى خارجاً في ساحة الكنيسة . وبين هؤلاء كانت أمّ فدعوس التي انتحت وعدداً من جاراتها ناحية منعزلة من الساحة . وجاراتها أخذن يتحدّثن عن الفقيدة ، ويعدّدن خصالها الحميدة ، ويتأوّهن على شبابها ، وعلى الفاجعة التي جلبها موتها الباكر لزوجها وأهلها وطفلها الصغير . ويختمن تفجعاتهن باستدرار الرحمة لها : « الله يرحمها ! »

فما كان من أمّ فدعوس إلاّ أن سوّت الطرحة السوداء على رأسها ، وقطّبت حاجبيها ، وزمّت شفتيها ، ثمّ اندفعت تتكلّم وكأن كلامها الرصاص المنطلق من فوهة البندقيّة الرشّاشة :

« الله يرحمها . الله يرحمها . — كلام فارغ . لو شاء الله أن يرحمها لما ابتلاها بالسرطان . ومَن أنا وأنتنّ وجميع الناس لنغيّر أو نبدّل بصلواتنا حرفاً أو نقطة من مشيئة الله ؟ لو كان لله أذن تسمع كلّ صلوات الناس لانفجرت من زمان . ولو كان للصلوات والضراعات أي أثر في مشيئة الله لانتفى الوجع ، والفقر ، والمرض ، والموت من الأرض . نصلّي ، نصلّي — ونجوع . نصلّي ، نصلّي — ونمرض . نصلّي ، نصلّي — ونموت . إمّا أن يكون الله أطرش . وإمّا أن نكون لا نحسن الصلاة . وإمّا أن نكون سخفاء ، بلهاء . والأخير هو الأرجح » .

فاعترضتها إحدى سامعاتها وهي ترسم الصليب على وجهها :

— نجّنا يا ربّ . نجّنا من مثل هذا اللسان . أنت كافرة يا أمّ فدعوس .

— أنا الكافرة ؟ ! إسمعي ، اسمعي ما يقوله الكاهن .

وكان الكاهن في تلك الدقيقة يخاطب الله ويوصيه بالفقيدة

خيراً فيقول : « ورتّبْها في مكان خضرة ، في مقرّ راحة ، حيث الصدّيقون يستريحون » .

– مكان خضرة . إيهْ ؟ الله عنده بساتين ، آ ؟ حيث الصدّيقون يستريحون ؟ ! تنابِلْ ، إذا كانوا يستريحون إلى الأبد ولا يعملون أيّ شيء .

وهنا تدخّلت ثالثة لتقول لأمّ فدعوس :

– يقطع لسانك إن شاء الله . يجرح ، ولكنّه يقول الحقّ .

وانتهت الصلاة . ووُضعت الميتة حيث يوضع الموتى . واصطفّ ذووها أمام الكنيسة ليتقبّلوا التعازي . ومرّ المشيّعون من أمامهم وكلّ واحد منهم يردّد : « الله يرحمها » . إلاّ أمّ فدعوس . فقد انصرفت إلى بيتها وحدها ، ولسانها في فمها لا يتحرّك .

أستاذ

سحَرَتْه ، منذ صباه الباكر ، كلمة « أستاذ » . فقد كان بيته يجاور بيت محام غنيّ نشأ ، كما نشأ هو ، في عائلة فقيرة وبيت حقير . ولكنّه بجدّه ، وذكائه ، وطموحه ، وتفاني والديه وإخوته في سبيل تعليمه استطاع أن ينال شهادة الحقوق وأن يبرع في المحاماة .

وكان المحامي الغنيّ ، كلّما زار الضيعة ، توافد أهلها للسلام عليه والاستفسار عن صحته الغالية وصحّة « الستّ » والأولاد . وكانوا يتبارون في التودّد إليه وتبجيله ، وبالأخص أولئك الذين كانت لهم دعاوى بين يديه . فقد كانوا يحملون إليه الهدايا ، ويعرضون خدماتهم عليه ، ويعتزّون إذا هو ابتسم لهم ، ويقهقهون إذا هو روى لهم نكتة حتّى وإن كانت من أبلد النكات . ولم يكن أحد في الضيعة – حتّى أبوه وأمّه وإخوته وزوجته – يخاطبه أو يتحدّث عنه إلاّ بلقب « أستاذ ». فكأنّه بات في غنًى عن اسمه الأصلي .

تلك الهالة من العظمة التي أحاط بها نفسه المحامي الغنيّ هي التي سحرت جاره الصبيّ الفقير ، فراح يحلم لنفسه

بمثلها ، ويحلم معه أهله كذلك . فانصرف أهله ، بالتقتير على أنفسهم وبالدّين ، ينفقون على تعليمه ليصبح «أستاذاً» يوماً ما .

ولكن الولد لم يوفّق في دروسه إلى أبعد من الشهادة التكميليّة . أمّا البكالوريا الّتي لا غنى عنها لدرس الحقوق فقد فاته الحصول عليها برغم محاولاته المتكرّرة ، اليائسة . وكان من الطبيعي أن يعزو إخفاقه إلى تحامل الفاحصين ، وإلى الحظ ، وأن يُقنع أهله بصدق مزاعمه .

بعد سنتين ، وبوساطة بعض ذوي النفوذ ، تمكّن الولد — وقد أصبح شابّاً — من الحصول على مركز معلّم في مدرسة الضيعة الابتدائية ، وبمرتب جدّ زهيد . فلم يزعجه ذلك التقلّص الفظيع في أحلامه . بل سُرّي عنه إلى حدّ بعيد لأنّه ، في النهاية ، أدرك ضالّته . أليس أنّه أصبح أستاذاً ؟

ومشى المعلّم الجديد في ضيعته مشية كلّها اعتزاز واختيال . فهو في المدرسة أستاذ — يسمعها في كلّ يوم من التلاميذ ومن زملائه المعلّمين . وهو في السوق أستاذ . وحتّى في البيت أستاذ . فقد حرّم على أمّه وأبيه وإخوته وأخواته أن يخاطبوه ، أو أن يتحدّثوا عنه أمام الناس ، إلاّ بكلمة «أستاذ». ويحكى أن امرأة جاءته مرّة تسأله عن ابنها وسلوكه واجتهاده في المدرسة فاستشاط غيظاً عندما خاطبته بقولها « يا معلّم » وأجابها :

« أنا أستاذ . وأستاذي لم تأتي من عندك أو من بيت أبيك . لقد دفعت ثمنها . أفهمت ؟ »

وتمنّت المرأة لو تنشقّ الأرض وتبتلعها . ولم تجد ما تقوله غير « لا تؤاخذني يا معلّم » . فما كان منه إلاّ أن فتح لها الباب وأمرها بالخروج .

واتفق أن ارتكب « الأستاذ » قباحة استوجبت طرده من المدرسة . وضاقت به الحيل ، وسُدّت سبل العيش في وجهه . فلم يجد مناصاً من العودة إلى الأرض التي كان يحرثها والده وإخوته ومنها يرتزقون . ثمّ اتفق أن مرّت به ذات يوم تلك المرأة التي طردها من بيته ، وكان في يده معول وعلى كتفه مجرفة ، فحيّته بقولها :

« العوافي يا أستا ــ ا ــ ا ــ ذ ! »

ريح الجلجلة

قال ممدوح لجارته ورفيقة صباه عبلة :

ـ أتعرفين ماذا يخطر في بالي يا عبلة ؟

فأجابته عبلة ، وقد التمعت عيناها الواسعتان ببريق الدهشة والانتظار :

ـ ماذا يا ممدوح؟ شيء جميل إن شاء الله ؟

ـ غداً الجمعة الحزينة ـ اليوم الذي فيه صُلب المسيح .

ـ صحيح ، صحيح . وفي الجمعة الحزينة يعيّدون ، وإلى المدرسة لا يذهبون .

ـ وفي الجمعة الحزينة يتشرحطون[1] ـ يتعذّبون مع المسيح .

ـ كانوا يتشرحطون . أمّا اليوم فيتنزّهون ويسكرون ويعربدون .

ـ ذلك عيب . عيب كبير . المسيح يتألّم من أجلنا على

---

١ تشحط بالدم تضرّج به . ويبدو أن ذوق العامة استثقل اجتماع الشين والحاء المشدّدة والطاء فأقحم بعد الشين راء . وهكذا خفف الحاء فأصبحت الكلمة على ألسنة العامة « تشرحط » .

الصليب ونحن نفرح ونغنّي ونسكر ؟ ! عيب . عيب . يجب أن نتألّم مع المسيح في يوم آلامه . ألا توافقين ؟

وأطرقت عبلة هنيهة ، وطار البريق من عينيها الجميلتين ، الحالمتين . وبغتة قفزت نحو ممدوح ، وأخذت يديه بيديها وراحت تهزّهما يميناً ويساراً ، وقد تورّدت وجنتاها ، وأشرق محيّاها ، وطفقت تردّد :

ـ ممدوح ، ممدوح ، ممدوح ! غداً نتشرحط . عظيم !

واتّفق الولدان أن يسبقا الشمس في الغد إلى الجبال ، وأن يحملا معهما شيئاً من الزاد . وكانت عبلة قد أضمرت في سرّها أن تأخذ مع الزاد قليلاً من النبيذ فقد راقها أن تقلّد ورفيقها الكبار وإن لم يكن أيّ منهما قد تذوّق المسكر في حياته .

كان ممدوح في العاشرة من عمره ، وكانت عبلة في الثامنة وقد نشأ الاثنان في بيتين متجاورين . أمّا هو ففي بيت فلاّح فقير . وأمّا هي ففي بيت تاجر ميسور . ومثلما تجاور بيتاهما تجاور قلباهما كذلك . فما كانا يطيقان الابتعاد أحدهما عن الآخر . وهذا التقارب بين الولدين كان يسبّب الكثير من الانزعاج لأمّ عبلة ، والكثير من الفرح لأمّ ممدوح .

في الصباح ، وقبل شروق الشمس ، كان ممدوح وعبلة في طريقهما إلى غابة من الصنوبر تتسنّم أكمة عالية تشرف

على واد عميق ، وتبعد عن القرية مسيرة ساعة . وقد أصرّ الصبيّ أن يقطعا نصف المسافة بأقدام حافية على الرغم من وعورة الطريق وكثرة أخاديده وصخوره وأشواكه . وكانت حجّته في ذلك أن التشرحط لا يكون تشرحطاً إلاّ إذا رافقه شيء من الدم والوجع ، وإلاّ إذا تمكّن المتشرحط من جمع كميّة من الأزهار يحملها إلى الكنيسة لتوضع على نعش المسيح عند جنّازه .

الفصل ربيع ؛ والنهار سماؤه مجلوّة ، وشمسه مؤنسة ؛ والجبال البيض تتعرّى شيئاً فشيئاً من أكسيتها الشتويّة ؛ والنسيم المنعش يترنّح بأغاني السواقي وأغاريد العصافير . وممدوح وعبلة يتسلّقان الجبل ولا يشعران بأيّ تعب . بل هما يغنّيان مع العصافير المغنية ، ويضحكان لكلّ قطرة دم تبتزّها شوكة قاسية من أقدامهما الطريئة . وكلاهما يحاول أن يبدو في عين رفيقه آية في الشجاعة ، وأن يبزّه في تحمّل المتاعب والمشقّات . وأن يكون الأسبق إلى اكتشاف زهرة بديعة اللون والتكوين .

ـ آخ !

انطلقت الصرخة من فم الفتاة وتلتها في الحال قهقهة عالية ولكنّها غير خالية من الوجع . وإذا بعبلة تجلس على الأرض وتأخذ رجلها اليسرى بيديها الاثنتين وقد سال الدم منها فوق الكاحل بقليل . فأسرع إليها ممدوح بشيء من

اللهفة . إلاّ أنّه عندما عرف أن الدم لم يكن غير نتيجة وخزة من شوكة قاسية راح يسخر من رفيقته ويقول :

– ما أكبر مصيبتك ! نكزة شوكة لا أكثر . المسيح دقّوا المسامير في يديه ورجليه .

– وأين هو المسيح الآن ؟

– في السماء .

– أتظنّه يرانا ؟

– من كلّ بدّ .

– ويَسرّه أنّنا نتألّم معه ؟

– من كلّ بدّ .

– ويأخذنا لعنده بعدما نموت ؟

– من كلّ بدّ .

– ليتنا نموت .

– يا ليت . . .

انتهى الجنّاز في الكنيسة ، وأمّ ممدوح وأمّ عبلة لم تبصرا لولديهما أثراً بين المصلّين . فاضطربتا أيّما اضطراب . وزاد اضطرابهما عندما لم يبقَ بين الشمس والبحر غير بضع قامات . وبينما هما تتشاوران في الأمر خارج بيتيهما إذا بالناطور يمرّ فتسأله أمّ ممدوح عن الولدين وهل رآهما . فيجيب أنّه رآهما في الصباح وعرف منهما أنّهما في طريقهما

إلى غابة الصنوبر . وفي الحال قرّ رأي الوالدتين أن تتوجّها إلى الغابة .

في الغابة عين ماء تفور من الأرض وتنساب بين الصنوبر في مجرى ضيّق اخضرّ جانباه بشتّى الأعشاب البريّة . وهذه العين أدركتها أمّ ممدوح قبل جارتها . وإذا بها أمام مشهد صفّق له قلبها ، وغامت عيناها ، ومشت قشعريرة حلوة في سائر بدنها . فأحسّت كما لو كانت تبصر صورة طبعتها السماء على الأرض . ولم تتمالك من الركوع على ركبتيها ثمّ من الهتاف بصوت سمعته جارتها :

– اسم الله ! اسم الله ! تقبروني نْشاالله !

لقد رأت أم ممدوح الولدين يغطّان في نوم هنيء على فراش من مسلاّت الصنوبر ، وقد توسّدت عبلة زند ممدوح وبسطت كفّها على خدّه ، والتصق شعرها بشعره ، وبانت على ساقيه وساقيها بعض الخدوش وبعض آثار الدم . وبالقرب منهما كانت دكّة واطئة مبنيّة من الحجارة الصغيرة ومغطاة بمسلاّت الصنوبر ، ومن فوق المسلاّت غطاء من القماش الأبيض ، وعلى الغطاء بقايا من الفستق والبندق والجبن والخبز ، وعلبة سردين غير مفتوحة ، ثمّ قنّينة صغيرة فيها بعض النبيذ الأحمر . فأدركت للحال أن الولدين تناولا شيئاً من النبيذ فسكرا . وممّا زاد في خفقان قلبها حنوّاً عليهما

منظر صليب صغير صنعه الولدان من عيدان الصنوبر وركّزاه في وسط المائدة ووضعا عند أسفله ضمّة من الزهر .

– انظري ، انظري يا جارة ! انظري هذين الملاكين وهذا النور المتلألىء على وجهيهما . يقبروني نشاالله ! !

إلاّ أنّ أمّ عبلة لم تكن ترى ما تراه جارتها . فما ان أبصرت الولدين في الوضع الذي كانا فيه حتّى دنت من ابنتها فرفستها بغضب . ثمّ انتزعتها من بين ذراعي ممدوح وأوقفتها على قدميها وراحت تلطمها دونما شفقة تارة على خدّها الأيمن وأخرى على الأيسر ، وهي تصيح بأعلى صوتها :

– ليتك ما كنت ! ليتك سائبة ! هيّا إلى البيت . سأقبرك الليلة بجاه المسيح !

وكانت الشمس قد أخذت تجرّ ذيولها على البحر .

سؤال

لم يشأ فرحات أن يعطّل نهاره . ولو أنّه فعل لما لامه أحد . فبُعيد نصف الليل وضعت له زوجته غلاماً . وكان الغلام بكرهما . وذلك يعني أن فرحات لم يذق طعم النوم طوال تلك الليلة . فكيف به يصرف نهاره من شروق الشمس حتّى غروبها في تفتيت صخور رمليّة بالمعول وبالمطرقة وبالديناميت ؟ ثمّ كيف به يترك زوجته وليس عندها غير القابلة ؟

إلاّ أن صاحب محفرة الرمل التي كان فرحات يشتغل فيها مع ثلاثة آخرين كان قد ألحّ أمس على عمّاله الأربعة عند انصرافهم أن لا يتأخّر أحد منهم في الصباح عن العمل مهما تكن الظروف . فقد كان عليه أن يسلّم في ذلك النهار كمّيّة كبيرة من الرمل . ونخوة فرحات ، ثمّ شرفه ، ثمّ وجدانه أبت عليه أن يخذل صاحب المحفرة . لذلك وضع في منديل بعض الزاد من حواضر البيت ، وحمل المنديل في يده ، وودّع زوجته والقابلة ، وانصرف إلى مكان عمله في الجبل .

وكان وقت الغداء . فأخذ كلّ عامل زوّادته ، وجلس الأربعة يتناولون طعامهم في الشمس مخافة أن يجفّ العرق على أبدانهم في الظلّ فتنتج لهم عن ذلك بعض المتاعب في الصدر والأعصاب . ولما جاء دور السيكارة نهض فرحات واتجه نحو صخرة منفردة ، عالية تبعد بضعة أمتار عن المكان الذي فيه تناول ورفاقه الغداء . وعندما سأله أحدهم : « إلى أين يا فرحات ؟» كان جوابه: « أريد أن أدخّن سيكارتي في ظلّ تلك الصخرة . إنّها تدعوني إليها » .

وجلس فرحات في ظلّ الصخرة . وأخرج كيس التبغ من جيبه ، ولفّ سيكارة بمنتهى العناية والدقّة ، ثمّ أشعلها وراح يمتصّها ، وينفث ما يفيض عن رئتيه من دخانها ، وكأنّه يقدّم محرقة لمعبوده . وكان في غبطته يرتدّ بقلبه وفكره إلى بيته حيث زوجته الحبيبة وبكره الحبيب . وكان يتمتم دونما انقطاع : « نشكرك يا رب ونحمدك ! »

وبغتة سمع رفاق فرحات هديراً كأنّه قصف الرعد . التفتوا إلى حيث جاء الصوت فإذا بالصخرة التي كان فرحات جالساً في ظلّها قد هوت من مكانها ، وإذا بعمود من الغبار يرتفع عالياً في الفضاء وكأنّه عمود من دخان أغبر . وهرولوا يفتشون عن فرحات فلم يقعوا له على أثر ، ولا هم سمعوا له صوتاً . أمّا الصخرة فقد استقرّت مؤخّرتها حيث كان

فرحات بالتمام .

مضت ساعات والعمّال الثلاثة مع مَن انضمّ إليهم من أهل الجوار يعملون على تحطيم الصخرة الرملية وتفتيتها . ولم يتوقّفوا إلاّ عندما انكشفت لهم جثّة فرحات وقد هرستها الصخرة هرساً فظيعاً .

بكى الناس فرحات بكاء لا تصنع فيه ولا مداجاة . ولم يبقَ واحد إلاّ أعرب عن دهشته للتواقت العجيب بين سيكارة فرحات وانهيار الصخرة التي مرّت عليها آلاف السنين وهي صامدة في مكانها ، لا تجرفها السيول ، ولا تهزّها العواصف والزلازل . فلو أن فرحات تأخّر في غدائه دقيقة أو دقيقتين فقط لهوت الصخرة قبل أن يبلغها . ولو أن الصخرة تأخر انهيارها ولو بضع دقائق لبرحها فرحات قبل أن تهوي عليه . ولكن . . . سبحان الله ! هكذا شاء . وهكذا قدّر . وليس لمشيئته مردّ ، ولا لقدره مقاوم .

ولم يخطر في بال أيّ الناس الذين بكوا فرحات ، والذين لم يحضروا مأتمه ولكنّهم سمعوا بمأساته ، — لم يخطر في بال أيّ منهم أن يسأل : قَدَر مَن هو القدر الذي تمّ ؟

أهو قدر الصخرة ؟

أهو قدر فرحات ؟

أهو قدر زوجة فرحات ؟

أهو قدر الطفل الذي ولد لفرحات وزوجته ؟
أهو قدر رفاق فرحات في العمل ؟
أهو قدر صاحب العمل ؟
أم هو قدر هؤلاء جميعاً ، بل وقدر الأرض والسماء وما بينهما ، وما فيهما ؟
ومَن هو الذي قدّر ذلك القدر ، ويقدّر كلّ قدَر ؟
إنّه لسؤال ـــ ولا شيء أكثر من سؤال .

عطاء الموت

غرستُها بيدي يوم كانت ثخانتها ثخانة خنصري ، وقامتها لا ترتفع فوق التراب أكثر من نصف المتر . أمّا عدد أوراقها فما أظنّ أنّه كان يتجاوز العشرين . ولقد غرست إلى جانبها عوداً قويّاً ومستقيماً ، وربطتها إلى العود ليصونها في طفولتها من عبث الرياح والثلوج ، ولتنمو نموّاً مستقيماً .

ومضيت أرعى غرستي بعيني وقلبي قبل فكري ويدي . فلا يمرّ يوم ، في أيّ فصل من الفصول ، إلاّ أطلّ عليها من شباكي مرّات في النهار لأرى أفي خيرٍ هي وعافية وسلام ، وإذا كانت في حاجة إلى شيء من الماء والسماد ، أو إلى المقرض لتشذيب الآبد والشاذّ من أغصانها . ولكم أبهجني أن ألقي عليها السلام ذات صباح من ربيعها الثاني وإذا بها تردّ السلام بألسنة حفنة من الأزهار البيض المكوكبة في قلبها . ثمّ لكم زاد في بهجتي أن لا ينتصف تموز من تلك السنة حتى تصبح الحفنة من الزهر حفنات من الكرز المتورّد الوجنتين ، المستطيل العنق ، الشهي المذاق ، والذي حجمه بحجم حبّة القراصيا الكبيرة .

استقبلنا – أنا وغرستي – عشرين ربيعاً ، وعشرين صيفاً وخريفاً وشتاء ، كنّا في خلالها نسير في اتجاهين متعاكسين دون أن يبتعد واحدنا عن الآخر ، ودون أن نفترق . فقد كانت قواي البدنيّة تمشي إلى التقلّص والنفاد ، وقواها إلى التمدّد والازدياد . حتى انّي بتّ عاجزاً عن الوصول إلى قمّتها ولو بالسلالم العالية . وحتى إن الرجل الذي ابتاع غلّتها في السنة الماضية أعياه قطفها في يوم واحد .

إلاّ أنّنا – أنا وغرستي – وإن مشينا في اتجاهين متعاكسين ، كنّا أبداً متلاصقين بقلبينا وروحينا . فما أطللت مرّة عليها من شبّاكي ، وفي أيّ يوم أو أيّ فصل من الفصول ، إلاّ شعرت بأنّني أطلّ على خدين أمين ، ورفيق صديق ، أو على دنيا من السحر والفتنة . وعلى الأخص عندما تكتسي غرستي بخضرة الربيع وتمضي أماليدها الطريئة تستطيل وتمعن في الصعود ، فتضحك للشمس الضاحكة ، وتختلج أوراقها الندية لدغدغة النسيم ، وفي اختلاجها تتكشّف عن آلاف الثمار العالقة بالأفانين تمتصّ من صدورها الطاقة على النموّ إذ هي تمتصّ ألوانها العجيبة وطعمها اللذيذ .

وكان الربيع الأخير – ربيع هذه السنة . فأزهرت غرستي كالمعتاد . ثمّ لم تلبث أن اكتست بالخضرة . ثمّ لم تلبث أزهارها أن عقدت . ولكنّ عيني أجفلت ، واضطرب قلبي

أيّما اضطراب إذ راحت الأيّام تكرّ والثمر على غرسّي لا يلتمع وينتفخ كما يلتمع وينتفخ على جاراتها . والورق على أغصانها لا يتسع ولا يسمن . وأماليدها لا تستطيل وتصعد في الفضاء . بل كانت وكأنّها تعاني من لعنة أو من لجام أو من كابوس .

وما هو غير شهر وبعض الشهر حتّى أخذت الثمار على غرسّي تحمرّ قبل الأوان ، وأخذت الأوراق تصفرّ على هذا الغصن ، ثمّ على ذاك ، ثمّ على ذلك ، إلى أن لم يبقَ غير غصنين أو ثلاثة لم يدركها الاصفرار . فأيقنت أن ذلك الاصفرار لم يكن غير اصفرار الموت . واستشرت أكثر من خبير ، فلم تجدني خبرتهم فتيلاً . وخانتني جميع الحيل فاستسلمت . لقد كانت غرسّي الحبيبة ، الجميلة ، الكريمة في سكرة الموت .

وشقّ عليّ جداً أن يطول احتضار غرسّي بعد أن عايشتها وعايشتني عشرين عاماً ، فأطعمتها من قلبي وأطعمتني من قلبها . وما بقيت أطيق أن أطلّ عليها من شبّاكي فأشهد صراعها الصامت مع الموت . ولذلك أمرت بقطعها ، وهربت من البيت لكيلا أشهد المأساة بعيني .

في مساء ذلك اليوم جلست إلى مائدة العشاء وفي نفسي جنازة . فلم أتناول ممّا على المائدة غير حبّات قليلة من الكرز

الأحمر ما أظنّ أنّني تذوّقت في حياتي كرزاً أحلى منها وأشهى .

وعندما سألتُ عن تلك الحبّات من أين جيء بها قيل لي إنّها من الشجرة التي قطعوها قبل ساعتين . . .

صبر أيوب

« يا صبر أيّوب ! » – هتاف يردّده بو شاهين عشرات المرّات في اليوم الواحد كلّما ضايقته مشاكسات الناس ومعاكسات الظروف . ويردّده مصحوباً بزفرة طويلة، وبهزّتين بطيئتين من رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، وبكلمة من مقطع واحد تخرج من فمه وكأنّها أطول من حبل المكاري :
أو – و – و – فّ !

« إهدأ يا ولد ! » – ولكنّ حفيد بو شاهين الأصغر لا ينفك يعبث بنظارتي جدّه وشاربيه ، وباللبّادة على رأسه ينزعها ويمضي يقذفها في الهواء ، أو يدفعها برجله من زاوية إلى زاوية . أو هو يمتطي ظهر جدّه ولا يزال يشدّه بشعره الأشيب حتى ينحني تحته ويدبّ به على يديه وركبتيه . فتغمر الولد نشوة من الفرح ، وتملأ زغرداته البيت إذ هو يحثّ جدّه على السير : « حا ! حا ! » وتُسمع استغاثات الجدّ المتتالية : « أو – و – ف ! يا صبر أيّوب ! »

* * *

ويعاتب أحد الجيران بو شاهين لأنّه - أي الجار - أدان رجلاً من القرية مبلغاً من المال بدون سند فأنكره في النهاية عليه . فيقول بو شاهين لجاره :

- ولكن ما ذنبي أنا إذا لم يردّ الرجل دينك ؟

فيجيبه جاره :

- ذنبك في أنّك خدعتني . .والجار مطالب بجاره .

ويوشك بو شاهين أن ينفجر . إلاّ أنّه يضبط نفسه ويردّ على تهمة جاره بهدوء :

- خدعتك ؟ ! وكيف أخدعك وأنت لم تستشرني في الأمر ؟ إنّها ، والله ، لأغرب تهمة .

- خدعتني لأنّني رأيت الرجل يتردّد على بيتك فحسبته رجلاً شريفاً مثلك .

ويطول الجدال بين الجارين ولكنّه ينتهي بهتاف بو شاهين :

- أو - و - و - ف ! يا صبر أيّوب !

* * *

وتقفز القطة إلى طاولة عليها إبريق من الفخّار . فيهوي الإبريق إلى الأرض ويتحطّم شرّ تحطيم . ويسيل ما فيه من الماء على الحصير والبساط . وللحال تنهال أمّ شاهين على

زوجها بالشتائم :

ـ أيّ نفع منك ؟ سطل بلا علاقة . أكبر بليّة ابتلاني بها الله ـ أنت . يخرب البيت وأنت لا تبالي . لا للسيف ولا للضيف .

ويعرف بو شاهين أنّه داخلٌ معركة خاسرة ، ولكنّها معركة لا مناص من خوضها . فيجمع كلّ ما عنده من شجاعة ليقول :

ـ ولكنّني لم أضع الإبريق على الطاولة . وأنتِ وضعته . ولا أنا اقتنيت القطّة وربّيتها . ولا أنا أمرتها أن تقفز إلى الطاولة.

ـ كان عليك أن تراقب القطّة ، أو أن تضع الإبريق في مكان أمين . ولكنّك مشغول بتفتيل شاربيك ، واللّعب بمسبحتك . ويلي . ويلي أنا المظلومة !

ـ كفّي شرّك يا امرأة . ولا تخلقي الخصام خلقاً . ليعطنا الله خير هذه الساعة .

ـ ما دمت في هذا البيت فالخير بعيد عنك وعن بيتك .

ـ أو ـ و ـ و ـ ف ! يا صبر أيّوب !

هكذا تتتالى الأيّام ، وتتعاقب الفصول ، وبو شاهين الطيّب القلب ، النقيّ الضمير ، العفّ اللسان ، الحامل على منكبيه القويّين أثقال ثلاثٍ وسبعين سنة ، لا ينقطع عن الاستغاثة بأيّوب وصبره ، ولكن دون جدوى . إلى أن كان اليوم الذي ظهر فيه أيّوب لبو شاهين في الحلم وقال له :

« اليوم يومك يا بو شاهين . وأنا معك » .

واتّفق قبل ذلك اليوم بيوم واحد أن دار الحوار الآتي بين بو شاهين وأمّ شاهين :

بو شاهين : لقد أعطانا الله في هذه السنة موسماً من التفاح ممتازاً يعوّض عن مواسمنا الثلاثة الماضية التي كانت خسارة في خسارة . وقد نضج التفاح وآن وقت قطافه . وجاءنا أمس مَن دفع لنا ثمناً مغرياً جدّاً . وكان بخاطري أن أبيع . ولكنّكِ مانعتِ . وأخشى أن تندمي وأندم .

أمّ شاهين : أنت أبداً تتسرّع في أمورك . الأسعار في تحسّن مستمر . والتفاح الذي عندك لا يضاهيه تفّاح . فلماذا العجلة ؟ اصبر أيّاماً بعد وسيدفعون لك ضعفي ما دفعه الرجل أمس .

بو شاهين : التفاح على الشجر ليس لي إلى أن يصبح ليرات في جيبي .

أمّ شاهين : التفاح على الشجر تزيد قيمته يوماً بعد يوم . والليرات في جيبك تنقص يوماً بعد يوم . دعني أتدبّر المسألة .

بو شاهين : الأسعار والأعمار في يد الله . اسمعي من ذقني يا امرأة . قلبي يدلّني على أنّ البيع أفضل من الانتظار .

أمّ شاهين : بل اسمع أنت من ذقن أمّ شاهين . قلبي

يدلّني على أن الانتظار أفضل من البيع .

بو شاهين : قد تندمين يا امرأة .

أمّ شاهين : أمضيت عمرك جباناً . وستبقى جباناً . التجارة تحتاج إلى شجاعة . إلعب بمسبحتك ودعني أتدبّر أمر التفاحات .

بو شاهين : يا صبر أيّوب !

أمّ شاهين : يا صبر أيّوب ! يا صبر أيّوب ! لقد خرّب بيتنا صبر أيّوب . دع أيّوب في قبره . فصبره ليس عملة يقبضها الناس .

وجاء الليل . ونام بو شاهين وأمّ شاهين . وإذا بهما يستيقظان قبيل نصف الليل على هدير كأنّه هدير البحر أو هزيم الرعد . لقد هبّت من الشرق ريح عاصفة ، عاتية ، مجنونة . وكانت تزداد جنوناً هبّةً بعد هبّة . فكأنّها آلت على نفسها أن تدمّر كلّ ما يعترض طريقها . فتقتلع من الشجر ما تستطيع اقتلاعه . وما تبقّى تعرّيه من الورق والثمر . وأدركت أمّ شاهين هول الكارثة فراحت تصلّي دون أن يكون في صلاتها أيّ ارتباط . وتضرب كفّاً بكفّ ، ثمّ تلطم وجهها ورأسها بكلتا كفّيها ، ثمّ تولول بأعلى صوتها « يا خرابك يا بيتي ! » ، ثمّ تنتزع اللحاف عن زوجها وتركله برجلها وتصيح : « قم ! قم ! لا كنتَ ولا كان النوم ! »

ولكنّ بو شاهين لزم فراشه ولم ينبس بحرف واحد .

وأصبح الصباح ، والعاصفة لا تزال تزمجر . وخرجت أمّ شاهين من البيت لتتفقّد بستان التفّاح ، ولتعود بعد قليل وشعرها مشعّث ، وعيناها كأنّهما جمرتان ، ووجهها قد خدّشته أظافرها ، واندفعت نحو زوجها الذي ما برح في فراشه وراحت تصرخ في وجهه :

– يا كافر ! يا قليل الدين ! يا فاقد الإحساس والمروءة ! انهض ! لم يبقَ على الشجر تفاحة واحدة . اكتست الأرض بالتفاح المهشّم والورق الممزّق . انهض . أنت أنحس المنحوسين في الدنيا . أنت النحس بعينه . لولاك لما كانت العاصفة . ولما خسرنا الموسم . قم . قم . لا عِشت لتقوم – بجاه ربّ السماء !

وبقي بو شاهين حيث كان . عيناه جاحظتان في السقف ، ولسانه في فمه كأنّه من الحجر أو من الخشب .

وعندما يئست أمّ شاهين من زوجها رفسته ثانية ، وخرجت في وجه العاصفة وهي تردّد :

« لا عشت لتقوم – بجاه ربّ السماء » .

فما كان من بو شاهين إلاّ أن زفر زفرة طويلة وأرفقها بقولته المشهورة : « يا صبر أيّوب ! » ولكنّه، لأوّل مرّة في حياته، شعر بأن صبر أيّوب قد انزلق عن لسانه ليستقرّ في قلبه.

نحلة في المدينة

في صباح يوم قست ريحه ، واشتدّ فحيحه ، أفقت من نومي وإذا بالساعة التي على معصمي قد أضربت دواليبها وعقاربها عن الدوران . فهرولت إلى ساعاتي أعرفه في المدينة ليتوسّط بيني وبين ساعتي لعلّها تعود عن إضرابها ، وعلى الأخص في ذلك اليوم الذي تراكمت فيه عليّ المواعيد .

لم يكن صاحبي يقصر عمله على تصليح الساعات . بل كان ، إلى ذلك ، يتاجر بأصناف كثيرة منها ، وبأصناف كثيرة من المجوهرات المعروضة أجمل عرض . حتى إن من يدخل دكّانه يحسب أنّه داخل متحفاً من المتاحف .

تفحّص صاحبي ساعتي وهزّ رأسه هزّة ذات معنى :

– إنّها عمليّة تطول . هنالك عطب لا يستهان به . سأعطيك ساعة تستعين بها في مواعيدك ريثما يتمّ لي إصلاح ساعتك .

– ومتى يكون ذلك ؟

– غداً أو بعد غد – لا أبعد .

أوثقت شدّ الساعة المستعارة إلى معصمي ، وودّعت

صاحبي ، وهممت بالانصراف عندما دخلَتِ الدكّان — من حيث لا أدري — زائرة غريبة جداً وحطّت على الساعة المستعارة . وإذا بصاحبي يصيح :

— انتبه ! لا تتحرّك ! إذا تحرّكت لسعَتْك .

تسمّرتُ مكاني ، وتسمّرتْ عيناي على النحلة . لقد كانت تتنفّس بإجهاد ، وتتلفّت ذات اليمين وذات اليسار . وكانت على رجليها شحنة من الطلع الأصفر . فبدت وكأنّها في سروال من المخمل الذهبي . وبمثل سرعة البرق وجدتني محمولاً إلى دنيوات لا وجه شبه على الإطلاق بينها وبين دنيا أنا فيها . بل قد نسيت تماماً أنّني في محلّ تشعّ فيه الساعات والمجوهرات .

لقد بات همّي ، وأنا أحدّق إلى تلك الحشرة العجيبة والفريدة بين الحشرات ، أن أتخيّل ما يدور في رأسها الصغير ، ومدى الدهشة التي استولت عليها عندما قذفتها الريح إلى دكّان صاحبي . فأيّ شأن لها مع الساعات السويسريّة وغير السويسريّة وفي رأسها البديع أدقّ جهاز لتقسيم النهار والليل ، ولمعرفة الطقس والفصول ؟ وأيّ شأن لها مع المجوهرات ؟ إنّها لن تجمع الطلع من الساعات ، ولن تجني العسل من الأساور والخواتم والأقراط ، ومن الماس والياقوت والزمرد والفيروز . هذه أشياء يتهافت عليها الناس كما لو كانت من أغلى بركات

النعيم . أمّا هي – خدينة الزهر وصانعة الشهد – فإنها منها في جحيم .

والغربة – غربتها – ما أمضّها وأقساها ! غربتها عن القمم والسفوح والأغوار . عن الغابات والمروج والبساتين . عن زهرات النفل والصعتر والزعرور والتفاح والكرز والنارنج والبرتقال وغيرها وغيرها من الأزهار الغنيّة بالرحيق . عن خليّتها حيث مليكتها الحبيبة لا ينازعها في الملك منازع ، وحيث رفيقاتها العذارى يبنين المساكن البديعة الهندسة لأنفسهن وللأجيال الطالعة من أبناء وبنات جنسهن ، ويجمعن فيها أطيب الغذاء ، ويتفانين في الحفاظ عليها من كلّ شائبة وكلّ عدوّ . فالمهمّ ، إذا هنّ فنين ، أن لا يفنى النحل من الأرض – أن يكون أقوى من الفناء .

ويدور في خلدي أنّ هذه النحلة التي على الساعة المشدودة إلى معصمي قد لا تكون غريبة عني ، بل قد تكون ذات أفضالٍ عليّ . فمن يدري ؟ لعلّها قد لقّحت أكثر من زهرة في بستاني . ولعلّني انتفعتُ بشمع صنَعَتْه ، وتحلّيت بعسل جنّته . ولعلّ صاحب المحلّ الذي أنا واقف فيه قد انتفع مثلما انتفعت . مَن يدري ؟ وأيّ حيّ يعرف بفضل من يحيا من الأحياء – والأموات ؟

وماع قلبي في داخلي عطفاً على النحلة التي على معصمي ،

وعرفانٌ جميلٍ لها بما تضفيه على حياتي وحياة غيري من لذّة وجمال . ورحت أفكّر كيف أستطيع ، دون أن أؤذيها أو أنفّرها ، أن أخرج بها من جحيمها وأردّها إلى حيث تهتدي بغريزتها المدهشة إلى نعيم كانت فيه .

في تلك اللحظة ، وبمثل رفّة الجفن ، هبطت على معصمي ضربة قويّة من جريدة مطويّة طيّات عدّة . وإذا بالنحلة ترتمي إلى الأرض وقد تهشّم جناحاها ، والتوى جسدها فلامست مؤخرتها فمها . ثمّ اختلجت خلجتين وانقطعت عن الحركة .

– قتلتُها !

قالها الساعاتي بمنتهى الفخر والاعتزاز . فكأنّه ربح معركة مع غول أو تنّين ، فنجا ونجّاني من خطر فظيع وأكيد . ومن غير أن أنبس بحرف انسحبت من دكّانه وبي شعور أن شيئاً في داخلي قد مات بموت النحلة .

زاوية دافئة

التقى شيخ وفتاة في بريّة غمرتها الريح بالثلج ، ثمّ راحت تذروه في كلّ جانب .

كان الشيخ يرتدي عباءة نصفيّة من الصوف ، ويحمل في يده عصاً غليظة من السنديان . أمّا رأسه فكان حاسراً ، وقد تغطى شعره الأشيب بالثلج فبدا وكأنّه الثلج .

وكانت الفتاة ترتدي معطفاً من الفرو ، وقد لفّت رأسها بشال من الكشمير ، وغلّفت يديها بقفّازين من الجلد الأسمر مبطّنين بفرو الأرانب .

وقف الشيخ ووقفت الفتاة فترة وكلاهما يتأمّل الآخر ولا يفتح فاه . وأخيراً تكلّم الشيخ من بعد أن نفض الثلج عن رأسه :

— السلام أيّتها الفتاة

فأجابت الفتاة وهي تنفض الثلج عن معطفها:

— السلام أيّها الشيخ .

— مِنْ أين وإلى أين ؟

— من الغرب وإلى الشرق . وأنت من أين وإلى أين ؟

ـ من الشرق وإلى الغرب . وماذا تطلبين في الشرق ؟

ـ زاوية دافئة . وأنت ماذا تطلب في الغرب ؟

ـ زاوية دافئة .

ـ اتفقنا في المطلب واختلفنا في المسلك .

وسكتت الفتاة وسكت الشيخ دون أن تسكت الريح . فقد كانت تنسف الثلج عليهما لتعود فتنسفه عنهما .

وتكلّم الشيخ ثانية فقال :

ـ من الخير أن تعكسي اتجاهك أيّتها الفتاة . لو كان في الشرق دفء لما اتجهت أنا غرباً .

ـ بل قد يكون من الخير لك أيّها الشيخ أن تعكس اتجاهك . لو كان في الغرب دفء لما اتجهتُ شرقاً .

ـ لا تعاندي أيّتها الفتاة . فالعناد لا يجدي . والعاصفة لا ترحم . وأنا أدرى منك بمسالك هذا البلقع الأبيض .

ـ بل لا تعاند أنت أيّها الشيخ . فأنا أفتى منك وأقوى على مجابهة العواصف .

وعاد الاثنان إلى السكوت . ثمّ تكلّم الشيخ بعد أن طال السكوت فقال :

ـ ألا أهل لك أيّتها الفتاة ولا بيت ؟

فأجابت الفتاة :

ـ كان لي أهل ، وكان لي بيت . ولكنّ العاصفة

حوّلت أهلي وبيتي جليداً . لذلك خرجت أفتّش عن زاوية دافئة . وأنت أيّها الشيخ . أما كان لك أهل وبيت ؟

ــ وأنا كذلك كان لي أهل وكان لي بيت . فحوّلتهم العاصفة وحوّلته جليداً . ولذلك خرجتُ أفتّش عن زاوية دافئة .

وأطرق الشيخ وقد تجهّم وجهه ، وارتجفت العصا في يده . وأطرقت الفتاة وقد تجهّم وجهها كذلك ، وارتجفت شفتاها ويداها . فرفع الشيخ إليها بصره وقال بصوت غير صوته السابق :

ــ أخشى يا ابنتي أن يكون البرد قد تغلغل حتّى في عظامك . دعيني أنزع عني عباءتي وألفّك بها فوق معطفك . العاصفة لا ترحم . والبرد لا يرحم .

ــ بل دعني يا أبتِ أنزع عني معطفي وألفّك به فوق عباءتك . فها هي العصا ترتجف في يدك من شدّة البرد في عظامك . ولي من حرارة الشباب ما ليس لشيخوختك .

ــ ولشيخوختي يا بنيّتي من شحم السنين ما ليس لشبابك .

ــ أنت كريم فوق طاقتك يا أبتِ .

ــ لا بل أنت كريمة فوق طاقتك يا بنيّتي . أن تسند شيخوختي شبابك ــ ذلك أحبّ إلى قلبي من أن يسند شبابك

شيخوختي .

ـ وأن يسند شبابي شيخوختك يا أبت لأحبّ إلى قلبي من أن تسند شيخوختك شبابي .

ـ كلانا ساند ومسنود . كلانا يطلب الدفء في هذه العاصفة .

ـ لقد أنستني محبتك العاصفة .

ـ وأنسانيها عطفك .

ـ هل تسمح لي يا أبتِ أن ألقي رأسي على كتفك ؟ إنّه ثقيل كأن به خَدَراً .

ـ واسمحي لي أن ألقي رأسي على رأسك من بعد أن تلقيه على كتفي . فرأسي كذلك ثقيل وكأن به خَدَراً .

بعد دقائق أحسّ الشيخ رأس الفتاة ينزلق عن كتفه إلى صدره . وأحسّ جسدها يرتخي . فطوّقه بذراعيه . وأدرك أن النعاس قد أخذ يستولي على الفتاة . ولم يشأ أن تفوتها الفرصة للنوم . فشدّها إلى صدره ، وناخ بها إلى الأرض ، وجمعها في حضنه ، ثمّ انحنى فوقها ليحميها من الثلج والريح .

ارتخت مفاصل الشيخ المكدودة إذ أخذت الحرارة تتسرّب إليها من جسم الفتاة الغافية في حضنه . وشعر بأن النوم قد يسطو عليه كما سطا عليها . فهاله شعوره ، ماذا يحلّ بهما في ذلك المدى الأبيض إذا هو كذلك استسلم للنوم ؟ ولا قدرة

له على حملها ليفرّ بها إلى مكان ما من وجه العاصفة . فماذا يعمل؟ لقد كان إذا فكّر بالموت يؤثره لنفسه ؛ على أن يكون موته فداء لحياة الفتاة .

لكنّ العاصفة لم تلبث أن تلاشت ثورتها . فتحوّلت نسيماً دافئاً ، منعشاً . ولم تلبث السماء أن أسفرت عن وجه باسم ، مطمئن . وإذا بالفتاة تتململ في نومها ، ثمّ تفتح عينيها وتقول :

ـ ما أدفأ حضنك يا أبتِ !

فيجيبها الشيخ :

ـ بل ما أدفأ قلبك يا بنيّتي !

خطأ في العنوان

من عادتي أن أردّ على جميع الرسائل التي تأتيني — تافهها ورصينها . بذلك تقضي اللياقة والعلاقة بين الكاتب وقرّائه . ولكنّ رسالة جاءتني منذ شهور لا تزال حتى اليوم دون جواب . وستبقى دون جواب . وإليك بعض ما جاء فيها :

« بما أنّني من محبّي الأدب والعلم والفكر فباسمها وباسم جميع المقدّسات أطالبكم بأن تساعدوني بإعطائي فكرة موجزة ، ولو بشكل تعاريف مختصرة جدّاً ، عن ماهية وغاية ما يلي :

« الكون — المكان — الزمان — المطلق — الحريّة المطلقة — غاية الجهود الفكريّة والجسميّة — هدف الإنسانيّة النهائي — غاية العلوم النهائيّة — الحقّ المطلق — السعادة المطلقة — الطاقات — اللذات — بداية المواد وجوهرها — بداية الحركات — ما هو أثمن شيء لكلّ فرد ماضياً وحاضراً ومستقبلاً — ما هي المثل والقيم العليا التي تصلح لكلّ زمان ومكان — ما الفكر — ما التفكير — الحياة — الممات — الإدراك — التغيّرات النوعيّة والكميّة في الأشياء — الآلام ؟ »

وقد كان من حسن ذوق كاتب الرسالة أنّه أردف أسئلته بقوله : « وأعتقد أنّ طلبي غير معقول لضخامته . ومع ذلك فأنا معذور . . . »

قرأت الرسالة فتبادر إلى ذهني في الحال أن أجيب صاحبها بأنّه قد أخطأ العنوان . فكان عليه أن يوجّه رسالته إلى الساكن في أعلى عليّين — إلى ربّ العالمين أجمعين .

ولكنّني عدت فتذكّرت قول القائل :

« الصمت زين . والسكوت سلامة »

فصمتّ . وسكتّ .

فتاة وفتاة

ما نسيتُ لحظةً حبَس فيها العالم أنفاسه لدن أذيع عليه نبأ فتاة انطلقت وحدها في سفينة فضائيّة لتدور حول الأرض بضعة أيّام ، لا بضع ساعات . لقدْ كانت أوّل فتاة تخترق جوّ الأرض إلى الفضاء الخارجي حيث لا جبال ولا بحار ، ولا مروج ولا قفار ، ولا قرى ولا مدن ، ولا دروب ولا شعاب ، ولا أيّ أثر لنبات أو حيوان أو إنسان .

وحدها ، وحدها في ذلك الفراغ الهائل . نهارها غير نهار الذين على الأرض ، وليلها غير ليلهم ، ودنياها غير دنياهم . أمّا روحها فأبداً على كفّها ، وقد تُنتزع منها في أيّ لحظة . فهي رهن بشبكة عجيبة من الأجهزة الدقيقة التي إذا تعطّل بعضها تعطّلت السفينة عن الحركة ، وتعطّلت الحياة في راكبة السفينة ، فما درى أحد أين تموت ، وكيف ، وهل يبقى منها أيّ أثر يحدّث عمّا كان .

إنّها ما رضيت أن تُقذف من الأرض إلى الجوّ هرباً من قيود الأرض أو طمعاً بحريّة الجوّ . فقد كانت الأرض بساطاً فسيحاً جدّاً لرجليها ، ومشغلاً دائماً ليديها ، وفتنة

أبديّة لعينيها وأذنيها ، ومرعى خصباً لأمانيها العذاب ، ومِرخماً دافئاً لأحلامها — أحلام الشباب . ففي الأرض فكرها . وفي الأرض خيالها . وفي الأرض قلبها وكلّ جارحة من جوارحها . أمّا في الجوّ فهي تدور وتدور في مركبة كأنّها القفص ، وكأنّها فيها العصفور السجين .

ولا هي قفزت قفزتها الرائعة إلى الأعالي لتقطف من الفضاء عناقيد النجوم ؛ أو لتبحث فيه عن مقابر الأحلام والأوهام التي يحلمها ويتوهمها أبناء الأرض ؛ أو لتحمل إلى أبناء الأرض أكياس الذهب والفضّة والماس والزمرّد والياقوت .

ولكنّ فالنتينا تيريشكوفا أقدمت على مغامرتها المذهلة ، وروحها على كفّها ، لتوسّع في « المدى الحيويّ » لإخوانها الناس ، ولتبرهن لهم أنّ حدود ذلك المدى هي حدود الزمان كلّه ، والمكان كلّه . وأنّهم ، وإن سكنوا الأرض ، لأعظم بكثير من الأرض وأعجب وأوسع . وأنّ حوّاء لا تقلّ في شيء عن آدم من حيث قدرتها على تحمّل الأعباء الجسام في سبيل دفع الإنسانيّة إلى الأمام . فكلاهما من هذا القبيل فرسا رهان . وحتّى اليوم لم يسبق الرجل المرأة مقدار قمحة ، ولا هي سبقته مقدار شعرة . فلا هو سيّد الميدان . ولا هي سيّدته . بل الاثنان معاً هما سيّدا الميدان . ولكلّ منهما الحقّ بأن يقطع شوطه بالقوى التي زوّدته بها الحياة .

ذلك هو المعنى الأبعد والأعمق والأهم لقفزة تلك الفتاة الروسيّة التي أدهشت العالم . أما أنّها قفزة جلبت أمجاداً ضخمة للفتاة ، وللبلاد التي أنجبتها ، وللعلماء الذين دبّروها ويسّروها ، فأمور ثانويّة القيمة والأهميّة . إذ أن تلك الأمجاد لن تلبث أن يخبو بريقها ، وتنصل جدّتها . أمّا الإنسان التوّاق إلى الانعتاق من كلّ ما يقيّد خطاه في سيره نحو الحريّة ، وكلّ ما يقف حاجزاً بينه وبين المعرفة التي لا حريّة إلاّ بها ، فبريق إيمانه بنفسه لن يخبو ، وعزيمته أبداً في تجدّد .

* * *

في اليوم الذي وقف فيه العالم مشدوهاً أمام فتاة تقفز وحدها إلى الفضاء الكوني ، في ذلك اليوم عينه وقفتُ مشدوهاً أمام خبر نقلته إليّ جرائد بلادي في ثلاثة سطور . وكان خبر فتاة ذبحها شقيقها من الوريد إلى الوريد ليغسل بدمها عاراً ألحقته بعائلتها . وكان « العار » أنّها أحبّت فتى من أبناء جلدتها ، ولكن من مذهب غير مذهبها ! ! !

* * *

هناك فتاة يهلّل لها العالم ويكبّر لأنّها أقدمت على مغامرة لم تقدم على مثلها أيّ فتاة منذ عهد الناس بالتاريخ . إنّها

لشجاعة خارقة . إنّها لبطولة تفوق كلّ بطولة . إنّها لمأثرة تقلّ في تقديرها أكاليل الغار وأروع الأشعار .

وهنا فتاة أقدمت على « مغامرة » لا مناص لكلّ أنثى من الإقدام عليها ولو مرّة في الحياة . بذلك تقضي أنوثتها . ولا مردّ لذلك القضاء . هكذا كان منذ كان الناس على الأرض وهكذا سيكون حتّى ينقرض الناس من الأرض . أمّا تلك « المغامرة » فهي الحبّ – سيّد الأرض والسماء ، وسيّد الأرواح والأجساد – تبارك اسمه وتقدّس !

ولأن تلك الفتاة طاوعت طبيعتها ؛ لأنّها استجابت لنداء قلبها ؛ لأنّها امتثلت لإرادة ربّها الذي خلق الناس ذكراً وأنثى ليتجاذبوا ، فيتعارفوا ، فيتناسلوا ؛ لأنّها كانت ما أرادها الكون أن تكون ؛ لأنّها أحبّت – فقد حُزّ حلقومها ، وأزهقت روحها من بين جنبيها . وهكذا غُسِل « العار » الذي لطّخت به « شرف » أهلها و « شرف » مذهبها . . .

أرجو أن لا تسمعني الأرض في مدارها ،
ولا الطير في أوكارها ،
ولا السباع في أوجارها ،
ولا الأسماك في بحارها .
فهي إذا سمعتني لم تُصدّق ما أقول . . .

ناسف العالم

اعتدل صاحبي في جلسته ، ومسّد صلعته بيمينه ؛ ثمّ قطّب حاجبيه وزمّ شفتيه ؛ ثمّ شدّ على جانبي الكرسيّ بكلتا يديه كمن يتحفّز للوقوف . ولكنّه لم يقف . بل انحنى نصف انحناءة إلى الأمام ، وحدّق إليّ طويلاً ، ثمّ قال وكأنّه يفضي إليّ بخبر جسيم وسرّ عظيم :

ـ نسَفْتُهُ ! نسفته من أساسه !

قلت وقد أدهشتني حركاته والنبرة في صوته :

ـ وما هو ـ أو مَن هو ـ الذي نسفته ؟

فردّ بمنتهى الجدّ والتأنّي :

ـ العالم .

ـ العالم ؟ ! نسفت العالم ؟ ! عظيم أنت أيّها الإنسان .

كنت أعرف أن جليسي رجل من أعقل الرجال ، وأكثرهم رصانة ، وأعمقهم تفكيراً . ولكنّني ، رغم ذلك ، حملت كلامه على محمل المجون ، إذ أنّني لم أصدّق أن رجلاً مثله كان يعني ما يقول . ويبدو أن حملي لكلامه على ذلك المحمل أثار استياءه . لذلك عاد فقال مقطّعاً كلماته على مهل :

– قلت وأكرّر القول : لقد نسفتُ العالم .

عندئذ لم أجد بدّاً من مجاراته في جدّه فقلت :

– وكيف نسفته وليس في الأرض من الديناميت والـ ت . ن . ت . والقنابل الذريّة والهيدروجينيّة ما يكفي لنسف العالم ؟

– نسفته بما هو أقوى بكثير من الديناميت والـ ت . ن . ت . ، ومن القنابل الذريّة والهيدروجينيّة . نسفته بالكلمة . . . وأنت في طليعة الشاهدين والمؤمنين بقوّة الكلمة .

– تعني أنّك ألّفت كتاباً في الموضوع .

– نعم . ذلكَ ما أعنيه .

– ولكنّني أرى العالم لم يتغيّر فيه شيء .

– لأنّ كتابي لا يزال مخطوطاً . ومتى ظهر إلى العالم سيفعل فعله في العالم . إنّه جهد سنوات ، بل جهود حياة .

– وهل انتهيت من وضعه ؟

– كتبت آخر كلمة فيه منذ ساعة .

– وماذا كانت تلك الكلمة ؟

– « انتهى » .

– تعني الكتاب أم العالم ؟ أم تعني الكتاب والعالم معاً ؟

– أعني الكتاب ، ثمّ – العالم .

– وهل لي أن أعرف أهمّ ما تضمّنه كتابك ؟

ومن غير أن يجيبني على سؤالي انحنى صاحبي إلى رزمة كان قد وضعها على الأرض بجانب كرسيه ، ولم أكن قد انتبهت إليها مِن قبل . فأخذها بيده وراح يفكّ الخيط الذي ربطها به . وكانت يداه ترتجفان من شدّة الانفعال . وعندما انتهى من فكّ الرزمة وضع الخيط ولفائف الورق جانباً ، ثمّ التفت إليّ وقال :

– إذا شئت قرأته لك .

قلت ، وقد هالني حجم المخطوط :

– وكم عدد صفحاته ؟

– ألف وخمسمائة وستّون .

– قراءة مخطوط في مثل هذه الضخامة ، وفي جلسة واحدة ، عمل مرهق جدّاً للقارىء وللسامع بالسواء . فأنا أخشى عليك أن يبحّ صوتك ، وأخشى على نفسي أن تتعطّل قوّة التفكير عندي ، إذ لن أستطيع أن أستوعب كلّ ما تقرأ بالسرعة الّتي تقرأه فيها . ما قولك لو أنت أطلعتني على عناوين الفصول ثمّ شرحت لي النقط الأساسيّة في كلّ فصل ؟ على أن أعود فأقرأ الكتاب على مهل بعد صدوره ، ومن الدفّة إلى الدفّة .

لم ترُق هذه الفكرة صاحبي . فالكتاب وحدة متماسكة ، ودراسة موصولة الأسباب والنتائج . وما العناوين فيه إلاّ

كالمفاتيح لشتّى المقصورات في القصر الواحد . المفتاح يساعدك على ولوج المقصورة . ولكنّه لا يعطيك فكرة صادقة عن كلّ ما فيها .

فرك صاحبي جبهته العريضة ، العالية ، بأصابعه الطويلة ، النحيلة ، ثمّ استوى في كرسيّه ، واستدار نحوي وكأنّه وجد حلاًّ للمشكلة .

— تريد الخلاصة — الخلاصة ؟

— أجل . الخلاصة — الخلاصة ، إذا أمكن .

— خلاصة الخلاصة هي أن وجوداً يتحكّم فيه الموت وجودٌ لا معنى لوجوده . وقيمته قيمة قشرة البصلة . بل قد تكون قشرة البصلة أكثر منه قيمة . إنّه لا — وجود . إنّه لا — شيء . وإذ ذاك فتعلّقنا به هو الجنون المطبق . هو تعلّق الرضيع بمصّاصة لا لبن فيها ولا ماء . ولكنّه يمضي يمصّها واهماً أنّها ثدي أمّه .

ووجودٌ لا معنى له وجود لا معنى لأيّ شيء فيه : للعلوم ، والفنون ، والديانات ، والأخلاق ، والعبقريات ، والنظم الاجتماعيّة والسياسيّة ، وجميع ما ينطوي تحت قولنا « حضارة » ، « مدنيّة » ، « إنسانيّة » . فهذه كلّها أوهام يحبل بها الإنسان بالألم ، ويلدها بالألم . وهو عندما يتعلّق بالوجود إنّما يتعلّق في الواقع بآلامه التي يأبى أن تذهب

أدراج الرياح . وهنا يأتيه الأمل معزّياً ومنشّطاً وقائلاً :
« لا تقنط . فأنت في النهاية ستجني من آلامك السعادة الأبديّة »
وهذا الأمل هو العلّة الكبرى والخدعة العظمى في حياة الإنسان .

هكذا يمضي الإنسان يتحمّل الألم بالأمل إلى أن يوافيه الأجل ! فكأنّه القطّ يلحس المبرد ويوغل في اللحس إلى أن يبرى لسانه ، وينزف دمه . فينتهي ويبقى المبرد . كلّ حياة إلى نفاد . أمّا الموت فلا نفاد له . إنّه اللاّشيء الذي يبتلع كلّ شيء . ولا يبتلعه أيّ شيء . إنّه اللاّوجود الذي فيه يذوب كلّ وجود ولا يذيبه أيّ وجود . إنّه المبرد الذي يبري كلّ لسان ولا يبريه أيّ لسان .

وتوقّف محدّثي عن الكلام وقد انتشر على وجهه ما يشبه السحابة . فقلت له :

— ما دام الوجود في نظرك بغير معنى ، فالإنسان كذلك لا معنى لوجوده ، ولا لأيّ عمل من أعماله .

— هذا صحيح .

— والكلام الذي تفرّد به الإنسان دون كلّ الكائنات أليس هو كذلك بغير معنى ؟

— والكلام لا معنى له في وجود لا معنى لوجوده .

— إذن كان كتابك الضخم بغير معنى . فلماذا كتبته ؟ ولمن كتبته ؟

وكأنّي بالرجل شعر بشيء من الإحراج ، فتململ في مقعده ، وفرك يداً بيد ، ثمّ تنحنح وقال دون أن تكون في لسانه الطلاقة السابقة :

– من بعد أن تقرأ الكتاب ستعرف لماذا كتبته ولمن . وستشكرني لأنّي كتبته . كتبته ليكون صفعة مدوّية للسكارى بأوهام الوجود لعلّهم من سكرهم يصحون ، وعلى الوجود يبصقون ، ثمّ ينتحرون .

– إذن أنت تدعو الناس إلى الانتحار .

– أجل . أليس من الأشرف لهم أن يموتوا بملء إرادتهم لا رغم أنوفهم ؟

– ولماذا لا تقودهم في طريق الانتحار ؟ لماذا لا تبدأ بنفسك ؟

– أريد أن أسوقهم أوّلاً . فقد لا يتبعني أحد إذا كنت أنا البادىء .

– أن تسوقهم بقوّة الكلمة التي لا معنى لها ؟

– نعم . بقوّة الكلمة . ولكن من بعد أن شحنتها بأقصى ما أملك من قوّة الإقناع لأنّني مقتنع بصحّة ما أقول كلّ الاقتناع . عندما تقرأ الكتاب يا صاحبي سترى أن كلماتي أكثر بكثير من مجرّد كلمات . إنّها البراكين . إنّها الأعاصير . إنّها الصواعق .

– ما دمت تترك مجالاً للاقناع والاقتناع ، ثمّ ما دمت تعترف ، ولو ضمناً ، بأن الكلمة ذات معنى في وجود لا معنى له ، فما أدراك أن غيرك سيقنعك ذات يوم بعكس ما أنت مقتنع بصحّته اليوم ؟

– مستحيل . مستحيل .

لم يكن صاحبي من الأغبياء الذين إذا وقعوا في مأزق لم يعرفوا أنّهم في مأزق . بل كان ، على العكس ، ذكي الفؤاد ، متوقّد الذهن ، قوي العارضة ، صادق الطوية ، بالغ الإحساس بمآسيه ومآسي الناس ومفرطاً في تقديره لقوّة المنطق ، في حين أنّه كان لا ينفكّ يشتم المنطق . ولأنّه أدرك المأزق الذي قاده إليه المنطق لم يجد ما يقوله أفضل من ترديد « مستحيل » مرّتين ريثما يتهيّأ له مخرج من المأزق الذي وجد نفسه فيه . ويبدو أن مثل ذلك المخرج قد تهيّأ له عندما التمعت عيناه بغتة وعاد بي القهقرى إلى بدء حديثي معه :

– الموت . الموت . الفناء يا صاحبي . التلاشي . الاضمحلال . أيّ خير في عالم يولد ليموت ، ويعيش ليفنى ، وينمو ويفكّر ويعمل لينحلّ في النهاية فيتلاشى فيضمحلّ ؟ أجبني . أجبني . أيّ خير في مثل ذلك العالم ، وأيّ معنى لوجوده ؟

ألا ترى أنّنا أبداً مسوقون بحاجات لا رأي لنا فيها

ولا إرادة ؟ إذا نحن تجاهلناها هلكنا . وإذا نحن سعينا وراءها هلكنا . إنّنا في الحالين هالكون . ولو أنّ هلاكنا جاء على حين غرّة ، ودفعة واحدة ، ودون آلام ممضة ، محرقة ، لكان أخفّ وطأة ، وألطف وقعاً . ولكنّه يأتينا على دفعات . فما إن نسدّ حاجة حتّى تنبت لنا أخرى ، وأخرى ، وأخرى . وهكذا حتّى ينتهي العمر وقد هرّمته الحاجات تهريماً بشفار الأوجاع والآلام . أما تذكر قول الشاعر :

أشابَ الصّغيرَ وأفنى الكبيرَ مرُورُ اللّيالي وكَرُّ العَشِي
إذا لَيلَةٌ هرّمَتْ يَوْمَها بَدا بَعدَ ذلكَ يَوْمٌ فَتِي
نَرُوحُ ونَغدو لحاجاتِنا وحاجةُ مَن عاش لا تَنقضِي

وعمرٌ حاجاتُه لا تنقضي ، وأوجاعه لا تنتهي ، أيّ خير فيه ، وأيّ معنى له ؟ أليس الموت خيراً منه ؟ .

وتوقّف صاحبي عن الكلام ، وارتدّ في كرسيّه إلى الوراء ، وقد بدا على وجهه شيء من الرضا كمن ربح جولة في مباراة . فعنّ لي أن أجري وإيّاه شوطاً أبعد في الحديث عن الموت . لذلك توجّهت إليه بالسؤال :

ـ ألا ترى يا صاحبي أن الموت ضرورة للأحياء مثلما الحياة ضرورة ؟

فانتفض الرجل كأن أفعى لسعته وصاح :

– الموت ضرورة ؟ ! أيّ هراء يفوق هذا الهراء ؟ الموت ينفي الحياة ويجعلها تافهة وبغير معنى .

– وهل إذا انتفى الموت من الأرض انتفت شكواك من الوجود ، وبات الوجود ذا هدف ومعنى ؟

– من غير شك .

– لنفرض أنّك أوتيت في هذه اللحظة المقدرة على أن تقول للحياة : كوني إلى الأبد ! فتكون . وأن تقول للموت : مُت إلى الأبد ! فيموت . فكيف تريد للحياة أن تكون ؟

– سؤال عجيب . وإذا عذرتني قلت : بليد . أريد الحياة أن تكون حياة . وكفى .

– لقد مات الموت . لقد دفنّاه وارتحنا من أذاه . هكذا افترضنا . فلا نبتة تموت بعد الآن ، ولا حشرة ، ولا طائر ، ولا حيوان أو إنسان . لا تغيّر ولا تحوّل ولا انحلال . وذلك يعني أن الشيخ المتهدّم يبقى شيخاً متهدّماً إلى الأبد . والطفل يبقى طفلاً . والمريض يبقى مريضاً . والأعمى يبقى أعمى ، والمجنون مجنوناً الخ الخ . ثمّ يعني ذلك أنّ الأحياء سيتضوّرون جوعاً إلى الأبد . لأنّهم يقتاتون بعضهم ببعض . وما دمت قد نفيت الموت من الأرض فبماذا يقتات أحياؤها ؟ أم أنّك تخلقهم خلقاً جديداً لا يحتاجون معه إلى أيّ قوت ؟

ـ أجعلهم في غنى عن القوت .

ـ وبذلك تسلب الحياة معنى من معانيها بسلبك إيّاها لذّة من ملذّاتها ، وهي الأكل عند الجوع . ولنفرض أنّك أغنيت الأحياء عن الغذاء ، فكيف تغنيهم عن النموّ ؟ وإذا أنت أبقيت على النموّ فأين تقيم حدوده ؟ إنّ الذي ملأ فمك بالأسنان والأضراس قد جعل لنموّها حدوداً . ولولا تلك الحدود لباتت نابٌ من أنيابك تصلح جسراً لنهر الأمازون . وهكذا قل في أهدابك ، وحاجبيك ، والشعر الذي في أنفك وعلى رأسك وسائر بدنك .

ما نفعك من طفلك إذا هو بقي طفلاً إلى الأبد ؟ وإذا أنت أبحت له النموّ كما ينمو الأطفال اليوم فهل تتركه ينمو إلى ما لا نهاية ؟ وإذا أنت حدّدت نموّه ، أفليس يعني ذلك أنّك حكمت عليه بالجمود ؟ والجمود نقيض الحركة . والحركة حياة . وأنت تريد الحياة .

ألا ترى أنّك بتجميدك الحركة في الحياة إنّما تجمّد الحياة . وهل الجمود غير لون من ألوان الموت ؟

ثمّ هنالك التناسل ، وهو وظيفة من أجلّ وظائف الحياة على الإطلاق . والأحياء على اختلاف أصنافهم وأجناسهم يستميتون في سبيل أدائها . ولولاها لما كان على الأرض من حيّ . فماذا أنت فاعل بتلك الوظيفة ؟

إذا أنت أبحت للأحياء أن يتناسلوا دون قيد أو حدّ ، ودون أن يكون للموت فيهم أيّ سلطان ، فلن تمضي سنوات حتى يختنق الجو بالحشرات ، ويمتلىء البحر بالأسماك ، ويضيق البرّ بالناس وبشتّى أنواع الزحّافات والدبّابات ، فلا يبقى موطىء قدم لك أو لي أو لأيّ إنسان . وإذ ذاك فالحياة على الأرض ضرب من المحال . أو هي الجحيم الذي لا يمكن أن يدانيه في البشاعة والقساوة أيّ جحيم . والموت خير منها بما لا يقاس .

وإذا أنت عطّلت أجهزة التناسل في الأحياء فقد عطّلت أروع ما في الحياة . وهي قدرتها العجيبة على تجديد ذاتها بذاتها باستمرار .

ثمّ إنّك بتعطيلك أجهزة الأكل والهضم والتناسل في الإنسان وغيره من الأحياء تعطّل أجهزة أخرى تتصل بها أوثق الاتصال . وذلك يعني إجراء تعديل شامل في تكوين جسدك وجسدي وأجساد كلّ الناس وغيرهم من الأحياء . فهل ترى في نفسك القدرة والأهلية على تحمّل مثل تلك المسؤوليّة ؟ هل لك أن تخلق جسداً أروع من جسدك ؟

لقد اخترت يا صاحبي أن تقضي على الموت وأن تُبقي على الحياة . لأن الموت في نظرك عدوّ الحياة . لأنّه شرّ وهي خير . لأنّه بشاعة وهي جمال . لأنّه ألم وهي متعة . ولم يخطر

في بالك أنّك في اللحظة التي قضيت فيها على الموت قضيت على الحياة » .

ظننت – من بعد الذي قلته ، وقد قلته بحرارة واندفاع – أن صاحبي ستلين قناته وتنكسر شوكته . ولكنّه لم يلبث أن عاد إلى مناوراته وكأنّه اهتدى إلى سلاح جديد :

– ما كان أغناك عن كلّ هذا الشرح الذي يشهد لي ، لا عليّ .

– ولكنّك قلت إن حياة يتحكّم فيها الموت لحياة لا معنى لها ، إلاّ إذا نحن قضينا على الموت . وها نحن قد قضينا على الموت . . .

– ذلك ما قلته من قبل . وأقول الآن إنّ حياة لا تقوم إلاّ بالموت لحياة ليست حريّة بأن نحياها . وعدم وجودها خير من وجودها .

– لكنّ الأحياء قاطبة – وأنا وأنت في جملتهم – يتمسّكون بالحياة ويدافعون عنها حتّى آخر رمق . أفما سألت عن هذا التمسك العنيد ، العجيب ما هو ومن أين مصدره ؟

– إنّه نتيجة لتفاعلات كيميائيّة لا أكثر . إنّها تفاعلات عمياء لا تهدف لغاية .

– يبدو أن هذا الذي تدعوه « كيمياء » قوّة في غاية الحذق والدهاء . ونحن لا نراها ، ونرى تفاعلاتها . والذي

نراه من تفاعلاتها يشهد بأنّها لا تعمل أيّ عمل إلاّ لغاية . فلكلّ عظمة من عظامك غاية . ولكلّ عضل أو عصب وشريان في جسمك غاية . وهكذا لكلّ خليّة من جلدك ولحمك ، وكلّ قطرة من دمك ، وكلّ حاسّة من حواسك ، وعضو من أعضائك . إنّك تتنفّس لغاية ، وتنام وتقوم وتتحرّك وتعمل وتأكل وتشرب وتفكّر وتتكلّم وتكتب لغاية ــ وأنت تحبّ وتكره ، وتفرح وتحزن ، وتيأس وترجى ، لغاية . وكذلك تموت لغاية . ومجموع تلك الغايات هو الغاية من وجودك . وها أنت قد ألّفت كتابك لغاية . وهي أن تنسف به العالم .

كذلك قل في سائر الأحياء . فلكلّ حيّ غاية . وفي سائر الكائنات التي ، بجهلنا ، نحسبها غير حيّة . فلكلّ من هذه غاية . ومجموع غايات الكائنات هو غاية الكون .

ذلك هو النظام العجيب ، المدهش الذي يروقك أن تدعوه « كيمياء » . والموت بعض منه . وأنت تحسّ وجود ذلك النظام في ذاتك ، وفي كلّ ما فوقك وتحتك ومن حواليك. وأنت تحاول أن تفهمه لتستقيم لك حياتك . وحياتك لن تستقيم لك حتّى تفهمه كلّه لا بعضه ، فيغدو سلاحاً ماضياً في يدك لا سلاحاً رهيباً ضدّك .

ولأنّ هذا النظام نظام شامل ، كامل ، فليس في

استطاعتك ، أو في استطاعتي أن نغيّر فيه نقطة ، أو أن نبدّل حرفاً . ولأنّه عادل فوق كلّ عدل ، وجميل فوق كلّ جمال فقد أباح لك ولي أن نفهمه فلا نعانده ونشقى ، بل نسايره فنسعد . وقد وهبنا كلّ ما نحتاج إليه لفهمه . ولأنّه ، وإن عمل عمله ضمن زمان ومكان ، يتجاوز حدود الزمان والمكان ، فقد بسط لي ولك الزمان كلّه والمكان كلّه لنتوفّر على درسه وفهمه . وما الموت غير حيلة بارعة تسهّل علينا الدرس والفهم . إنّه العطلة التي نرتاح فيها من الدرس لنهضم الذي درسناه ، ولنستأنف بعدها دروسنا وقد تجدّدت قوانا ، وتضاعف شوقنا وحماستنا » .

كانت نتيجة توسّعي ذلك التوسّع في الحديث مع صاحبي أن نهض عن كرسيه نهضة عصبيّة ، ثمّ عاد فانحنى ليلمّ الخيط واللّفائف التي كان مخطوطه ملفوفاً بها . ومن غير أن يلفّ الكتاب بها أخذها والكتاب تحت إبطه ومشى نحو الباب وهو يردّد :

ــ أفيون . أفيون . تخدير . تخدير . نظريات لا تستند إلى الواقع .

قلت :

ــ وما هو الواقع ؟

ــ الواقع ؟ هو هذا الفراغ الهائل . هذه المهزلة ــ

المأساة التي ندعوها الوجود .

– وكيف السبيل إلى الخلاص منها ؟

– السبيل في الانتحار . السبيل في هذا الكتاب .

ودلّ على الكتاب تحت إبطه . ثمّ مشى بخطوات سريعة نحو الباب . فقلت له وهو يوشك أن يجتاز العتبة دون أن يودّعني :

– سأنتحر يوم تنتحر .

وأغلب الظنّ أنّه سمعني .

ثلاث فراشات وزنبوران

احتدم الجدال بين صاحب البيت وضيفه حول الانتخابات الأخيرة وما رافقها من ضغط ورشوة وتزوير . فكان صاحب البيت يشدّد النكير على الحكومة القائمة متّهماً إيّاها بالتدخّل المفضوح لصالح مرشحيها . وكان ضيفه يدافع عنها بحجّة أنّها أفضل حكومة ، وأن مرشحيها خير مرشحين في الظروف التي تجتازها البلاد . ومن ثمّ فالضغط والرشوة والتزوير قلّما خلت منها انتخابات حتّى في أعرق البلاد ديموقراطيّة .

كان الرجلان جالسين تحت مظلّة كبيرة مركّزة في وسط حديقة بديعة من الأزهار التي تفتّح بعضها ، وما برح بعضها الآخر في الأكمام . وكان النهار من نهارات أيّار المشهورة بروعتها في الجبال . فالأرض والسماء في عناق تبدو معه جميع المخلوقات وكأنّها نشوانة بلذّة الحركة وغبطة الوجود .

وفي الجانب الأبعد من الحديقة كانت تقف بجانب وردةٍ مكسوّةٍ بالورود الحمر بُنيّة في ربيعها الخامس ، وقد ارتدت ثياباً فيها من لون الورد والزنبق والبنفسج والأقحوان

الأصفر وشقائق النعمان . حتّى ليحسبها الناظر إليها زهرة من زهرات الحديقة ، أو فراشة كبيرة من الفراشات الصغيرة المحوّمة من فوقها .

كانت البنيّة الصغيرة وحيدة صاحب البيت وصاحبته ، والمحور الذي عليه تدور حياتهما . وكانت في وقفتها إلى جانب الوردة تبدو وكأنّها بغير حراك . لقد شغلتها عن نفسها ، وعن كلّ ما حواليها ، فراشتان صغيرتان كانت إحداهما تطارد الأخرى مطاردة لا هدنة فيها ولا هوادة . فما إن تحطّ هذه على زهرة من الأزهار حتّى تنقضّ عليها الثانية فلا تزال تضربها حيناً بجناحها ، وحيناً بأرجلها حتّى تكرهها على مغادرة الزهرة والتحليق في الهواء ، حيث تمضي تلاحقها إلى أن تحطّ ثانية على ورقة أو زهرة أخرى . فلا تلبث أن تعود إلى مطاردتها .

لقد خُيّل إلى الفتاة الصغيرة وهي تتابع بعينيها الواسعتين حركات الفراشتين أن الفراشة التي تقوم بالمطاردة فراشة معتدية ، شرّيرة ، وأن الفراشة الأخرى فراشة طيّبة ، مسكينة . فانجرفت بكلّ أحاسيسها نحو الفراشة المعتدى عليها وضدّ الفراشة المعتدية . وتمنّت لو أنّها تستطيع أن تصطادها لتؤدّبها من غير أن تودي بحياتها . أو لو أنّها تصطاد الفراشة الطيّبة لتحميها من أذى الفراشة الشريرة .

لم تكن الفتاة الصغيرة تدري — ومن أين لها أن تدري ؟ — أنّ ما بدا لعينيها حرباً بين الفراشتين لم يكن سوى عرس ، أو مناورة لعرس . لذلك ، وقد فتقت لها الحيلة ، أخذت تجمع الحصى وترشق بها الفراشة المعتدية كلّما حوّمت في الهواء أو حطّت على زهرة من الزهرات .

وهي كذلك ، إذا بعصفور ينقضّ من أعلى شجرة قريبة فيختطف بمنقاره إحدى الفراشتين ويطير بها بعيداً . ولم يخامر الفتاة أقلّ شكّ في أن الفراشة التي اختطفها العصفور كانت الفراشة المعتدية ، الشرّيرة . لذلك انفرجت في الحال أساريرها ، وضحكت عيناها ، فأخذت تصفق بيديها ، وتضرب الأرض برجليها ، وتصيح بأعلى صوتها : « هَيْكْ ! هَيْكْ ! »

إلاّ أنّ ذلك القدْر من العدل لم يكفِ الفتاة . فقد بقيت هناك الفراشة الأخرى — الفراشة الطيّبة . وهي ، لا شكّ ، قد أنهكتها المطاردة ، وروّعها انقضاض العصفور على رفيقتها . فلا بدّ لها من الراحة ، ومن العطف والمؤاساة . فكيف السبيل إلى ذلك ؟ لعلّها إذا هي اصطادتها استطاعت أن تغدق عليها الكثير من عطفها ، فتستردّ روعها ولا تشعر أنّها وحيدة ومنسيّة .

واندفعت الفتاة تتعقّب الفراشة وتترصّدها كما يترصّد

الهرّ الفأرة . إلى أن غافلتها أخيراً من الوراء ، وبحركة سريعة من يديها قبضت عليها بين راحتيها وطفقت تعدو نحو والدها وهي تصيح :

« بابا ! بابا ! لقد اصطدت الفراشة المسكينة . إنّها بين راحتيّ . إنّها متعبة كثيراً ، كثيراً يا بابا . أتعبتها الفراشة الشرّيرة وأنا أريد أن أريحها . انظر ما أجملها يا بابا » .

وفتحت الصغيرة يديها قليلاً . فأفلتت الفراشة منهما ووقعت على الأرض جثّة هامدة .

وبقيت الفتاة مسمّرة في مكانها ، وعيناها الذاهلتان مشدودتان إلى الفراشة الميتة .

وما هي إلاّ هنيهات حتّى أجهشت الصغيرة بالبكاء ، وراحت تردّد بصوت تقطّعه العبرات :

« بابا ... ماتت ... »

ولكنّ الـ « بابا » لم يكن يبصر ويسمع غير ضيفه الذي كان ، في تلك اللحظة ، يلبط الأرض برجليه ، ويصفّق بيديه ، ويصيح بأعلى صوته :

ـ حجّتك حجّة المغلوب . الدنيا كلّها يا صاحبي تزوير في تزوير . والشاطر هو الذي يربح المعركة . زوّرنا فربحنا . وزوّرتم فخسرتم . هذا كلّ ما في الأمر . والسلام !

الصديق عند الضيق

لأوّل مرّة في حياتها وجدت نفسها وحدها ، وشعرت بأنّها مهملة ، مهجورة ، منسيّة ، وبأن السنوات الثمانين التي عاشتها على الأرض باتت ثمانين كلاّبة تشدّ على حلقومها ، وثمانين جبلاً ترسو على صدرها . ففاض قلبها من عينيها دموعاً مدرارة ، حرّاقة .

لقد وُلدت ونشأت في بيت يعجّ بالبنين والبنات والحركة . وكانت الخامسة بين أربعة إخوة وثلاث أخوات . وعندما تزوّجت لم يلبث بيتها الزوجي أن انقلب ، بعد سنوات قليلات ، إلى ما يشبه خليّة النحل . فأبناؤها الخمسة لا يخفت لهم صوت ، ولا تهدأ لهم حركة ، إلاّ ساعة النوم .

ثمّ مات زوجها ، والأكبر من بنيها لمّا يكمل العاشرة من عمره . فما شلّت المصيبة عزيمتها ولا سحقت آمالها بمستقبل أفضل لها ولبنيها . بل كان من المصيبة أن فجّرت فيها طاقات لم تكن هي نفسها تشعر بوجودها . ففي كلّ يوم لها خطة . وفي كلّ يوم حيلة جديدة . وإذا القليل بين يديها يغدو كثيراً ، وإذا العسر ينقلب بالتدريج يسراً .

وكبر أولادها ، وحصّلوا من الدرس ما استطاعوا . ثمّ أخذوا يتزوّجون . فكانوا كلّما تزوّج واحد منهم هجر وزوجته البيت إلى بلاد قصيّة – هذا إلى شاطىء العاج في افريقيا ، وذلك إلى البرازيل ، والثالث إلى المكسيك ، والرابع إلى أوستراليا . فلم يبقَ معها في الوكر العائلي غير أصغر أبنائها . وهذا لم يلبث أن أنجب أولاداً أعادوا إلى الوكر الحياة والحركة . فشكرت ربّها ورضيت بقسمتها .

إلاّ أنّ الأقدار عادت فاستكثرت على العجوز ما كانت قسمته لها . فأبواب العيش في القرية تضيق يوماً بعد يوم . ومتطلبات الحياة تزداد وتتضخّم عاماً بعد عام . ولا قِبَل لابنها الأصغر أن يكفل لعائلته حياة كريمة ، ولأولاده شهادات محترمة إلاّ إذا هو كذلك نزح وعائلته إلى مكانٍ أسباب الدرس والعيش الكريم موفورة فيه . وقد ألحّ على والدته أن ترافقه فأبت . لقد آثرت البقاء وحدها في البيت الذي بات قطعة حيّة من جسدها الحيّ . وقالت إنّها لن تهجره حتى تهجرها الحياة .

وأقبل الليل وادلهمّ ، والعجوز قابعة في زاوية من بيتها تأبَى أن تشعل حتى ثقاباً . فقد كانت الظلمة في قلبها أشدّ حلكاً من الظلمة حواليها . والدموع المنهمرة من عينيها ما كانت لتبرّد اللظى المتأجّج في أحشائها . ولازمها الشعور بأن بيتها

بات قبراً لها ، وأنّها لن تبرح الزاوية الّتي هي قابعة فيها . إنّها ، لفرط حزنها ، تختنق . ويا ليت الجيران ، عندما يكتشفون جثّتها غداً أو بعد غد ، يدفنونها في تلك الزاوية لا في المقبرة العموميّة . فما من حجر ، أو حفنة تراب ، أو خشبة ، أو مسمار في بيتها إلاّ يعرفها وتعرفه ، ويحبّها وتحبّه . أمّا المقبرة . . . لا ، ليكن بيتها مقبرتها من بعد أن انتهت دنياها الحافلة بالأنس والرجاء والحركة إلى هذه الوحدة القاسية ، المظلمة الّتي لا أنس فيها ولا رجاء ولا حركة . إنّها لأمرّ من الموت .

بعد ساعات برّح العطش بالعجوز . فنهضت متباطئة من مكانها ، ثمّ راحت تتلمّس طريقها إلى الإبريق في المطبخ . وعندما أدركت الباب وفتحته تولاّها ذعر عظيم . وخانتها ركبتاها فارتمت على الأرض . ولو لم يخنها صوتها كذلك لأطلقت صرخة مدوّية . لقد أبصرت في وسط المطبخ المظلم ما يشبه الجمرتين المتّقدتين . ثمّ لم تلبث الجمرتان أن أخذتا تتحرّكان نحوها . وعلى الأثر سمعت : نا — و — و . . . نياو — و — و . . .

استردّت العجوز روعها ونهضت تفتّش عن زرّ الكهرباء . وعندما اهتدت إليه وانكشحت الظلمة عن عينيها وجدت نفسها أمام قطّة هزيلة ، سوداء . ورأت القطّة

تقترب منها بحذر ووجل ، ثمّ تأخذ تدور حواليها وتلامس بصوفها رجليها وهي تردّد بصوت خافت : مياو ــ و ــ و ...

وقفت العجوز مشدوهة وهي تتمتم : يا الله ! يا الله ! يا الله ! لقد كانت القطّة التي أمامها عين القطّة التي ربيت في بيتهم وعاشت فيه ثلاث سنوات . وكان بينها وبين العجوز مودّة وتعاطف وتفاهم . ولكنّ الكنّة كانت تكره القطط . ولذلك ، في غفلة من حماتها ، وضعت القطّة في كيس وكلّفت سائق سيارة عموميّة ، لقاء مبلغ من المال ، أن يرميها بعيداً جداً حيث لا يمكن أن تعود . وعمل السائق بالوصيّة . فاستراحت الكنّة من القطّــة وحزنت عليها الحماة . وصدّق الجميع رواية الكنّة بأن ثعلباً قد افترس القطّة .

مضى على اختفاء القطّة من البيت نحو نصف سنة ، فنسيها الجميع ــ حتى أمّ سليم . وها هي الآن أمام صديقتها القديمة ، تنظر الواحدة إلى الأخرى فتكاد لا تصدّق عينيها .

نسيت أمّ سليم عطشها وطفقت تفتّش عن طعام شهيّ لضيفتها التي باتت في حيرة من أمرها : أين كانت ؟ ومتى عادت ؟ وكيف دخلت البيت دون أن يشعر بها أحد ؟ وعندما شبعت القطّة وراحت تلحس شفتيها أخذتها العجوز بين

يديها ومضت إلى حيث فراشها فارتمت عليه ووضعت رفيقتها بجانبها وهي تمسّد شعرها وتردّد : الصديق عند الضيق .

واطمأنّت القطّة وراحت تخرخر ما معناه :

نَسيتِني وما نسيتك ، يا أمّ سليم !

حمام

نزل الشاعر عن خشبة المسرح وهو لا يدري أعلى الأرض يمشي أم على الهواء . فالهتافات المدوّية التي استُقبل وشُيّع بها من قِبل ثلاثة آلاف مستمع كان لها في نفسه وفي جسمه فعل الخمرة المعتّقة . ولكم أكرهه الجمهور الملتهب حماسة لشعره أن يعيد الكثير من أبياته مثنى وثلاث ورباع . لقد سبق له أن تلاعب بعواطف الجماهير على هواه . ولكنّه ما كان يخطر له في بال أن شهرته في بلده قد امتدّت إلى حد أن عدداً كبيراً من رجالات الدولة البارزين كان بين الذين جاؤوا ليسمعوه تلك الليلة ، وأن جمهوراً غفيراً من الناس قد احتشد خارج المسرح ليلقي عليه نظرة عند دخوله وخروجه، وليهتف له : عاش شاعرنا الأعظم !

أبَى الشاعر أن يقبل أيّ دعوة من أيّ معجب أو معجبة لعشاء أو لسهرة أو لنزهة معتذراً بموعد سابق لم يكن له وجود . وآثر أن يختلي بنفسه على شاطىء خليج صغير خارج المدينة الصاخبة . لقد بات يشعر أنّ موجة الغبطة العارمة التي غمرته تكاد تخنقه . فلا بدّ من مجال فسيح تمتدّ فيه وتمتدّ إلى ما

لا نهاية . ثمّ لا بدّ من شاهد وشريك . وهل أفسح من البحر مدى ، وأصدق من النجم شاهداً وشريكاً ؟

وفيما الشاعر يسامر البحر والنجم ويخلع عليهما وشاحاً من غبطته إذا بشبحين يدنوان منه ، وإذا بالشبحين رجلان من الشرطة السريّة لم يلبث أحدهما أن سلّط عليه ضوء بطاريّة كهربائيّة وأمره أن يلزم مكانه ، وإلاّ عرّض نفسه للموت . فلزم مكانه . واقترب منه الشرطي ثمّ التفت إلى رفيقه وقال باعتزاز :

— أما قلت لك ؟ هذا هو . هذه هي أوصافه بالتمام . وهذا بالضبط هو الموعد الذي ضربه لرفاقه ههنا .

وعاد إلى الشاعر فقال بصوت أجشّ

— هويّتك .

فارتبك الشاعر وأجاب وهو موقن أن في الأمر خطأ لن يلبث أن ينجلي :

— هويّتي ؟ ولماذا ؟

— هات تذكرة الهويّة ولا تكثر الأسئلة .

— ولكنّني لا أحملها معي .

— إذن تفضّل .

— إلى أين ؟

— إلى حيث ينتهي أمثالك . لقد عذّبتنا ما فيه الكفاية .

وآن لك أن تتعذّب ، ولنا أن نستريح منك .

– من الأكيد أنكما تفتّشان عن غيري . عن رجل لعلّه يشبهني . أمّا أنا فرجل معروف لدى القاصي والداني في هذا البلد . ومنذ ساعة لا أكثر كان رئيس الوزراء في جملة المصفّقين لي والهاتفين : « عاش شاعرنا الأعظم ! » أنا الشاعر فريد زرزور .

– تشرّفنا يا حضرة المهرّب الأعظم .

– مهرّب ؟ ! .

– بل أعظم المهرّبين . تفضّل وامشِ معنا إذا شئت ألاّ نوثق يديك بالحديد .

– الحديد للمجرمين . إلاّ إذا كان نظم الشعر جريمة .

– إلاّ إذا كان تهريب الأفيون شعراً . امشِ !

ودفعه الشرطي إلى الأمام بلكمة في كتفه آلمته حتى كاد يهوي إلى الأرض ويصيح من شدّة الوجع .

– لن أسمح لك أن تعاملني مثل هذه المعاملة .

– ولن نسمح لمحتال مثلك أن يسخر بنا ويحتال علينا . لقد أرهقتَنا حيلك . امشِ !

وجاءته لكمة ثانية جعلته يعضّ الأرض ، وجعلت الدم ينزف من أنفه وفمه .

في دائرة الشرطة انتشر الخبر بسرعة البرق أن مهرّب

الأفيون الذي أعيا أمره قوى الأمن في خلال سنوات كثيرة بات الآن في قبضة رجال الأمن . فتوافد الذين كانوا منهم في الدائرة يحدجونه بعيونهم ويسلقونه ببذيء سخريتهم . والشاعر يتململ في مقعده ولا يجرؤ أن يفتح فمه مخافة أن يصيبه من أذاهم فوق ما أصابه .

وهم كذلك إذا بالمدير يدخل ليهنئ رجاله بالصيد الكبير الذي اصطادوه تلك الليلة . فما إن وقع بصره على الشاعر حتّى جمد مكانه ، ثمّ ضرب كفّاً بكفّ ، ثمّ قهقه عالياً وهو يردّد :

ـ يا مسكين ! يبدو أن رجالنا لا يميّزون بين الشعر والأفيون . ويبدو أنّك كنت في حاجة إلى مثل هذا الحمّام . قه ، قه ، قه !

لقد كان المدير في جملة الذين صفّقوا للشاعر تلك اللّيلة .

صلوات

أ ـ طفل يصلّي

عمره خمس سنوات . ضربته أمّه لأنّه مزّق قميصه بالأسلاك الشائكة عندما حاول أن يقتحم حديقة الجيران ليسرق منها وردة . فارتمى أرضاً وراح يفلح التّراب برجليه ويديه،والدموع تترقرق على وجنتيه،وصوته المخنوق يردّد:

« ليتها مكسورة ! ليتها مكسورة إن شا الله ! »

وكان يعني اليد الّتي ضربته .

أمّا الأم فكانت تهزّ يدها في وجهه وتصيح :

« إذا فعلتها ثانية فعلتُ بك أكثر من هذا » .

في ذلك المساء كانت الأمّ تفتّش عن طفلها فلا تجده . وإذا بها تبصر أحد الجيران يحمله بين يديه ، وإذا بالطفل يئن وينشج . لقد كان يلعب مع أترابه فوقع وكسر رجله .

ب ـ تلميذة تصلّي

عمرها تسع سنوات ، واسمها سلوى . وأكره ما تكرهه الحساب . إنّها تؤثر منظر الحيّات على منظر الأرقام .

تخدّر دماغها ، وزاغ بصرها تلك الليلة وهي تحدّق إلى عمليّة حسابيّة في كتابها فلا تهتدي إلى حلّها . والعمليّة كانت تطلب منها معرفة كميّة النقود التي أعطتها أمّ فريد لابنها عندما أوصته أن يشتري لها سبع بيضات ، وتسع أواق من السكّر ، وثلاث أواق من البن . فاشترى الولد البيضة بتسعة قروش ، وأوقية السكّر بثلاثة عشر قرشاً ، وأوقيّة البنّ بخمسة وتسعين . وردّ لوالدته خمسة وثلاثين قرشاً .

وعندما أعياها حلّ العمليّة واشتدّ بأجفانها النعاس انطلقت إلى سريرها وهي تلعن أمّ فريد وفريدها والذين اخترعوا الحساب ليعذبوا به فتاة مثلها . وكانت صلاتها ، وهي تغمض عينيها :

« يا ربّي اجعل معلّمتنا تمرض غداً » .

ولشدّ ما أذهلها أن تنهض في الصباح فتسمع أهل بيتها يتداولون في أمر وفاة معلّمتها المفاجئة . لقد ماتت المسكينة في الليل بسكتة قلبيّة .

وخيّل إلى الفتاة الصغيرة أنّ صلاتها كانت السبب في موت معلّمتها . فطفقت تبكي وتلطم خدّيها بيديها وهي تخاطب نفسها ، ثمّ ربّها ، فتقول :

« يقصف عمرك يا سلوى ! ولكنّني يا ربّي لم أطلب لها الموت . وطلبت لها المرض فقط . . . »

ج – عاشق يصلّي

« ربّي ! أنت أدرى بحالي منّي . هذا القلب الذي وضعته في صدري بات بحبّها أتّوناً تنشوي فيه دقائق عمري وساعاته ، وباتت ناره تحجب سناء وجهك عنّي . إنّني لا أستطيع التفكير إلاّ فيها ، ولا العيش إلاّ بقربها ومن أجلها . وهي تماطلني في أمر الزواج ، في حين يؤكّد لي والداها أنّها لن تكون إلاّ من نصيبي . وبيني وبينها موعد لقاء بعد ساعة . فألهمها يا ربّي أن تقول « نعم » .

« ربّي ! أقسم باسمك الذي يتسامى عزّاً ومجداً وكرامة وتقديساً فوق سائر الأسماء أنّني لن أزعجك مدى العمر بضراعة غير هذه الضراعة . إنّ حياتي لجحيم بدونها . فألهِمها يا ربّي أن تقول « نعم » بعد ساعة »٭ .

ولقد قالت الصبيّة « نعم » بعد ساعة ، ولكن لشابّ آخر كانت تحبّه ، وكان والداها يماطلانه فأقلعا في النهاية عن المماطلة واستسلما .

د – عاقر تصلّي

« أعطيتني يا إلهي الحُسن والصحة والثروة والجاه والسمعة الطيّبة بين الناس . فالشكر ثمّ الشكر لك .

وأعطيتني عقلاً واعياً ، وقلباً محبّاً ، ولساناً لا يتعثّر بالكلام . فالحمد ، ثمّ الحمد لجلالك .

وزوّدتني يا خالقي بجميع الحواس والعضلات والأعضاء كاملة ، سليمة ، تقوم بوظائفها على أتمّ وجه ، إلاّ عضواً واحداً هو أهمّها على الإطلاق في حياتي وحياة كلّ أنثى . وهو العضو المعدّ لاقتبال بذار الحياة كيلا تنقطع الحياة من الأرض . فهذا ، من بعد أن كوّنته أبدع التكوين ، ووضعته في مكان حصين ، أمين ، قضيت عليه بالعقم . فلا ينبت فيه أيّ زرع ، ولا يختلج فيه أيّ جنين . فلماذا كوّنته يا خالقي ، ثمّ ندمت على تكوينه فعطّلته ؟

ما نفعي من رَحِم لا ترحم ؟ إنّها تسخر بأنوثتي وتجعلني مضغة في أفواه النساء اللواتي تقذف أرحامهن بالبنات والبنين .

ما نفعي من ثديين لم ينتفخا يوماً باللبن ، ولم يمصصهما فم طفل ؟ إنّهما يتهكّمان عليّ . فكأنّهما الدعوة إلى وليمة وهميّة — وليمة ليس فيها ما يؤكل وما يُشرب ، ولا مَن يأكل ويشرب . وكلّ ما فيها مظاهر برّاقة ، خدّاعة .

ما نفعي من أنوثتي ما دامت لا تقوم بأهم وظائف الأنوثة — وهي الأمومة ؟

أريد أن أكون أمّاً يا إلهي . بذلك تصرخ كلّ قطرة

من دمي ، وكلّ خلية في لحمي وعظمي . وكلّ شعرة على بدني . بذلك يصرخ كلّ نفَس يدخل صدري ويخرج منه ، وكلّ فكر أفكّره ، وحلم أحلمه .

ألا خُذ جمالي يا إلهي . وخذ ثروتي وجاهي . وامنحني ولداً يجعل لأنوثتي معنى ، ويضفي على أيّامي رونقاً .

اسمعني يا إلهي ، اسمعني ولا تخذلني ! »

* * *

وشاع الخبر بعد أسابيع أن قرينة رئيس الوزراء حامل . ثمّ انقضت خمسة شهور وإذا بـ « الجنين » في بطنها يتكشّف عن تورّم خبيث في الرحم ، والتورّم يؤدي إلى عمليّة جراحيّة ، والعمليّة تنتهي بالوفاة .

هـ - قطّاع طرق يصلّي

« هذه المرّة وأتوب يا الله . على أن يكون لي منها ما يستحقّ التوبة .

في ذمّتي حتى اليوم دماء ثمانية رجال وامرأتين . ولكنّهم لم يكونوا من النوع الذي يُشبع . لقد كانوا من صغار السمك . والذي جمعته منهم لم يزد على خمسة آلاف ليرة .

خمسة آلاف ليرة في عشر سنين . إنّه لحصاد هزيل

لرجل في عنقه مسؤوليّة زوجة وسبعة بنين ، وهو لا يملك من الأرض قيد باع . ولا أيّ مورد يرتزق منه غير بندقيّته ، وغير جرأته .

أنت ترى ، من غير شكّ ، يا الله أنّ تكاليف المعيشة ترتفع عاماً بعد عام . وليس لمثلي أيّ إصبع في ارتفاعها . ولا له القدرة على اللحاق بها . فكيف أعيش ويعيش الذين أنا مسؤول عن معاشهم ؟ وهناك ، كما تعلم يا الله ، أناس كلّما ارتفعت تكاليف المعيشة ارتفعت أرباحهم ، وزادت بحبوحتهم . وهم لا يبالون بي وبعيالي . إنّهم لاهون عنّي وعن أمثالي بتكديس خيرات الأرض وتبذيرها على ملذّاتهم . إنّهم يقطعون عليّ وعلى أمثالي الطريق إلى العيش الكريم . ألعلّك خلقتنا ذباباً وخلقتهم نسوراً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فأين عدلك ؟

أريد أن أعيش عيشاً شريفاً يا الله . صدقني . صدقني . ولكنّني لا أعرف ما هو العيش الشريف ولا السبيل إليه . فهل هم شرفاء أولئك الذين سدّوا في وجهي أبواب الرزق الشريف ؟ وإذا أنت لم تؤدّبهم ، فمن يؤدّبهم ؟

لم يبقَ لي مَن أتّكل عليه يا الله غيرك وغير بندقيّتي . فارزقني هذه الليلة رزقاً وفيراً يا أكرم الرازقين — رزقاً يغنيني عن بندقيّتي وعن تلويث يدي بدماء الأبرياء والظالمين .

وإنّي لأعدك بأن أتوب بعد ذلك إليك وألقي كلّ اتكالي عليك » .

* * *

كان « صيد » الرجل في تلك الليلة مئة وثلاثين ألف ليرة ! وكان « الضحيّة » بدويّاً لا سلاح في يده غير عصاه . وعندما سأل الرجل البدويَّ من أين جاء بتلك الثروة الضخمة أجاب أنّه سرقها من مولاه وفرّ هارباً ، وأنّ مولاه تاجر غنم كبير . فأشفق قطّاع الطريق عليه وردّ له من المبلغ عشرة آلاف ليرة وهو يقول :

« خذها لوجه الله الكريم » .

وانصرف الرجلان كلّ في سبيله .

و — مومس تصلّي

« حتّى متى ، يا ربّ ، حتّى متى تعذّبني ؟

أما آن لخطيئتي أن تنغفر ؟

أما آن لي أن أشعر بأنّني أكثر من مِطفأة لشهوات الرجال الحيوانيّة ؟

ألا نصيب لي في شمسك — في قمرك — في نجومك — في بحارك وجبالك ، ومروجك وغاباتك ، وغيرها وغيرها

من عالمك الوسيع ، البديع ؟

أمحرّم عليّ أن أحيا يوماً واحداً لنفسي كما تحيا البعوضة ، والنملة ، والفأرة ، والعصفورة ، والعشبة ، والمحارة في قاع البحار ؟ ألعلّ هذه أكرم شأناً في عينيك مني ؟

اختطفوني صغيرة واقتادوني إلى هذا البيت ، ثمّ أوصدوا أبوابه دوني . سلخوني عن حضن أمّي . حرموني عطف أبي ومحبّة إخوتي . ربّوني في هذا البيت إلى أن اكتملت أنوثتي . عندها أطلقوا عليّ لصوص المتعة الجنسيّة . . .

ربّي ! بتّ أكره أولئك اللصوص . بتّ أكره الرجال من أيّما لون ، أو جنس ، أو شكل كانوا . أكرههم حتّى التقزّز . حتّى القيء . حتّى الجنون .

بتّ أكره جسدي . فهو ليس بعدُ جسدي . إنّه مستودع قذرٍ للنفايات القذرة . لقد طارت نضارته من زمان . إنّه اليوم خرقة بالية .

وروحي . أين هي روحي يا خالق الأجساد والأرواح ؟ لعلّ لي منها بقيّة . وهذه البقيّة هي التي تضرع إليك : أنقذني ! أنقذني ! ! أنقذني ! ! ! »

بعد ساعة دخل عليها « زبون » لم ترَ وجهه من قبل . كان رجلاً في متوسّط العمر ، تبدو عليه دلائل النعمة ، وتطفو على قسماته معانٍ أبرزها اللطف والذوق . فاستقبلته

بوابل من الدمع . وعندما حاول أن يعرف ما بها ، كفكفت دموعها، وقطّبت حاجبيها، ثمّ رفعت رأسها عالياً وغرزت عينيها في عينيه،وفتحت فمها وكأنّها تريد أن تسلق الزائر بكلماتها:

– أيّ شأن لك بدموعي ؟ أما جئتني لأنّك رجل ولأنّي أنثى مباحة لمن شاء من الرجال ؟ أما جئت لتطفىء شهوتك ؟ هيّا ! أتريدني عريانة ؟ تفضّل . ها أنا ذي بين يديك كما خلقني ربّي – ليته لم يخلقني . هيّا ! هيّا ! جسدي – أو ما تبقّى منه – كلّه لك . هيّا !

وأحجم الرجل عن الاقتراب منها . ثمّ أخذ يداورها إلى أن باحت له بالحرقة الّتي في صدرها . فسألها أين تريد أن تُمضي بقيّة حياتها إذا تيسّر لها أن تنعتق من سجنها . فجاء جوابها دون تردّد :

– في الدير .

وكان لها ما تمنّت . فقد تمكّن الرجل من إنقاذها بدفع « فدية » محترمة عنها للقوّادة . مثلما تمكّن من تدبير مكان لها في أحد أديار الراهبات .

ز – أمّ تصلّي

طفلها كالشّلو على ذراعيها . والحمّى الّتي تشويه تشويها . عيناه مغمضتان ، وشفتاه منفتحتان نصف انفتاحة ،

ورأسه الملقيّ على زندها يتحرّك طوعاً لحركاتها إذ هي تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وتهزّ ذراعيها كما لو كانتا سريراً .

الطفل يتنفّس تنفّساً سريعاً ، متقطّعاً ، وبمنتهى الصعوبة . فتتنفّس هي كذلك ، عن غير وعي منها ، مثلما يتنفّس . إنّه السادس يأتيها بعد أربعة بنين وابنة . ويأتيها منذ ثلاثة شهور لا أكثر . لقد نسيت الخمسة وانحصر كلّ همّها في هذا الذي على ذراعيها . وعلى الأخص من بعد أن قال لها الطبيب إن الأمل بحياته ضئيل جدّاً « إلاّ إذا شاء الله أن يفعل عجيبة » .

وتمسّكت الأمّ الملهوفة بكلمة الطبيب وراحت تطلب من ربّها عجيبة وتخاطبه بحرارة أين منها الحرارة التي كانت تشوي طفلها وتشويها :

« ربّي وإلهي . ربّي وإلهي ! خذ روحي فداء عن روحه. أطفىء النور في عينيّ وليبقَ النور في عينيه . أخمد النفَس في صدري ولا تخمده في صدره . انزع الدم من عروقي ولا تنزعه من عروقه .

عيناي ، يا إلهي ، قد أبصرتا الكثير من عجائب خلقك . أمّا عيناه — والهف قلبي على عينيه ! — فلا تميّزان بعدُ الأبيض من الأسود ، والأخضر من الأحمر . ولا هما ضحكتا للربيع والصيف ، وتغلغلتا في أسارير الخريف والشتاء ، وانخطفتا

ببريق سمائك في الليل والنهار . أفلا أشفقت عليهما وتركت لهما النور الذي أضأته فيهما ؟

وصدري ، يا إلهي ، ما انفكّ عامراً بالنفَس منذ أن باركتَه بالنفَس . ولكَم دخل إليه وخرج منه من أنفاس مخلوقاتك المنثورة في أرضك وسمائك . أمّا صدره — واحرقة عيني على صدره ! — فقفص صغير ، جميل ، أودعتَه عصفوراً عجيباً يرتّل أروع التراتيل . ولكن بصوت يسمعه القلب ولا تسمعه الأذن . ذلك العصفور العجيب هو روحك — روح الحياة . وها أنت توشك أن تستردّ العصفور ولما يرتّل بعدُ من ترتيلته البديعة حتّى الحمدلة ، وأن تترك القفص الصغير ، الجميل ، فارغاً ، مهجوراً ولا نفع منه إلاّ لدود البلى . حرام . حرام . حرام !

وهذه القطرات الحمر التي ملأتَ بها عروقي ، يا إلهي ، — ما أكثر ما حملتْه إليّ من ثمرات بستانك في الأرض ، وبستانك في السماء . ثمرات سكرتُ ببعضها ، وببعضها غصصت . أمّا القطرات الحمر التي ملأتَ بها عروقه فها هي تجفّ الآن في عروقه لتجفّ من بعدها عروقه .

ربّي . ربّي . ربّي ! أكاد لا أصدّق أنّك تعطي بيمينك لتستردّ بيسارك . أكاد لا أصدّق أنّك كوّنت هذا الطفل في أحشائي لتُقدّمه محرقة . ولمن ؟ أو لتحرق به

أحشائي . ولماذا ؟

إن أكن أنا قد فعلت ما يقضي عليّ بالنار ، فماذا فعل هو ؟ ماذا فعل ليحترق احتراق الحطبة في التنّور ؟

أطفىء يا إلهي هذه النار التي تحرقه الآن على ذراعيّ . وأحرق ذراعيّ . أحرقني أنا .

بل ارحم يديّ فهما يدا أمّ .

وارحم عينيّ فهما عينا أمّ .

وارحم قلبي فهو قلب أمّ .

ارحمني ، يا ربّي ، ارحمني .

اصنع عجيبة فأنت أقدر القادرين وأرحم الراحمين ! »

والتفتت الأمّ إلى طفلها فإذا عيناه تنفتحان ، وإذا السواد فيهما يختفي تحت الجفن الأعلى ، وينحسر الأسفل عن بعض البياض . ثمّ إذا بفكّه الأسفل ينفصل عن الأعلى ، وبالجسد الصغير كلّه يختلج خلجة واحدة ، ثمّ يستريح إلى الأبد .

ح – غرقى يصلّون

أمر الربّان رجاله أن يوقظوا الركّاب في الحال ويدعوهم إلى التجمّع على ظهر الباخرة . وعندما اجتمعوا – كبارهم وصغارهم – توجّه إليهم بالكلمة التالية وهو يحاول عبثاً أن يخنق العبرات في صوته :

« البحر في جنون . أمواجه الصاخبة اقتحمت مستودعاتنا. جنحت الباخرة إلى اليمين . قريباً تتعطّل محركاتها . الخطر مداهم والليل مدلهمّ . لا نفع من قوارب النجاة في بحر موجه جبال . لا نفع من أيّ حيلة . لا نفع من الذعر والعويل والفوضى . طلبنا النجدة لكنّها لن تدركنا . لا نجدة إلاّ من فوق — من الله العليّ القدير . البثوا أماكنكم . إمّا نهلك معاً . وإمّا ننجو معاً . صلّوا . صلّوا . صلّوا ! »

وكان بين القوم رجل مهنته الصلاة ومخاطبة الله . فرفع صوته وطلب إلى الجمهور أن يردّد ما يقول :

« ربّنا ! من العدم كوّنتنا لنعبدك . وفوق الملائكة رتّبتَنا لنسبّح بحمدك . فلا تحرمنا نعمة عبادتك وتسبيحك .

يا خالق الأرض والسماء ! لا تحجب سماءك عنّا . وعن أرضك لا تُقصِنا . من ترابها أجسادنا ، وإلى ترابها نحنّ . فلا تجعل البحر مثوانا .

معاصينا لا تُعَدّ . وضعفنا لا يُحدّ . لكنّ رحمتك أوسع من أن تضيق بمعاصينا . وقدرتك أقوى من أن تحاسبنا بضعفنا .

آجالنا في يديك . فمدّ في آجالنا لنستغفرك ونتوب إليك .

اللهمّ ارحم شيوخنا . ارحم أطفالنا . ارحم أمّهاتنا . ارحمنا جميعاً . وارحم الذين سيكون لهم موتنا رزيّة وبليّة .

أشفق اللهمّ على عيون أضأتها لتراك . فلا تطفئها قبل أن تراك .

أشفق على قلوب لم تهتدِ بعد إلى قلبك .

يا ربّ الرياح والبحار ! مُرِ الرياح أن تسدّ منافخها ، والبحر أن تستكن أمعاؤه .

نحن نماردة إذا التفتّ إلينا . وإذا صرفتَ وجهك عنّا فنحن هباء . لا تصرف عنّا وجهك .

أنت جبّار ، قهّار . ونحن صغار ، صغار .

أنت كلّ شيء . ونحن لا شيء .

باسم أنبيائك وأوليائك وجميع مختاريك نضرع إليك .

نجّنا يا إلهنا ، نجّنا ، نجّنا !

اسمعنا يا إلهنا ، اسمعنا ، اسمعنا !

وحانت التفاتة من المصلّي إلى رجل واقف بعيداً عن الجماعة ووجهه إلى البحر . فتوقّف عن الصلاة ليدعوه إلى مشاركة الآخرين فيها . فقال له واحد من الجماعة : « دعه وشأنه . إنّه رجل ملحد » .

في تلك اللحظة سُمع هدير هائل ، وارتجاج عظيم . لقد كانت السفينة تئن كأنّ أضلاعها تتسحّن . ثمّ لم يلبث البحر أن فغر فاه وابتلعها .

لم ينجُ من بحّارة تلك السفينة المنكودة وركّابها غير

واحد . وقد نجا بأعجوبة . وكان ذلك الواحد الرجل الذي لم يشترك في الصلاة .

ط ـ بلاد تصلّي

اشتدّ القيظ وامتدّ . فيبس الزرع . وجفّ الضرع . وباتت البلاد وجهاً لوجه مع شبح مجاعة مروّعة قد لا تبقي ولا تذر . فقرّ رأي عقلائها على تخصيص يوم بعينه يكرّسه السكّان للصلاة .

في ذلك اليوم أقبل الناس على معابدهم يقرعون صدورهم ويعفّرون جباههم ، ويضيئون الشموع ، ويحرقون البخور وأصواتهم تتعالى موجةً تلو موجة إلى السماء :

« يا ربّ غيثك ! »

وفي المساء انصرفوا إلى بيوتهم وهم يردّدون ما كانوا به في معابدهم يهتفون :

« يا ربّ غيثك ! »

وكانت العجيبة . ففي الليل تلبّدت السماء بالغيوم . ثمّ لم يلبث أن لعلع البرق وقصف الرعد ، وانفتحت قِرَب السماء . وما هي إلاّ ساعة حتّى غصّت السهول بالخير ، وهدرت الشلاّلات من الجبال ، وتحوّلت الطرق والشوارع في المدن والقرى إلى سواقٍ وأنهار ، فقام الناس مطمئنّين ،

آمنين ، وبجود ربّهم ورحمته لاهجين .

وعندما أفاق الناس في الصباح هالهم أن يروا الأمطار زاد تهطالها ، وأنّها أخذت تجرف الزرع والتراب في حقولهم وكرومهم ، وتهدّد مساكنهم . فالأنهار تطغى على ضفافها ، ومياهها المثقلة بالهشيم والأوحال تهدر هديراً يصمّ الآذان . لقد تحوّلت الأمطار إلى سيول . بل إلى ما يشبه الطوفان . حتّى إن بعض المشكّكين راحوا فيما بينهم يتهامسون :

« أيكون أن البركة التي من أجلها صلّينا ، وببشائرها تهلّلنا ، ستنقلب لعنة ؟ أيكون أنّنا لم نحسن الصلاة ؟ »

وأقبل الليل ، والناس وجوههم في تجهّم ، وقلوبهم في وجوم . وفيما هم يتندّرون بما كان ويتكهّنون بما سيكون إذا بالأرض من تحتهم تميد ، وإذا بجدران مساكنهم وسقوفها ترتجّ وتتشقّق وتُسمع لها قضقضة منكرة . ثمّ لا يلبث بعضها أن ينهار طامراً من تحته وما تحته .

وتتكرّر الهزّات . فيطفر الباقون على قيد الحياة من بيوتهم إلى العراء ، لا يبالون بالمطر المدرار ، ولا بأبدانهم وما تستّرت به — أو لم تتستّر — من ثياب ، ولا بما خلّفوه في بيوتهم من زاد وأثاث ومال . فالمهمّ أن ينجوا بأرواحهم وأرواح أحبّائهم .

مضت سنوات وأصبح السيل والزلزال حكايات يقصّها

الجدود على الأحفاد . وممّا يرويه الناس عن ولد سمع القصّة لأوّل مرّة أنّه التفت إلى جدّه وقال بمنتهى الرصانة والبساطة :

« يبدو يا جدّي أنّكم صلّيتم فوق اللزوم » .

ي ـ عالّم يصلّي

في نهاية العام وجّهت إحدى الصحف العالميّة السؤال التالي إلى عدد من أبرز رجال العالم في دنيا السياسة والعلم والفنّ والأدب والاقتصاد والدين :

« لو قيل لك في مستهلّ العام الجديد إنّ صلاة واحدة من صلواتك ستستجاب فماذا تكون صلاتك ؟ »

فجاءتها الأجوبة بما يشبه الإجماع :

« كنت أصلّي من أجل السلام في العالم » .

وعلّق أحد الخبثاء على الاستفتاء :

« أستطيع أن أصدّق العالِم والعامل ، والفنّان والفلاح ، والأديب والجندي إذا هم أجمعوا على طلب السلام للعالم . ولكنّني لا أستطيع أن أصدّق رجل السياسة ، أو رجل الاقتصاد ، أو رجل الدّين .

السياسة لا تكون سياسة إلاّ إذا كان لها خصم تقارعه وتصارعه : بالكلام حيث ينفع الكلام . وبالسيف حيث الكلام بدون جدوى . فتأخذ منه بالذراع . وتعطيه بالقيراط .

فالسلام عليها حرام .

والاقتصاد خدين السياسة القديم وحليفها الحميم . إذا هي وسّعَتْ له وسّع لها . وإذا هي ضيّقتْ عليه اختنق فخنقها . والأرض لا تتّسع إلى ما لا نهاية . بل لها حدود . أمّا مطامع السياسة والاقتصاد فهي بغير حدود . لذلك كان لا بدّ من الاصطدام بين سياسة وسياسة ، واقتصاد واقتصاد . وحيث الاصطدام فلا سلام .

والأرض أديانها أكثر من أشجانها . وكلّ دين يدّعي أن عنده اليقين كلّ اليقين ، وأن غيره على ضلال مبين . وكلّها يسعى إلى الانتشار ويدعو لغيره بالاندثار . وأرضٌ سكّانها يتخاصمون بأفكارهم وقلوبهم وطقوسهم وعاداتهم ليس يجديها أن يقول أبناؤها بعضهم لبعض عند اللقاء : «السلام عليكم » . فهي والسلام في خصام .

ليصلّ العالَم ما شاء من أجل السلام . فستبقى صلاته كتابة على الماء ، أو نفخة في الهواء .

لو كنت أحد الذين وجّهت إليهم الجريدة سؤالها لأجبتها :

إنّ عالَم الأمس قد قرّر عالم اليوم . وعالم اليوم قد قرّر عالم الغد — إلى حدّ بعيد . فعلامَ التمنّي ؟ وعلامَ الصلاة ؟ العقرب لن تكون حمامة . والحمامة لن تكون عقرباً » .

هكذا علّق ذلك الخبيث على استفتاء الصحيفة العالميّة في مطلع العام الجديد .

ك ــ مجنون يصلّي

يا الله ! يا الله ! أين أهرب من هؤلاء المجانين ؟

في الصباح والمساء . في الليل والنهار . في الصيف والشتاء، دائماً وأبداً يلاحقونني دون انقطاع . أرهقوني بطلباتهم . سلبوني راحتي . مزّقوا أعصابي وأمعائي . جنّنوني .

لغتهم واحدة لا تتغيّر : هات ــ هات ــ هات ! خُذ . خذ . خذ ! افعل كذا ! لا تفعل كذا !

يقع أحدهم في الفخ . فيأتيني : نجّني من الفخ . ــ وهو الذي نصب الفخ .

يفقد بصره . فيأتيني : ردّ لي بصري . ــ فليفتّش أين فقد بصره ، ولماذا . ما دخلي أنا ؟

يخسر ماله في القمار . فيأتيني : عوّض عليّ خسارتي . ــ وما أنا خسّرته ، وخسّر نفسه .

تلتهب أمعاؤه . فيأتيني : برّد لي أمعائي . ــ وما أنا الذي ألهب أمعاءه . وألهبها هو بيده .

تخونه زوجته . فيأتيني : أدّب لي زوجتي . ــ وهو الذي اختارها ، لا أنا . فليؤدّب نفسه .

يهجرها عشيقها . فتأتيني : أعِد إليّ عشيقي . — وهي التي عشقَته . لا أنا . وحملته على هجرها . لا أنا .

تطردها المدرسة . فتأتيني : اقتصّ لي من الذين طردوني . — وهي التي فعلت ما استحقّت عليه الطرد . لا أنا .

تنهش جارتها بلسانها . فتأتيني : إقطع لسان جارتي لأنّها نهشتني بلسانها . — وما هو لساني الذي نهشها ونهش جارتها .

تخوض عشرون أمّة الحرب ضد عشرين أمّة أخرى . فتأتيني كلّ واحدة منهنّ : انصرنا على أعدائنا . — وما أنا الذي أضرم نار الحرب . واضرمنها هنّ .

تجوع بلاد . فيأتيني أهلها : أشبِعنا . — زرعوا الجوع فحصدوا الجوع . فليقنعوا بحصادهم . أمّا أنا فلم أزرع . ولم أحصد . فما شأنهم معي ؟

* * *

زعانف . هُبْلٌ . مائعو القلب والعين .

جبناء . جبناء . جبناء .

يفكّرون ويشتهون . ثمّ من نتائج أفكارهم وشهواتهم يتهرّبون .

يسعون ويعملون . ثمّ من عواقب مساعيهم وأعمالهم يتبرّؤون .

ثمّ إليّ يفزعون .

ويصلّون ، ثمّ يصلّون ، ثمّ يصلّون .

سئمتهم نفسي . سئمتهم عيناي . سئمتهم أذناي .

ليرتدّوا عني . ليتركوني وشأني . لتكن لهم الشجاعة على تحمّل مسؤولياتهم . أمّا أنا فلن أحمل مسؤوليّة أيّ منهم . تكفيني مسؤوليّتي .

تعبتُ . تعبتُ . تعبت .

أرهقوني .

أخرجوني من جلدي .

جنّنوني .

فليرتدّوا عنّي !

غلطة صحيحة

سألَتْه زوجته عند مغادرته البيت في ذلك الصباح إلى مقرّ عمله أن يأتيها في المساء بليرة إنكليزيّة ذهبيّة لتقدمها هديّة إلى ابنتهما الوحيدة في عيد ميلادها . وكان ذلك اليوم يوم مولدها الثاني عشر . فاغتبط الوالد بفكرة الوالدة ووعدها خيراً .

وعند العصر عادت الصبية من مدرستها وفي وجهها الحلو ما ينمّ عن اضطرابات قد تكون جسدانيّة وقد تكون نفسانيّة . ولكنّها اضطرابات أزعجت الأمّ كثيراً . فما زالت بابنتها حتّى باحت لها بسرّها :

« وأنا في طريقي من المدرسة مررت برجل عجوز جالس على الرصيف لم أرَ مثله في حياتي . آه لو ترينه يا ماما ! ثيابه بالية . جسده بال . شعره طويل . لحيته كأنّها المسلاّت . عيناه صغيرتان ، مدوّرتان ، غائرتان تحت حاجبيه الكثيفين . نظراته تبعث الرعب . في يديه تفاحة ذاوية يعالجها بسنّين لم يبقَ غيرهما في فمه . إحداهما من فوق والأخرى من تحت . وهما لا تتلاقيان . ولكنّه لا يظفر من التفّاحة حتّى بإحداث

ثغرة في قشرتها . فيسيل لعابه على لحيته ، وتنتفخ أوداجه ، وتعمق التجاعيد في وجهه ، وتبدو عيناه كعيني وحش مفترس .

منظرٌ هائلٌ يا ماما . خفت منه كثيراً ، كثيراً . ولكنني بقيت مدّة مسمّرة مكاني ، وعيناي لا تشبعان من النظر إليه . أخيراً التفت إليّ وتبسّم . فهربت » .

ـ خوفاً منه ؟

ـ لا يا ماما . خجلاً منه . كان في ابتسامته ما جعلني أخجل من نفسي لأنّني خفت منه في البداية ، ولأنّه لم يكن معي قرش واحد أعطيه إيّاه .

ـ أمر بسيط يا بنيّتي . أهو بعيد من هنا ؟

ـ لا . مسيرة خمس دقائق .

ـ إليك عشرة قروش . خذيها له .

فرحت الفتاة باقتراح والدتها . فأخذت القروش العشرة وهرولت إلى حيث كان الشيخ الفقير . فلم تجده . وفتشت عنه في الجوار فلم تقع له على أثر . فعادت إلى البيت وفي قلبها غصّة .

وفي المساء عاد الوالد إلى البيت . وقبل أن تردّ الوالدة تحيّته سألته عن الليرة الذهبيّة . فابتسم ومدّ يده إلى جيبه وأخرج قبضة من النقود نثرها على طاولة قريبة منه وراح يفتّش بينها عن القطعة الذهبيّة فلم يجدها . ثمّ راح يفتّش

باقي جيوبه الكرّة بعد الكرّة فلم يجد قطعة النقد الذهبيّة التي تحمل على أحد وجهيها صورة القدّيس جاورجيوس ، قاتل التنّين وشفيع الجزر البريطانيّة . فوقف كالمصعوق لا يبدي حراكاً .

بعد دقيقة ضرب الرجل جبهته بكفّه وصاح :

ـ مجنون . أنا مجنون . كان عليّ أن أضع القطعة في جيبٍ وحدها ، لا في جيب واحد مع النقد الصغير . الآن أدركت ما حصل . مررت في طريقي إلى البيت بشحّاذ عجوز يحاول أكل تفّاحة فلا يستطيع . فرميت إليه بقطعة من النقود ظننتها ربع ليرة . من الأكيد أنّني رميت إليه بالقطعة الذهبيّة عن غير وعي وإدراك . تبّاً لي . تبّاً لي ما أحمقني !

وانهالت الوالدة على الوالد بالتأنيب والتقريع ، وأمرته أن يعود أدراجه في الحال ليستردّ الليرة الذهب من الشحّاذ ويعوّضه عنها قطعة من النحاس أو الفضّة . فامتثل لأمرها ليعود بعد نصف ساعة بالخزي والفشل . إنّه لم يجد الشحّاذ .

وسمعت الابنة ما دار بين والديها من حديث ، وما نال والدها من تبكيت وتعنيت . فاكمدّ وجهها ، وانعقد لسانها ، وأحسّت أن جوّ البيت بات مكهرباً بسببها . لا كان يوم مولدها ، ولا كان ذلك العجوز الذي يحاول أكل التفّاحة فلا يستطيع ، والذي هالتها تكشيرته وسحرتها ابتسامته .

وهم كذلك إذا بجرس الباب يدقّ ، وإذا الذي يدقّه عجوز متهدّم يقبض بيده الواحدة على تفاحة متجعّدة ، وبالأخرى على عصاً يتوكأ عليها . وما إن وقع بصره على صاحب البيت حتّى راح يعتذر عن إزعاجه له . فهو لم يعرف إلاّ بعد حين أن قطعة النقد التي تصدّق عليه بها كانت من الذهب . ولأن أحداً لم يتصدّق عليه في حياته بالذهب فقد أدرك أن في الأمر غلطة . فراح في الحال يسأل أصحاب الحوانيت في الجوار لعلّهم يهدونه إلى رجل قيافته كيت وكيت . فاهتدى والحمد لله . وها هو يردّ الذهب لصاحبه ويطلب له طول العمر .

حينئذٍ سرّي عن الوالدة والوالد معاً ، وأخذهما عجب كبير من أمر هذا العجوز الغريب . وشاءا أن يكرماه بالطعام والشراب وبليرة كاملة من الورق . فأبَى أن يأخذ شيئاً . وهمّ بالانصراف . وإذا بالفتاة الصغيرة تبكي وتصيح :

— بابا ! ماما ! أين الليرة الذهب ؟ هي لي . هي هديتي في عيد مولدي . هاتها يا بابا . هاتها .

وعندما أعطاها والدها الليرة حملتها إلى العجوز متوسّلة إليه أن يقبلها هديّة منها . فأخذها الرجل وقال :

— أقبلها من يدٍ أفقر من يدي ، وقلبٍ أغنى من قلبي . كلّ عيدٍ وأنتِ بخير .

خراب مأهول

أوقفني رفيقي في الطريق أمام بيت متهدّم ليسألني :

ـ أيُحزنك منظر الخراب ؟

كان البيت بدون سقف . وجدرانه المتداعية قد انهار بعضها ، وبعضها ما زال واقفاً ، ولكن وقفة العجوز المحدودب المتهالك ، يحاول أن ينتصب بقامته فلا يستطيع . فحجر قد برز من هنا وآخر من هنالك ، وثالث لو نكزته بعصا لهوى إلى الأرض في الحال . ولولا بعض الأعشاب النابتة في بعض الشقوق ؛ ثمّ لولا بعض الحشرات والزحّافات التي اتخذت من حجارتها مساكن لها وملاعب لبدت تلك الخربة خالية من كلّ أثر للحياة . بل لبدت وكأنّها مناحة على الحياة .

وأعاد رفيقي سؤاله فأجبته بمثل سؤاله :

ـ وأنت ، هل يحزنك منظر الخراب ؟

ـ كان يحزنني حتى زمان قريب . أمّا اليوم فلا .

ـ وكيف ذلك ؟ وماذا حصل لك فبدّل شعورك ؟

ـ لم يحصل لي غير ما سوف يحصل لك ولجميع الناس . لكلّ إنسان أوانه .

– ولأن ما حصل لك لم يحصل لي بعد ، لذلك تراني تنقبض نفسي لكلّ منظر يذكّرني بالخراب . أما يحزنك أن تفكّر في هذا البيت والذين بنوه ، والذين سكنوه ، كيف مضوا وتركوه ، وإلى أين مضوا ؟ لَكَم أكلوا فيه وشربوا . لكم ناموا وقاموا . لكم ضحكوا وبكوا . لكم غنّوا وناحوا . لكم فرحوا بمولود وتحرّقوا على مفقود . لكم أمّلوا وخابوا ، وصلّوا وكفروا ، وأبغضوا وأحبّوا .

فقاطعني رفيقي :

– قُلْ لقد كانوا بشراً وكفى . ولكن ما الذي يحزنك من أمرهم ؟

– يحزنني . . . يحزنني أنّهم كانوا ، ثمّ مضوا فكأنّهم لم يكونوا . كانوا عماراً فباتوا خراباً . كانوا شيئاً فأصبحوا لا شيء . ولولا هذه الحجارة الكئيبة تذكّرنا بهم لما ذكرناهم .

– الحجارة تتفتّت . تفنى . تزول . أمّا صُورها قبل أن تتفتّت وبعد أن تتفتّت فباقية . وأمّا الذي شهدته وسمعته فلن يتفتّت . لن يفنى . لن يزول .

– تعني أنّه باقٍ ؟

– أجل . باقٍ .

– وأين ؟

– في الفضاء .

– في الفضاء ؟ !

– نعم . في الفضاء .

– ولكنّني لا أبصره ولا أسمعه .

– لسوف تسمعه وتبصره – يوماً ما .

– ألعلّك تملك حاسّة سادسة لا يملكها باقي الناس ؟

– لا أدري إذا كانت سادسة ، أو سابعة ، أو عاشرة . ولكنّها حاسّة .

– حيّرتني يا صاحبي . أفْصِحْ .

لم يجبني رفيقي في الحال . وبقي جامداً مكانه ينظر إلى الخراب أمامه وكأنّه ينظر إلى أبعد من ذلك بكثير – إلى حيث لا يمتد البصر . وبغتة ارتدّ نحوي ، ثمّ رفع بصره إلى فوق ، ثمّ قال وكأنّه عابد يصلّي في هيكل :

– هذا الفضاء اللامتناهي . هذا الفراغ الهائل . هذا اللاشيء . أتعرف ما فيه ؟

– لا .

– ولا أنا أعرف بالضبط والتفصيل . والذي أعرفه هو أن لا مناص لك ولي من التسليم بأنّ كلّ ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون موجود في الفضاء منذ الأزل ، وباقٍ فيه إلى الأبد . إذ لا سبيل له إلى دخول الفضاء من خارج الفضاء ، أو إلى الخروج منه إلى حيث لا فضاء .

هذا الفضاء يا صاحبي — هذا الفراغ الهائل — هذا اللاّشيء — منه كلّ شيء ، وفيه كلّ شيء ، ولا يمكن أن يتلاشى في رحابه أيّ شيء : لا صورة ، ولا صوت ، ولا كلمة ، ولا حركة ، ولا فكر ، ولا حلم ، ولا شعور ، ولا نفَس ، ولا رغبة ، ولا نيّة ، ولا شيء ممّا يبدر منّا ومن باقي الكائنات . كلّه باقٍ يا صاحبي ما بقي الفضاء . ولأنّ الفضاء غير متناهٍ فكلّ ما فيه غير متناهٍ ، وغير قابل للتلاشي والاضمحلال والفناء . في الفضاء لا يتلاشى أيّ شيء . أبداً . أبداً .

— إذن فالفضاء سِجلّ عجيب .

— عجيب ورهيب . نعم . رهيب . رهيب .

— ولكنّ الأوضاع والأشكال لا تستقرّ على حال . إنّها في تغيّر مستمرّ ، وفي تداخل مستمر . حتّى ليتعذّر تتبّع أيّ وضع أو شكل من البداية إلى النهاية . الأشكال تضيع بعضها في بعض .

— تتداخل الأشكال كما تتداخل الخيوط في النسيج دون أن يفقد كلّ خيط كيانه . هكذا تتلاقى وتتقاطع تتداخل الأصوات والصور في الفضاء ويبقى لكلّ صوت كيانه ولكلّ صورة كيانها . ولك في الراديو والتلفزيون أقرب دليل على ذلك . إن يكن للصوت والصورة طريق في الفضاء

فكيف بالفكر الذي هو قبل الصوت والصورة ؟

ـ ولكنّ الراديو والتلفزيون يلتقطان الصوت والصورة في لمحة من الزمان . ثمّ تختفي الصورة ويتلاشى الصوت .

ـ لا تختفي الصورة ، ولا يتلاشى الصوت . ولكن قدرة الراديو والتلفزيون تبلغ حدّها فلا تستطيع اللحاق بهما إلى ما لا نهاية . وكذلك تبلغ حاسّة السمع والبصر حدودهما .

ـ انطلاقاً من هذه الفكرة ، أتظنّ أنّه سيكون في مستطاع الإنسان أن يبتدع آلة يقتنص بواسطتها الأصوات والصور الهائمة في الفضاء ، حتّى السحيقة منها في الزمان ؟

ـ من غير شك . والذي يخيّل إليّ الآن هو أنّه لن يمضي طويل زمان حتّى تكون لنا آلة إذا وضعناها على رأس إنسان مستيقظ أو حالم استطعنا أن نبصر أفكاره وأحلامه .

ـ ذلك سيكون أمراً عجيباً حقّاً .

ـ والأعجب منه أن نبلغ ذلك لا بواسطة آلة نخترعها ونصنعها بأيدينا ، بل نكتشفها في ذواتنا ـ في أعماقنا العجيبة . إنّها هناك .

ـ ذلك يكون أدهى وأدهى . ولكن قل لي : إذا كان كلّ ما بدر منّي محفوظاً ، كما تعتقد ، في الفضاء ، في ذلك النسيج الهائل الذي هو حياتي وحياة سائر الكائنات ـ فكيف لي أن أتتبّع الخيط الذي هو حياتي دون باقي الخيوط ؟

ـ لن تتتبّعه . بل هو الذي يتتبّعك .

ـ لم أفهم .

ـ كلّ فرد بشريّ يمثّل نواةً تلتفّ عليها حياته مثلما تلتف الخيوط على البكرة . وهذه النواة بما التفّ حواليها تصبح جرماً يدور حول أجرام أخرى ، أو تدور حوله أجرام أخرى ، تماماً كما هي الحال مع الأجرام السماوية السابحة في الفضاء . فلا الإنسان يستطيع أن يهرب من حياته ، ولا حياته تستطيع أن تهرب منه .

ـ وهل يأتي يوم تصبح فيه حياتي كتاباً مفتوحاً أمامي أقرأ كلّ ما فيه ؟

ـ أكيد .

ـ ومفتوحاً لكلّ الناس ؟

ـ للّذين تعلّموا القراءة .

ـ سيأتي يوم يتعلّم فيه كلّ الناس القراءة .

ـ القراءة الّتي أعنيها هي غير القراءة الّتي يتعلّمها الناس في المدارس .

ـ ولكنّها قراءة تكشف لغيري كلّ ما كان من أمري على مدى حياتي .

ـ أجل .

ـ أمر رهيب .

ـ وأين الرهبة ؟

ـ أليس رهيباً أن يقرأ الناس كلّ ما حاولت ستره عن الناس من أعمال وأفكار وشهوات بشعة ؟

ـ ولكنّ البشاعة لا تبقى بشاعة يوم يصبح في إمكانك أن تقرأ كلّ ما كان . وبالتالي فأنت ستقرأ حياة غيرك كذلك يوم يغدو في إمكانك أن تقرأ حياتك . وعندها سترى ويرى غيرك أن الطريق الذي سلكتموه ، وإن كثرت تعاريجه وتعدّدت اتجاهاته ، كان طريقاً واحداً .

ـ ألعلّ اليوم الذي تنكشف فيه لكلّ إنسان حياته وحياة غيره بجميع تفاصيلها هو ما دعاه البعض يوم الدين ؟

ـ قد يكون . قد يكون . ولكنّه ليس يوماً بالمعنى الذي نفهم الآن به كلمة يوم . فهو قد مرّ من زمان بالنسبة لبعض الناس . وهو حاضر أو آتٍ بالنسبة للآخرين .

ـ أريد أن أعود إلى الفضاء : إذا صحّ أن كلّ ما كان منذ الأزل باقٍ في الفضاء فهل هو يؤثر فينا ويتأثّر بنا ؟

ـ من غير شك . من الفضاء إجرام المجرم ، وإلهام الشاعر ، ووحي النبيّ ، وبغي البغيّ . كلّ منّا يجتذب إليه من الفضاء ما يوائم مزاجه وذوقه واتجاهه ورغائبه ، وما تحتّمه عليه أعماله وأقواله وأفكاره وشهواته . وكلّ منّا يردّ إلى الفضاء جميع ما يصدر عنه . فنحن والفضاء في تفاعل

دائم . إنّه المصدر والمآب . ولا مفرّ منه . لذلك كان أغبَى الأغبياء أولئك الذين يحاولون الإفلات من الفضاء بالانتحار .

– إنّها لفكرة تبعث الرعب في القلب – أن يحاول الإنسان الفرار فلا يجد مفرّاً .

– ولماذا محاولة المستحيل ؟

– لأن المستحيل ثقيل . وأثقل منه الإقرار بالعجز تجاهه . في الإنسان ما يأبَى التسليم بالمستحيل والاستسلام لشيء يدعى القضاء والقدر .

– أمّا إذا كنت أنتَ الفضاء ، وكنت أنت القضاء والقدر ، فهل يخطر في بالك أنّك ستطلب الخروج من الفضاء ، وأنّه سيضايقك استسلام نفسك لنفسك ؟

– ولكنّني لست الفضاء . ولا أنا القضاء والقدر .

– ما دمتَ من الفضاء ، وفي الفضاء ، فأنت على اتصال دائم بكلّ ما يملأ الفضاء . وما دمت تفكّر في ما يملأ الفضاء ففكرك يملأ الفضاء . لعلّك لا تعي ذلك اليوم . ولكنّك ستعيه ذات يوم .

. والقضاء والقدر ؟

– استسلامك للقضاء والقدر هو استسلام نفسك لنفسك . في النواة الّتي هي أنت قضاؤك وقدرك . إنّهما منك وفيك . ويوم تعي أنّك تملأ الفضاء ، في ذلك اليوم تشبّ عن طوق

القضاء والقدر » .

عند ذلك الحدّ شعرت بشيء من الخدَر في دماغي . فتوقّفت عن الحديث . وتوقّف صاحبي كذلك ، وظلّ يحدّق إلى الخراب الذي أمامه وكأنّه يحدّق إلى شيء أبعد من متناول البصر . وأحببت أن نتابع السير وأن نعود من الفضاء إلى الأرض . ولكن صاحبي ما لبث أن استأنف حديثه وكأنّه يحدّث نفسه :

ـــ هذا الفضاء ـــ هذا الفراغ ـــ هذا اللاّشيء ـــ هذا المدى الذي لو كانت لك مطية سرعتها سرعة الفكر لما استطعت أن تقطعه في عام ، ولا في ألف عام ، ولا في مليون مليون عام ـــ أين نحن منه ؟ إنّه يبتلع الزمان . ونحن عبيد الزمان . وتتعطّل فيه جميع المقاييس . ونحن رهناء المقاييس . المنظور منه ـــ إذا هو قيس بغير المنظور ـــ بدا وكأنّه نقطة أو أقلّ من نقطة في محيط .

أيّ خزّان هائل هو هذا الفراغ ! منه الأرض وما عليها ، وجميع الكواكب وما فيها . منه يبرز كلّ منظور ليعيش ردحاً من الزمن ثمّ يغدو غير منظور ـــ يغدو صوراً لا تبصرها العين ، وأصواتاً لا تسمعها الأذن . ولكنّنا نلتقطها بغير العين والأذن .

واحدة هي عمليّة الهدم وعمليّة البناء في الفضاء .

إنّها عمليّة الخلق التي تستمرّ ما استمرّ الفضاء . وهي فوق الحزن والفرح . فوق الخير والشرّ . فوق البدايات والنهايات . إنّها الوجود لا تحدّه حدود . إنّها الخلود يهزأ بالزمان والمكان، وليس فيه زيادة أو نقصان . وحسب الإنسان أن يفكّر فيها ليكون بعضاً منها . ثمّ حسبه أن يكون بعضاً منها ليكون له اليقين بأنّه أبقى من الزمان والمكان ، وأقوى من الموت والحياة .

عظيم . عظيم . عظيم هو الإنسان ! أعظم من الزمان والمكان . عظيم كالفضاء » .

ولاح لي أن رفيقي قد أفرغ كلّ ما في جعبته عن الفضاء . فاهتبلتها سانحة لتذكيره بموعد بيننا وبين صديق لنا . فأجفل كمن يستيقظ فجأة من منام وقال :

ـ أجل . نحن على موعد . والمواعيد تتقيّد بزمان ومكان . أمّا الحديث عن الفضاء فواسع كالفضاء . وزمانه كلّ زمان . ومكانه كلّ مكان . ولقد جرّني إليه منظر هذه الخرِبة . فبدا لي أن الفضاء كلّه خراب . ولكنّه خراب آهل أبداً بالسكّان . لنمضِ . ولعلّنا نستأنف حديثنا عن الفضاء عند صديقنا . لنمضِ !

بتفكير وبدون تفكير

افترش كلٌّ منهما سبعة وثمانين عاماً، وجلس الاثنان جنباً إلى جنب على العشب الطريء وراحا ينعمان بدفء شمس الربيع . ومن بعد أن فرك بو فريد يديه ووجهه وعينيه ، وحذا حذوه بو سعيد ، دخل الرجلان في حوار طويل نقتطف منه ما يلي :

بو فريد : حلوةٌ هذه الدنيا يا بو سعيد .

بو سعيد : حلوة جدّاً ، ولكن للشباب .

بو فريد : وأنت وأنا — ما بنا ؟

بو سعيد : أنا وأنت بقايا رجال . بصرنا بعض البصر . وسمعنا بعض السمع . ومدى أيدينا وأرجلنا يتقلّص يوماً بعد يوم . الفم رحىً بغير حجارة . والقلب أتّون بغير وقود .

بو فريد : بعض البصر خير من لا بصر . وبعض السمع خير من لا سمع . وبعض المدى خير من لا مدى . والرحى تطحن بغير حجارة خير من لا رحىً ولا حجارة . أمّا القلب ، يا بو سعيد ، فقد ظلمتَه إذ شبّهتَه بأتّون دون وقود .

بو سعيد : وأين وقوده ؟

بو فريد : عتبي عليك يا بو سعيد تسأل هذا السؤال وفي قلبك وقود سبعةٍ وثمانين عاماً .

بو سعيد : تعني رماد سبعة وثمانين عاماً .

بو فريد : لا . لا ، يا بو سعيد . الرماد لا يدفىء . ههنا (دالاً على قلبه) جمر يتوهّج . والجمر خير من اللهيب في الهشيم . ههنا موقد يؤنس لا أتّون يحرق . للأتّون أوانه . وللموقد أوانه . وأواننا يا بو سعيد أوان الموقد .

بو سعيد : الجمر لا يبقى جمراً . ستأكله الحرارة التي فيه . ثمّ تهرب الحرارة ولا يبقى غير الرماد .

بو فريد : ولكنّها الآن هناك .

بو سعيد : إلى حين .

بو فريد : وإلى أن يحين حينها نستدفىء بها .

بو سعيد : نستدفىء وفي القلب غصّة .

بو فريد : ولماذا الغصّة ؟

بو سعيد : لأن الحرارة ستمضي وتترك القلب رماداً بارداً . ومتى بات القلب رماداً بات الجسم كلّه رماداً .

بو فريد : أتعرف يا بو سعيد إلى أين تمضي الحرارة ؟

بو سعيد : لا .

بو فريد : أتعرف من أين جاءت ؟

بو سعيد : لا .

بو فريد : أتعرف متى تمضي ؟

بو سعيد : لا .

بو فريد : ألا تشعر عندما خلّفت شتاءك السابع والثمانين وراءك أنّك ربحت معركة ؟

بو سعيد : بلى .

بو فريد : ألا تشعر وأنت تستقبل ربيعك السابع والثمانين أنّك تستقبل بهجة عظيمة ؟

بو سعيد : بلى . فالشمس وحدها – وحرارتها قد أخذت تتغلغل في لحمي وعظمي ودمي – هي أعظم بهجة .

بو فريد : هذه البهجة تمسّك بها يا بو سعيد .

بو سعيد : وكيف أتمسّك بها ؟ إذا كان للكفّ أن تقبض على الهواء كان للقلب أن يتمسّك بالبهجة .

بو فريد : احفرها في ذاكرتك حفراً عميقاً – عميقاً جدّاً .

بو سعيد : وما نفعي من حفرها في ذاكرتي ما دمت سأغدو أنا وذاكرتي ، في النهاية ، طعاماً للدود ؟

بو فريد : الذاكرة لا تأكلها أيّ آكلة – لا الدود ، ولا النار ، ولا الريح ، ولا التراب ولا أيّ قوّة في الأرض أو في السماء .

بو سعيد : عرفتك كلّ هذه السنين يا بو فريد وما

سمعتك مرّة تحدّثني مثل هذا الحديث — لا عن الذاكرة ولا عن غير الذاكرة .

بو فريد : ولا أنا أعرف أنّني فكّرت في مثل هذه الأمور قبل اليوم ، وما الذي دفعني على التفكير فيها والتحدّث عنها الآن . لعلّني عندما فكّرت في هذه الساعة ، وفي بهجة الربيع التي دخلت قلبك وقلبي ، قلت في نفسي : أين مضت بهجات ومخاوف وأوجاع كثيرة شهدتُها في خلال سبع وثمانين سنة ؟ فلم أجد جواباً إلاّ أنّها باقية في ذاكرتي .

بو سعيد : ولكنّك ستموت . وعندما تموت تموت ذاكرتك كذلك .

بو فريد : قلت لك إن الذاكرة لا تأكلها أيّ آكلة . الذاكرة لا تموت . لا يمّحى منها حرف أو نقطة .

بو سعيد : أنت تعرفني يا بو فريد . أنا رجل بسيط . وفهمي محدود .

بو فريد : وأنت تعرفني يا بو سعيد . أنا رجل أبسط منك . وفهمي محدود أكثر من فهمك .

بو سعيد : الذي أفهمه يا بو فريد هو أنّ الذاكرة كلّها هنا . (ونقر بإصبعه الوسطى على جبهته) .

بو فريد : تعني في الدماغ ؟

بو سعيد : نعم . في الدماغ . الدماغ هو وعاء الذاكرة .

ومتى تلِف الوعاء تلف ما فيه .

بو فريد : قد يكون الوعاء قابلاً للتلف ، يا أخي بو سعيد . ويكون الذي فيه غير قابل للتلف . فيتلف الوعاء ويبقى الذي كان فيه .

بو سعيد : مثلاً .

بو فريد : مَثَل بسيط . خذ قنينة فيها نبيذ واكسرها ، تخسر القنينة وتخسر النبيذ .

بو سعيد : مَثل ممتاز عمّا عنيته أنا .

بو فريد : ولكن خذ قنّينة ليس فيها إلاّ هواء واكسرها. تتحطّم القنينة ويبقى الهواء .

بو سعيد : ولكن الذي في الذاكرة أكثر من هواء يا بو فريد .

بو فريد : أعرف . أعرف يا بو سعيد . الهواء مَثل لم أهتدِ إلى أفضل منه . فهل عندك أفضل منه ؟

بو سعيد : في الذاكرة أشياء وأشياء لا حصر لها . فيها كلّ ما أبصرناه وسمعناه ولمسناه وتذوّقناه وشممناه من يوم وُلدنا وحتّى اليوم . فيها كلّ ما عملناه وفكّرنا به وحلمناه واشتهيناه وقلناه . فيها زعلُنا وبَسْطنا ، وخصوماتنا وصداقاتنا ، وبركاتنا ولعناتنا . فيها كلّ تفاصيل حياتنا . وهذه ليست هواء .

بو فريد : اسمعني يا أخي بو سعيد . اسمعني . ثمّ ساعدني . إنّي الآن ككلب الصيد تدغدغ خياشيمه رائحة طريدة ولكنّ الهواء المتقلّب يعذّبه في الوصول إليها . فيدنيه منها لحظة ثمّ يقصيه عنها لحظة أخرى . وهو، رغم ذلك، يثابر في التفتيش . لأن خياشيمه تؤكّد له أنّ في الجوار طريدة .

بو سعيد : (ضاحكاً) أعجبني تشبيهك . هات . لاحق الطريدة .

بو فريد : عندما تذكر جبلاً من الجبال هل تذكره لأنّه بعلوّه وصخره وترابه وأثقاله مقيم في دماغك ؟

بو سعيد : بالطبع لا . وكيف لدماغي أن يسع جبلاً ؟

بو فريد : إذن ماذا يقيم من الجبل في دماغك ؟

بو سعيد : صورته .

بو فريد : ولا صورته يا بو سعيد . الصورة لها قياسات ــ لها أبعاد ــ لها ألوان . فهل في دماغك وزن الجبل بالأطنان ، وأبعاده بالأمتار ، وألوانه بالألوان التي يستعملها الرسّام في رسم صورة ؟

بو سعيد : بالطبع ، لا .

بو فريد : وعندما تذكر البحر أتذكره لأنّه يمتدّ ويرغي ويزبد ويموج ، ويتلوّن في دماغك ؟

بو سعيد : ومن أين لدماغي أن يسع البحر ؟

بو فريد : كذلك هي حالك مع السماء ونجومها ، والأرض ونباتها وطيرها وحشراتها وحيوانها ، وما عرفتَه من أشكال هذه المخلوقات وأصواتها وروائحتها ومذاقها . وكذلك هي حالك مع كلّ من عرفتهم في حياتك من رجال ونساء وأطفال ما بين أموات وأحياء . كلّها وكلّهم باقون في ذاكرتك ، ولكنّهم لا يقيمون بأجسادهم في دماغك . فماذا الذي يقيم منهم هناك ؟ وكيف تحملهم معك أينما ذهبت في حين يبقون هم حيث هم ؟ وأين يمضون بعد أن نمضي إلى القبر ؟ هات . حُلّ لي هذه الحزورة !

بو سعيد : ولا الذي خلقها يستطيع حلّها .

بو فريد : هذا هو الكفر بعينه يا بو سعيد . وعهدي بك أنّك لست من الكافرين .

بو سعيد : وهل عندك حلّ ؟

بو فريد : لو كان عندي حلّ لما كنت أسأل عن حلّ .

بو سعيد : إذن أنا وأنت في الهوى سوا . لا أنت تعرف . ولا أنا أعرف .

بو فريد : أعرف ولا أعرف يا بو سعيد . والذي أعرفه هو أن الدماغ يبلى والذاكرة لا تبلى ، لأن ما تحتويه الذاكرة غير قابل للبلى . لأنّه . . . لأنّه . . . لأنّه لا شيء .

بو سعيد : لا شيء ؟ ! أسفي عليك يا بو فريد . يبدو

أنّ الخرَف قد أخذ يدبّ فيك . إذا كان كلّ ما في الذاكرة لا شيء – كما تقول – فكيف يعيش الناس وتعيش الحيوانات بلا شيء ، وهم لا يستطيعون العيش ساعة ، بل دقيقة ، بدون الذاكرة ؟

بو فريد : خذني بحلمك يا بو سعيد . أسعفني قليلاً . الطريدة ليست بعيدة . ورائحتها تقوى في خياشيمي . ولا بدّ من أن أقبض عليها وأقدّمها لك . خذني بحلمك . المسألة مسألة كلمات . وأنا لا أجد الكلمات المناسبة .

بو سعيد : أمرُنا لله . فتّش على مهلك . لن أسوقك بالعصا .

بو فريد : أما قلتَ إنّك تحمل البحر والجبل في ذاكرتك ولا تحملهما في دماغك ؟

بو سعيد : بلى . قلت .

بو فريد : كذلك تحمل صوت الحمار والغرابَ دون الحمار والغراب .

بو سعيد : صحيح .

بو فريد : وتحمل طعم التين والبطيخ دون التين والبطيخ .

بو سعيد : آمنت وصدّقت .

بو فريد : وتحمل رائحة الثوم والزيزفون دون الثوم والزيزفون .

بو سعيد : وهذا صحيح .

بو فريد : وتحمل أسماء الناس والأشياء دون أن تحمل الناس والأشياء .

بو سعيد : وماذا بعد ؟

بو فريد : يعني أنّك تحمل من الأشياء ذكراها دون أن تحمل الأشياء . والذكرى لا وزن لها ، ولا طول ، ولا عرض ، ولا عمق . ولا هي من لحم وعظم ودم . ولا لها صوت ، أو رائحة ، أو مذاق . إنّها لا شيء . أتفهمني يا بو سعيد ؟

بو سعيد : م — م — م . . . نعم ولا . تابع حديثك .

بو فريد : إنّها اللاشيء الذي فيه يتمثّل كلّ شيء . فهمتَ ما أعني ؟

بو سعيد : تعني لا شيء .

بو فريد : لا . لا . أعني ، كما قلت ، اللاشيء الذي فيه يتمثّل كلّ شيء . تمضي الأشياء ، تتحوّل ، تتفكّك ، تتناثر . ويبقى مثالها . تبقى . . . إنّني أفتّش عن كلمة فلا أجدها . أسعفني يا بو سعيد .

بو سعيد : تبقى نكهتها .

بو فريد : عشت يا بو سعيد . نكهتها . نكهتها . لا . لا . دعني أحكّ رأسي قليلاً بعد . وأنت كذلك حكّ

رأسك معي . النكهة فيها شيء من الرائحة . والذي أعنيه أكثر من رائحة .

بو سعيد : روحها .

بو فريد : أصبت . أصبت . روحها يا بو فريد . روحها . تبلى الأشياء ويبقى روحها .

بو سعيد : إذا صحّ قولك فبو سعيد ، وإن مات ، يبقى حيّاً في ذاكرة بو فريد . وبو فريد ، وإن مات ، يبقى حيّاً في ذاكرة بو سعيد .

بو فريد : وفي ذاكرات كثيرة . وهنا الطريدة . يموت بو فريد وبو سعيد ويبقى بو فريد وبو سعيد — كلٌّ في ذاكرته وفي ذاكرة العالم .

بو سعيد : أتعرف يا بو فريد ؟ قلّة التفكير في هذه الأمور أفضل من كثرته .

بو فريد : مصيبتنا يا أخي بو سعيد أنّنا لا نستطيع إلاّ أن نفكّر . حلوٌ أن يفكّر الإنسان في كلّ شيء . حلوة هي هذه الدنيا يا بو سعيد .

بو سعيد : ولكن بدون تفكير .

بو فريد : بتفكير وبدون تفكير . للشباب ولغير الشباب . حلوة يا شيخ !

الجورب الجاني

ساعتان في صالون التجميل . وساعتان في غرفتها . تلبس فستاناً وتدور فيه بضع دورات أمام المرآة الكبيرة ثمّ تنزعه لتستبدل به سواه . وكلّما استبدلت فستاناً بفستان استبدلت معه حُلى بحلى ، وجوارب بجوارب ، وأحذية بأحذية . فهذه كان لا بدّ لها أن تنسجم بأشكالها وألوانها مع الفستان الذي على بدنها . حتّى بدت غرفتها وكأنّها معرض أزياء وحُلّى وأحذية وجوارب .

وبين الفينة والفينة كان زوجها ينقر على الباب بلطف ليذكّرها بأن موعد الحفلة قد حان ولا يليق بهما أن يصلا متأخّرين . فتنتهره هي من الداخل وتأمره بألاّ يزعجها في عملها ، ثمّ تذكّره بأنّها تعرف واجباتها .

أخيراً خرجت من مخدعها وهي تتبختر في مشيتها كالطاووس . وزوجها ينظر إليها ولا يصدّق أن هذه المرأة الأنيقة ، الجميلة هي زوجته . لقد كان جمالها مضرب المثل في العاصمة . ولكنّه لم يكن يُشبع كبرياءها وطموحها لأنّها وزوجها لم يتمكّنا بعد من التغلغل في حياة النخبة التي كانت

تعتبرهما من حديثي النعمة ، أو الثروة ، فلا تفتح لهما أبوابها .

على أن للجمال والمال سلطاناً لا يعانَد . فبفضلهما ، وبفضل الحيَل البارعة التي كانت تلجأ إليها ، تمكّنت الزوجة في النهاية من خرق « الستار الحديدي » الذي كان يفصلها وزوجها عن حياة النخبة . فها هي تتلقّى دعوة إلى الحفلة التي تحييها زعيمة العالم الأرستقراطي مرّة في كلّ سنة ، والتي تُعتَبر الدعوة إليها شرفاً عظيماً . فالعشاء من أفخر ما استنبطه أمهر الطهاة . وقاعة الرقص بعد العشاء من أفخم ما هندس المهندسون ، ورسم الرسّامون ، وزيّن المزيّنون . أمّا الأزياء والحلى التي كانت تشهدها تلك الحفلة فيعجز عن وصفها أيّ قلم وأيّ لسان .

بعد العشاء رقصت الزوجة الرقصة الأولى مع زوجها ، وهي مزهوّة بذاتها زهواً لا يقلّ فعله في الرأس عن فعل الخمرة المعتقة . فقد كانت تشعر أنّها ، كيفما تحرّكت ، محطّ الأنظار وموضوع الحديث . وعندما جلست لتستريح بقرب سيّدة تربطها بها معرفة سابقة انحنت تلك السيّدة نحوها وهمست في أذنها كلمات لم يسمعها أحد . ولكنّ الحضور أبصروا أثرها في الإغماءة التي تلتها والتشويش الذي نتج عنها .

حالما أفاقت الزوجة من إغماءتها اعتذرت وزوجها عن متابعة السهرة ، وعن الإزعاج الذي سبّبته لربّة القصر

وضيوفها مؤكّدة أن ما أصابها لم يكن غير عرَض طارىء لا شأن له ولكنّه يفرض عليها العودة إلى بيتها . وعاد الزوجان إلى بيتهما .

في البيت أخذت الزوجة تستفرغ . وكانت ، وهي تستفرغ ، تجد الوقت والقدرة لتسلق زوجها بوابل من الشتائم :

« ليتك لم تكن . ليتني عرفت الموت قبل أن أعرفك . أفسدت عليّ أجمل ساعات حياتي . متُّ ألف موتة حتى تيسّر لي أن أجعلك واحداً من علية القوم في هذا البلد . أخذتَ تنقر على بابي بغير انقطاع وأنا منهمكة في ترتيب هندامي . استعجلي ! استعجلي ! تأخّرنا ! تأخّرنا ! لا عشت تستعجل وتتأخّر . ماذا كانت النتيجة ؟ كانت أن لبست جوربين كلّ منهما بلون . يا للعار ! يا للفضيحة ! خذ . خذ ! »

وانتزعت الزوجة أحد جوربيها ومزّقته نُتفاً ، ثمّ رمته في وجه زوجها وهي تصيح :

« خذ ! خذ ! لا عشت تأخذ . أفسدت عليّ سهرتي . أفسدت عليّ أجمل ساعات عمري . قصف الله عمرك ! »

لم ينبس الزوج المسكين بكلمة ، وظلّ جامداً كالمصعوق. ولكنّه ، بما تبقى له من وعي ، حاول أن يبصر فرقاً في لون الجورب الممزّق ولون الجورب السليم فلم يبصر .

عمود البيت

– على مهلك يا حبيبتي ، على مهلك . النهار طويل . ثلاث ساعات تكفينا لزرع ما نريد زرعه من اللوبياء .

– النهار طويل ، والشغل كثير ، والطقس جميل . ومَن يدري كيف يكون غداً ؟ عندنا غير زرع اللوبياء .

– ينتهي العمر والشغل لا ينتهي . ولأجسادنا علينا حقوق . انظري إلى العرق يتصبّب من جبينك .

– ولماذا لا تنظر إلى العرق المتصبّب من جبينك ؟ يقبرني جبينك . اترك المجرفة . استرح . أشعل سيكارة .

وامتثل الشابّ لإرادة زوجته الشابّة . فترك المجرفة من يده ، وجلس على أقرب حجر ، وأشعل لفافة . وجلست هي بالقرب منه وأخذت تمسح العرق عن وجهها بذيل فستانها ، ثمّ تمسحه بيدها عن وجه زوجها . والوجهان كان فيهما من نضارة الشباب كالذي في الأعشاب والأشجار المحيطة بهما ، وفي السماء فوقهما ، من نضارة الربيع .

– دعني أذهب وأتفقّد زغلولتنا . لقد طالت غفوتها . تقبرني صورتها .

وعادت الأمّ بعد قليل لتطمئن زوجها بأن طفلتهما لا تزال في غفوة عميقة وكأنّها الملاك . وكانت الطفلة ، وليس لها من العمر غير ستّة شهور ، تنام على كيس من الخيش فرشته لها أمّها على التراب تحت شجرة غير بعيدة . أمّا غطاؤها فكان عباءة والدها .

انتصف النهار والزوج مكبّ بمجرفته على الأرض المحروثة ، الممهّدة ، يحفر فيها فجوات متوازية ، متلاصقة ، تستطيل أحياناً وتستقيم ، وأحياناً تقصر وتستدير . والزوجة تتبعه من فجوة إلى فجوة ، وفي يدها سكّين طويل النصل تنكت به حفراً صغيرة ، متقاربة ، في جوف الفجوة ، ثمّ ترمي في كلّ حفرة أربع أو خمس حبّات من اللوبياء وتطمرها بالقليل من التراب تردّه عليها برأس السكّين الذي في يدها .

لقد كان الاثنان يعملان وكأنّهما في سباق . فتمضي الدقائق دون أن يفوه أحدهما بكلمة . وكانت الزوجة ، كلّما تناولت حفنة من البذار لتلقيها في التراب ، تُردّد في قلبها : « يد الله قبل يدي » . فقد كان يهمّها أن يأتي الموسم في هذه السنة أضعاف ما كان في السنة الماضية . وقد اتفقت وزوجها أن يسخيا على هذا الموسم فوق سخائهما على الموسم الماضي بكثير : بالسماد . بالماء . وعلى الأخص بالقضبان التي تلتفّ

عليها اللوبياء . فهذه سيختارانها ملساء ، وطويلة ، ومستقيمة ، وقويّة . وإن شاء الله فسيردّان لجارهما المال الذي استداناه منه قبل شهرين .

ـ جعنا يا مستورة .

ـ جوع القملة براس الأقرع . يلّله . يلّله . لم يبقَ إلاّ القليل . لن نأكل قبل أن ننتهي .

ـ وماذا عندك للغداء ؟

ـ أكلة تحبّها كثيراً .

ـ مفرّكة ؟

ـ إي والله . مفرّكة .

ـ إذا ابتدأتِ الآن فقد تأخّرت . خوّرنا .

ـ عندي البيض . وعندي القورمة . وعندي الخبز . ولا ينقصني إلاّ القليل من الكرّاث وغيره من الأعشاب التي تصلح للمفرّكة . وهذه أجمعها في رَمْشة عين .

انتهى زرع اللوبياء . وجاء نبأ من الطفلة أنّها أفاقت من نومها . فهرولت إليها أمّها لترضعها . ثمّ أسلمتها لأبيها وراحت تهتمّ بالغداء . وكان غداء شهيّاً جدّاً .

ـ صدّقيني يا مستورة أنّ هذا أطيب غداء أكلته في حياتي . لو لم نكن وحدنا في هذه البريّة لكنت أوثر أن أنام ههنا منذ الآن فلا أنهض حتّى الصباح . فبيتنا بعيد ، ودربنا

طويل . ولكن لا بدّ من العودة .

لكنّ « المستورة » لم تسمع . لقد كانت مشغولة بغسل الإناء الذي فيه طبخت الغداء . وعندما انتهت أقبلت على زوجها ويداها على بطنها ، وأسنانها العليا تشدّ على شفتها السفلى ، والحمرة في وجهها قد تحوّلت صفرة . ثمّ أخذت تنحني أوطأ فأوطأ كأنّ قوّة كانت تشدّ رأسها وكتفيها والنصف الأعلى من جسمها إلى الأرض . وما إن أدركت زوجها حتّى ارتمت عليه وهي تئنّ وتستغيث :

— دخيلك . دخيلك . بَطْني . بطني . . .

انعقد لسان الشابّ من الخوف ، وغامت عيناه ، واختبط دماغه بعضه ببعض . فما يدري ما يفعل . إن امرأته تتلوّى وتتعصّر بين يديه وتصيح :

— آخ . آخ . دخيلك . مصاريني تتقطّع . اشتريني يا حبيبي . لا تدعني أموت . إكراماً للزغلولة . إكراماً لك . ولدي . مَن يرضعها . . . مَن يهتمّ بها بعدي ؟ آخ . آ — آ — آ — خ ! . .

وتسكت المسكينة هنيهة لتعود فتستأنف :

— هذا هو الموت . هذا هو الموت . ضربتَني . قتلتَني . وصيّتي الزغلولة . لا تُبَهْدِلْها . إذا تزوّجتَ لا تبهدلها . كن شجاعاً . اعتنِ باللوبياء التي زرعناها . لا تهملها .

آ ـ آ ـ آ ـ خ ! ولدي . ولدي . ولدي . . .

عندها فاضت الدموع من عيني الزوج ، وانحلّت عقدة لسانه ، فحاول أن يشجّع زوجته ، وأن يصرف فكرها عن الموت . ولكنّه كان أحوج منها إلى التشجيع . فجاء كلامه هذياناً :

ـ يا عمود بيتي . يا عمود حياتي . لا تتركيني . لا تموتي . الزغلولة . أنا . الدنيا . فداك . فدى ظفرك . يا الله . يا الله . أين أنت ؟ يا خرابك يا بيتي . ليت الوجع في بطني . لا تتركيني . لا تروحي . . .

وكأن الطفلة شعرت بهول ما يجري على مرأى ومسمع منها فراحت تزعق وتعول كما لا يزعق ويعول إلاّ الأطفال . فكاد الوالد أن يفقد صوابه .

في تلك الآونة اتّفق مرور صيّاد من هناك . فاستنجده الزوج في الحال . وعندما وقف الرجل على تفاصيل الخبر ارتدّ لتوّه على أعقابه ليعود بعد قليل وفي يده ضمّة من الأعشاب . فطلب للحال وعاء ليغلي فيه أعشابه . وعندما فرغ من غليها ألحّ على الزوجة أن تشرب ماءها غير عابئة بما فيه من مرارة . وعملت المرأة بنصيحته .

بعد ربع ساعة كان الأربعة في طريقهم إلى القرية . وكانت الأمّ تداعب ابنتها فتدفعها إلى فوق ثمّ تتلقّفها بيديها

الاثنتين ، ثمّ تضمّها إلى صدرها وتشبعها تقبيلاً وهي تردّد :

– يا عمود بيتي أنت !

فيربّت الزوج كتفها ويصحّح قولها :

– بل يا عمود بيتي أنتِ !

الضب والمرشح والناخب

كلّ ما في الأرض والسماء يضحك ويصفّق ويغنّي ويرقص . فقبّة الفضاء من فوقنا ما اصطبغت يوماً بزرقة شفّافة ، أخّاذة ، ساحرة كالزرقة التي اصطبغت بها اليوم . ولا الشمس وشّتها بمثل هذا النور العجيب الذي يوشّيها في هذه الساعة . ولا رتّل النهر الذي نجلس أنا ورفاقي على كتفه مثل التراتيل التي نسمعها الآن .

هذه الأعشاب والأزهار البديعة المفروشة أمامنا وخلفنا وعن جانبينا ، والتي كانت حتى الأمس القريب جذوراً وبذوراً مدفونة في التراب ، بسحر أيّ ساحر مزّقت اليوم أكفانها ، ونهضت من لحودها ، لتبرز في حلل من الأخضر والأزرق والأصفر والأحمر والبنفسجي والوردي والبرتقالي وكلّ ألوان قوس السحاب ؟ لا العين تشبع من تقبيلها ، ولا الأذن من سماع وشوشاتها إذ يدغدغها النسيم اللعوب ، الطروب .

وهذه الفراشات المترنّحات على أكفّ النسمات الحالمات يرتفعن تارة ، وتارة يهبطن . يلثمن زهرة هنا وزهرة هناك .

يقتربن مرّة الواحدة من الأخرى ، ومرّة يبتعدن – ماذا تراهن يقلن للنسمات والزهرات وبعضهنّ لبعض ؟

وهذه المجنّحات الصغيرة ما بين خطّاف وسنونو ونقّار وحسّون وأبي الأبلق وأبي الحنّاء والعندليب وغيرها وغيرها – ما بالها لا يهدأ لها بال ؟ إنّها في الجوّ حيناً ، وحيناً على صخرة أو شجرة أو شوكة . وأحياناً على الأرض تقفز من هنا إلى هناك وعينها على التّراب تفتّش فيه عن قشّة أو شعرة أو قليل من الطحلب أو الطين تحمله في مناقيرها وتطير به في شتّى الاتجاهات . تطير وفي خفق أجنحتها الصغيرة من السرعة والبهجة ما يوحي إليك بأنّها في سباق مع النهار . وإذا كفّ أحدها هنيهة عن الحركة راح ينثر قلبه في الهواء موشّحات وسمفونيات . ويا لها من موشحات وسمفونيات لا يستطيع الإتيان بمثلها إلاّ السكارى برحيق الحبّ وغبطة الوجود .

وتلك الصخور الّتي ارتفع بعضها فوق بعض ؛ وتقاعس بعضها عن بعض على جانبي النهر المهرول إلى البحر ؛ والأشجار والأدغال النابتة عند أقدامها وبين ضلوعها – أيّ هيبة هي هيبتها ، وأيّ طمأنينة هي طمأنينتها ! لكأنّها الهياكل لآلهة ما حلم بعد بها حالم ، ولا عبدها عابد . لأنّها أبعد من مدى الحلم ، ولأنّها تتسامى فوق مذلّة العبادة .

في ذلك الوادي البعيد عن مسالك الناس ، وعن ترهاتهم

ومخرقاتهم ، جلست ورفاقي الثلاثة على كتف النهر أصيلَ نهار من النهارات التي لا يجود بمثلها غير أيّار . وقد سطت علينا روعة المكان فلذنا بالصمت . وأعني أن كلّ جارحة فينا كانت تتكلّم ما عدا اللسان .

ونحن كذلك إذا بواحد منّا يمدّ ذراعه ويشير بسبّابته إلى صخرة بعيدة في الجانب الآخر من النهر ثمّ يسأل :

– أترون تلك الصخرة هناك ، هناك ؟ إنّها شبه مستديرة وبالقرب منها شجرة بلّوط كبيرة .

ومن بعد أن تيقّن الجميع أنّهم أبصروا الصخرة التي كان يشير إليها سألوه عن الذي استرعى انتباهه فيها . فراح يدلّ بسبّابته من جديد :

– ألا ترون في وسطها بقعة غريبة عنها بلونها وشكلها ؟ إنّها تكاد تكون مربّعة .

قلنا ، وقد أبصرنا البقعة :

– وماذا يهمّك منها ؟

– أريد أن أعرف ما هي . إنّها تبدو غير طبيعيّة حيث هي . لا . ما أظنّها من صنع الطبيعة .

واختلفت الآراء في ما عسى البقعة أن تكون . وتمسّك كلّ برأيه . وفي النهاية اتّفق الأربعة على الذهاب إلى حيث الصخرة ليتفحّصوا البقعة الغريبة عن كثب . وعندما باتوا

على قيد خطوات منها انفجروا في قهقهات عالية . لقد كانت البقعة صورة رأس بشري مطبوعة على ورق صقيل وقد كُتب تحتها بأحرف كبيرة :

انتخبوا مرشّح الشعب

ثمّ بأحرف أكبر من تلك بكثير :

زَعْمُوط شَنْشَن

وقف الأربعة يتأمّلون الصورة وقد اختنقت قهقهاتهم ، وكادت تنحبس أنفاسهم . وتذكّروا أن الوقت وقت انتخابات للنيابة ، وأن موعد الانتخابات بات على الأبواب .

أمامهم رأس إنسان طوى من العمر لا أقلّ من نصف قرن . رأس يضيق من أعلى ويتّسع من أسفل . وقد هجم الشعر على جبهته من جهات ثلاث فتركها علامةً لا أكثر للمكان الذي فيه تقع الجبهة من الرأس . حاجبان كثيفان ، متلاصقان ، يظلّلان نظارتين وعينين رأت عصفورة (وقد يكون وطواط) أن تحجب بريقهما بسلحة . أنف مفلطح ، منتفخ المنخرين ، ومن تحته شفة ضيّقة ، سمينة ، مقلوبة إلى فوق كشفة الحمار عندما يشمّ روث الحمير والبغال في الطريق . وهذه الشفة قد تكشّفت عن أسنان عريضة تأكلت من أسفل . وما من شكّ في أن صاحب الشفة والأسنان قد أرادها أن تبتسم . فجاءت ابتسامتها تكشيرة ، أو تعبيراً عن

رائحة كريهة . أمّا الذقن فعريضة ومستطيلة . وأمّا الأذن — ولم يظهر في الصورة غير واحدة — فصدَفتها صغيرة ، مسطّحة ، ومن غير شحمة .

ونحن نتأمّل الصورة ونتبادل النكات بشأنها إذا بضبّ عتيق يطلّ علينا من أعلى الصخرة ثمّ ينحدر رويداً رويداً إلى أن يصبح رأسه على الذقن من الصورة ، ورجلاه على العينين ، وذنبه على الجبهة حتّى قمّة الرأس . ويستقرّ الضبّ في ذلك الوضع ، ثمّ يأخذ يرفع رأسه حيناً ، وحيناً يخفضه ، وهو يحدجنا تارة بعينه اليمنى ، وتارة باليسرى . ففتق لأحدنا أن يسأل :

— أتعرفون ما يقول هذا الضبّ العتيق ؟

وعندما أجبناه بالنفي تنحنح كمن يستعدّ لخطبة طويلة ، ثمّ راح يترجم لنا ما يجول في خاطر الضبّ :

— يقول الضبّ يا رفاقي :

« يا أيّها العميان المتأمّلون !

هذا الذي تحتي الآن هو تحتكم كذلك . إنّه يضرع إليكم ، يتوسّل ، يستعطي ، يستميت : انتخبوني ! بالله انتخبوني ! إنّه يكاد لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام . يقفز من هنا ، إلى هناك ، إلى هنالك قفز جيراني الجنادب في هذا الوادي . ينفق من ماله ، ومن عافيته ، ومن ماء وجهه ،

ومن تلافيف دماغه ، ومن ريق فمه بغير حساب . إنّه كالغريق يفتّش عن خشبة النجاة التي هي أصواتكم . حتى إذا فاز بها وبالنيابة عنكم أصبح فوقكم وأصبحتم تحته .

إنّ زعموط شنشن يتسكّع الآن على أبوابكم . إنّه يفسد ضمائركم ، ويزرع الشقاق فيما بينكم ، ويخدّركم بالوعود المعسولة . ولكنّه يوم يغدو نائبكم يوصد بابه في وجوهكم ، ويصمّ أذنيه دون طلباتكم ، ويمضي يتبختر بينكم كأنّكم الزعانف وكأنّه ربّ التاج والصولجان . ولا عجب . فأنتم ، بملء إرادتكم ، قد أعطيتموه حقّ التصرّف بأرزاقكم وأعناقكم كيفما شاء .

إذا شاء — زجّ بكم في حرب . وإذا شاء — احتلّ دوركم وحقولكم . وإذا شاء — أطعمكم خبز الشعير وسقاكم الماء الأجاج . وإذا شاء — أرهقكم بالضرائب والمكوس . وإذا شاء — كمّ أفواهكم وقيّد خطاكم : بهذا تنطقون ، وبذلك لا تنطقون . وإلى هنا تذهبون ، وإلى هناك لا تذهبون . أليس أنّكم جعلتم من مشيئتكم مطية ذلولاً لمشيئته ؟ أليس أنّكم ربطتم أعناقكم برسن وسلّمتموه الرسن ؟

حقّاً إن أمركم لأعجب العجب أيّها الناس . فمنذ كنتم وكنّا وأنتم تقولون فينا كلّ فرية : « أجهل من ضبّ » و « أعقد من ذنَب الضبّ » . ولو أنصفتم لقلتم : أجهل من

إنسان . وأعقد من إنسان .

فها نحن معشر الضبّان — ونحن أرسخ قدَماً منكم في الأرض وأقدم عهداً — لم يخطر في بالنا يوماً من الأيّام أن نقيم من بيننا حفنةً تنوب عنّا في تدبير شؤوننا . فتملي علينا إرادتها في ما يليق — أو لا يليق — بنا أن نقول ونفعل ، وكيف نتزاوج ونربّي أولادنا ، ونبني مساكننا ، وماذا نأكل ونشرب ، وأين نذهب أو لا نذهب .

لو أن عشيرة الضبّان في هذا الوادي خطر لها أن تجتمع ههنا على بكرة أبيها وأن تختارني زعيماً مطلقاً لها أتصرّف بجميع مقدّراتها على هواي لما رضيت . أبداً . أبداً . وكيف لي أن أتحمّل مسؤوليات عشيرة بكاملها في حين أكاد أنوء بمسؤوليّتي؟ حسبي ما ألاقيه من مشقّة في كلّ يوم لأصطاد نصيبي — أو أقلّ من نصيبي — من الذباب والنحل والزلاقط . وحسبي ما أنفقه من قلبي في استمالة ضبّة وإقناعها بأنّني ضبّها المفضّل . ثمّ حسبي ما ألاقيه من عنت في تجنّب الأذى الذي يأتيني من أعدائي ، وفي مقدّمتهم صغاركم — وكباركم — أيّها الناس . فما أبصر أحدكم ضبّاً إلاّ رماه بحجر .

أمّا أنتم ، معشر الناس ، فأدهش ما يدهشني منكم تهافتكم على الزعامات وتحمّل المسؤوليات . وتهافتكم هذا يجري تحت ستار الغيرة على الشعب والمنفعة العامّة . فأنتم

تتنافسون ، وتتزاحمون ، وتتناحرون بحجّة أنّكم تريدون أن تسوسوا الشعب سياسة توفّر له الخير والأمان والرفاهية والسلام . وليس بينكم حتّى واحد تعلّم كيف يسوس نفسه فيوفّر لها الراحة والطمأنينة وصفو البال . ليس واحد تعلّم كيف يسوس بيته وأفراد عائلته . فكيف به يسوس شعباً ؟ كيف به يسوس بلاداً ؟ كيف به يسوس عالماً ؟

لا . لا . إذا راقكم أن تدجّلوا على أنفسكم فلا تدجّلوا علينا . قولوا الحق وإن آلمكم قول الحق . قولوا : أجهل من إنسان . وأعقد من إنسان . ثمّ زيدوا على ذلك : وأوقح من إنسان !

وهل أوقح ممّن يلصق صورة كهذه الصورة ، وعلى صخرة كهذه الصخرة ، وفي واد كهذا الوادي ؟

ما شأننا ، نحن معشر الضبّان ، بزعموط شنشن ؟ ما شأن غيرنا به من سكّان هذا الوادي ما بين نمل ونحل ، وزلاقط وزنابير ، ووطاويط وعصافير ، وحَور ودلب وزعرور وبلّوط وسنديان ، وأعشاب وأزهار ؟ ما شأن هذه الصخور ، وهذا النهر ، وهذه الشمس والسماء بـ « مرشح الشعب » ؟

عندنا ما نابَ ضبّ عن ضبّ يوماً ، ولن ينوب . ولا ناب وطواط عن وطواط ، ولا غراب عن غراب ،

ولا ثعلب عن ثعلب ، ولا ابن عرس عن ابن عرس .

عندنا سعيٌ مستمرّ حتّى نشبع . وإذا شبعنا فراحة مستمرّة حتّى نجوع . والرزق موفور هنا وفي كلّ مكان يقطنه الضبّان . وقطّ ما سمعت بضبّ ناب عن جاره في سعيه وراحته ، أو في شبعه وجوعه . ولا سمعتُ أن ضبّاً قتل ضبّاً لأن ذلك جائع وهذا شبعان .

عندنا حكّام ، وليس عندنا نوّاب . وحكّامنا لا يستجدون أصواتنا . ولا نحن نسمع لهم صوتاً أو نبصر صورة . وهم لا يحكمون حبّاً بالحكم وما فيه من عزّ وسلطان . بل يحكمون حبّاً بالمحكومين . ونحن بحكمهم قانعون . وحكّامنا هم حكّامكم كذلك . إلاّ أنّكم لا تفقهون . وبحكمهم لا تقنعون . وتؤثرون أن يكون حكّامكم منكم . ثمّ على اختيارهم تختلفون وتتنازعون ، ثمّ من فسادهم ، وجورهم ، واستعلائهم ، وغطرستهم تشكون وتتذمّرون .

إذا لم يكن بدّ من النيابة فلتكن ، في الأقلّ ، نيابة يشفع بها صدق النيّة ، والشعور الحيّ بالمسؤوليّة . لا نيابة ذئب عن حمَل ، وقطّ عن فأر ، ومنشار عن خشبة ، وجماعة من النمل عن بيدر من القمح . لتكن نيابة مهندس بارع ، أمين في إنشاء صرح ، متين ، جميل . لتكن نيابة السريع عن البطيء بقصد أن يعطيه من سرعته . ونيابة السليم عن السقيم

ليشفيه من سقمه . ونيابة الذي في القمّة عن الذي في السفح ليرفعه إليه . ونيابة العارف المطمئن عن الجاهل المضطرب ليعطيه من معرفته وطمأنينته .

أمّا نيابة الأعمى عن الأعمى ، والكسيح عن الكسيح ، والسارق عن السارق ، والمحتال عن المحتال ، والمنافق عن المنافق ، والفاسق عن الفاسق ، والطامع في المال والسلطان عن الطامع في المال والسلطان . أمّا تلك النيابة . . . »

في تلك اللحظة بالذات قفز إلى الصخرة حرذون آخر ، منتفخ البطن ، غليظ الذنَب ، بارز الفكّين ، جاحظ العينين ، وانحدر مهرولاً في اتجاه الحرذون الذي كان رفيقُنا يترجم لنا خطبته الشائقة . وفي مثل رفّة الجفن قفز « صاحبنا » عن الصخرة إلى الأرض وراح يعدو على غير هدى . وركض الآخر في أثره وكأنّ له عنده ثأراً . وما هي إلاّ هنيهة حتّى غاب عنّا الاثنان تاركين في نفوسنا أعمق الأسف لعدم تمكّننا من سماع الخطبة حتّى نهايتها .

ودّعنا الصخرة شاعرين أنّ عينَيْ صاحب الصورة ، وإن أطفأهما زَرْق العصافير والوطاويط ، كانتا تتوسّلان إلينا :

انتخبوا مرشّح الشعب
زعموط شنشن !

أبعـاد

ليس كالأبعاد مشحذاً للفكر والخيال . فنحن على ظهر باخرة في عرض المحيط غيرنا ضمن جدران أربعة . ونحن على متن طائرة في الجوّ غيرنا على الأرض . ونحن على قمّة جبل شاهق غيرنا وسط مدينة مكتظّة بالمساكن والمتاجر والمعامل .

كلّما اتّسع مدى البصر اتّسعت آفاق الفكر والخيال . وكلّما اتّسعت آفاق الفكر والخيال اتّسع العالم الذي نعيش فيه . فالفارق الحقيقي بين إنسان وإنسان هو الفارق في سعة العالم الذي يعيش فيه كلّ منهما بفكره وخياله . أمّا فوارق الشكل واللون والعرق والدين واللسان والمرتبة الاجتماعيّة فشأنها ضئيل جدّاً . بل هي تكاد تكون بغير شأن .

من هذا القبيل تراني أغبط إخواننا الفلكيّين على الأبعاد الأسطوريّة التي كشفتها لهم عدسات جبّارة قطرها بين المئة والمئتي بوصة . وهي أبعاد يتحدّثون عنها بأرقام يتخدر بضخامتها العقل ويترنّح الخيال ، وتبدو مقاييسنا الأرضيّة بالنسبة إليها كما تبدو ذرة الرمل بالنسبة إلى الجبل . فكيف بهم

إذا تيسّرت لهم عدسات قطرها ألف بوصة وأكثر ؟

يحدّثنا الفلكيّون عن وحدة قياسيّة يدعونها الـ «بارسك» (parsec) . وهذه الوحدة توازي في حسابهم ثلاثين مليون مليون مليون كيلومتر . أي ما يعادل المسافة بين الأرض والشمس ٢٠٠،٠٠٠ مرّة . ثمّ يقولون لك إن أقرب النجوم إلينا تبعد عن أرضنا مسافة « بارسك » أو أكثر قليلاً . وإن نحو ألف من النجوم يبعد عن الأرض مسافة ٢٠ « بارسك » .

ويحدّثنا الفلكيّون عن عوالم شمسيّة محورها يبعد عن أرضنا نحو ١٠،٠٠٠ « بارسك » ، أي أنّه عشرة آلاف مرّة أبعد من أقرب نجم إلينا . وهي مسافة يقطعها الضوء في ثلاثين ألف سنة ، ولا تقطعها مركبة فضائيّة سرعتها عشرة كيلومترات في الثانية إلاّ في ألف مليون سنة !

ونحن متى عرفنا أن وراء هذه الأبعاد الهائلة أبعاداً ، ثمّ أبعاداً ، ثمّ أبعاداً لا نستطيع بلوغها بالوسائل التي لدينا ، وجدنا أنفسنا على عتبة اللانهاية ، وأدركنا أيّ السخف هو سخفنا كلّما نظرنا إلى الأرض كما لو كانت محور الكون ، وإلى الحياة عليها كما لو كانت كلّ الحياة ، أو البداية والنهاية لكلّ حياة ، أو الشغل الشاغل لجميع الكون ، وجميع أرباب الكون .

إنّ مجرّد التفكير في الأبعاد التي يحدّثنا عنها الفلكيّون

ليجعلنا نرى الإنسان في مظهرين متناقضين : مظهر القزم المخبول . ومظهر العملاق طوله طول الأزل والأبد . فهو قزم كلّما قاس مدى طاقاته بخطواته . كأن يكبر في عين نفسه لأنّه اكتشف من الأرض قطبيها . أو لأنّه جال وصال وجندل الرجال ودوّخ الأمصار في حرب خاضها مع جيرانه . أو لأنّه جمع الكثير من المال ، وجمع إلى المال الجاه والنفوذ والسلطان . أو لأنّه أحبّ وكره ، وصنّف وألّف ، وصام وصلّى ، وعبّد واستعبد ، واكتشف واخترع . وكأن يصغر في عين نفسه كلّما جاع وتوجّع ، أو كلّما قلّ نصيبه من لحم الأرض وشحمها ، وكلّما انتهى من الولادة إلى الموت .

وهو عملاق وأيّ عملاق كلّما ارتاد بفكره وخياله الأبعاد فأطلّ منها على مشارف نفسه حيث تضيع أبعد الأبعاد ، وتتلاقى الآزال والآباد .

* * *

أعطني الكلمة البعيدة — البعيدة . وبارك الله لك في علوم الصرف والنحو ، والمعاني والبيان ، والعروض والقوافي ، وفي الفقه والفلسفة ، وفي الجدل السقيم ، العقيم ، حول الشعر الموزون والذي بغير وزن !

أعطني النغمة البعيدة — البعيدة . لا همّ لي ماذا تسمّيها : « طقطوقة » أو سمفونية . ولا من أين تأتيني بها : من الشرق

أو من الغرب . ومن وتَر عود أو كمان . أو من حنجرة طائر أو إنسان . فصوت بومة ينطلق من كبد الليل قد يحملني إلى أبعاد لا يحملني إليها صوت أشهر « بريمادونا » في أشهر دار للأوبرا !

أعطني الإيحاءة البعيدة – البعيدة . وخذ كلّ ما في الأرض من مسارح وتمثيليات وممثّلين !

أعطني الشوق البعيد – البعيد . وحرّم على رِجلي أن تطأ عتبة أيّ معبد ، وعلى أذني أن تسمع صلاة أيّ كاهن أو إمام . فشوقي إلى البعيد هو صلاتي . والبعيد هو معبدي .

أعطني اللمحة البعيدة – البعيدة ، واحبسني أينما شئت : في زنزانة أو في قعر بحر . فلن أبالي ما دمت أستشفّ من وراء تلك اللمحة أبعاداً تترامى أبعد ، فأبعد ، فأبعد – إلى حيث لا تنتهي ولا أنتهي !

أعطني أن أرى في « الآن » كلّ أوان . وفي « هنا » – هناك . وفي « هناك » – هنالك . وفي « هنالك » مقبرة المعايير والمقاييس ، والدقائق والساعات ، والبدايات والنهايات .

أعطني أبعد الأبعاد !

تجريد

الفصل خريف . وشمس الصباح قد حوّلت الجوّ بحراً من النور المؤنس ، الدافىء .

في غابة الحَوْر عند الساقية حَورة انفردت عن رفيقاتها ، وتفرّدت بعلوّها ، وجمال ساقها وأغصانها وأوراقها . وهي أروع ما تكون عندما يلوّنها الخريف بألوانه السحريّة ، وعندما تطلّ عليها الشمس في الصباح ، فتصطفق أوراقها الذهبيّة للنسمات التي تهبّ عليها مع إطلالة الشمس . إنّها إذ ذاك لحوريّة من الجنّة لا حَورة في غابة على الأرض .

عمرها لا أقلّ من نصف قرن . وليس مَن يدري كم تلقّت في حياتها من العواصف والأعاصير ، وكم تفيّأ ظلّها من حيوان وإنسان ، وكم غنّى على أفنانها وعشّش في قلبها من العصافير .

في ذلك الصباح قصدت إلى الحَورة الحورية فإذا في أعلاها رجل يقطع أوراقها بمقرض في يده ، وإذا الأرض تحتها مكسوّة بالأوراق الذهبيّة . وعندما سألت الرجل عن غايته من قطع الأوراق أجابني بكلّ بساطة :

ـ أريد أن أجرّدها من أوراقها كي أستطيع أن أراها

على حقيقتها . ــ قلت :

ــ ولكنّ كانون بات على الأبواب . وهو سيجرّدها خيراً منك ودون أقلّ عناء من قِبلك .

ــ كانون ليس فنّاناً .

ــ ألعلّك فنّان ؟

ــ نعم . فنّان .

ــ تجريديّ ؟

ــ وهل هنالك فنّ غير التجريدي ؟

وكان صباح اليوم التالي . فذهبت أتفقّد الحورة العريانة . وإذا بالرجل في أعلاها وقد راح يقطع أغصانها . ولقد أجابني على سؤالي عن غرضه من قطع الأغصان بقوله :

ــ أريد أن أجرّدها من أغصانها لأراها على حقيقتها .

ثمّ كان صباح اليوم الثالث وإذا بصاحبنا يقطع الجذوع ويستبق سؤالي فيقول :

ــ أريد أن أجرّدها من جذوعها لأبصرها على حقيقتها .

وكان اليوم الرابع وإذا بصاحبنا ، وقد فرغ من عمليّة التجريد ، يرسم شبه عمود على لوحة مستطيلة . فاعتذرت له عن تطفّلي وسألته عن العمود الذي يرسمه .

فأجابني بمنتهى البرودة وبصوت كأنّه صوت الوحي :

ــ هذه هي الحَوْرة على حقيقتها !

الهرم الكبير والسد العالي

في خاطر أيّ مهندس عبقري ارتسمت صورة الهرم الكبير قبل أن تتجسّد في الحجر الأصمّ ، الأبكم ؟

ما اسم ذلك المهندس ؟

ومتى وُلد ، وأين ؟

وكيف عاش ومات ؟

تلك أمور لا تهمّني بكثير أو قليل . ويهمّني أن الذي أبصر ذلك الهرم بعين خياله قبل أن يبصره بالعين التي في وجهه كان ينتمي إلى السلالة التي أنتمي إليها — سلالة الإنسان . فبيني وبينه وشائج اللحم والدم ، وما ينبض في اللحم والدم من فكر وعاطفة ، وإرادة وخيال ، وجوع إلى ما لا يجوع ، وعطش إلى ما ليس يعطش ، وشوق لافح إلى الانطلاق من المحدود إلى اللامحدود — من ربقة اللحم والدم إلى حرية الحياة التي لا يتحكّم فيها لحم ولا دم .

منذ آلاف السنين راح ذلك المهندس — الفيلسوف — الشاعر العظيم يروي بلسان الحجر الأبكم أروع ملحمة رواها إنسان لإنسان . إنّها ملحمة الإنسان في تدرّجه من غياهب

الجهل المطبق إلى سناء المعرفة المطلقة . ولكنّ الناس ، بأغلبيتهم الساحقة ، ما يزالون من الذين يصحّ فيهم القول : « لهم عيون ولا يبصرون . ولهم آذان ولا يسمعون » . لقد أبصروا الحجارة في الهرم الكبير ، ولم يبصروا الهرم . وسمعوا صوت الدليل يحدّثهم عن البناء الضخم ، ولم يسمعوا صوت الشاعر الذي اتّخذ من مداميك البناء أناشيد لملحمته الساحرة .

وما هو الهرم ؟

إنّه مداميك ، فوق مداميك ، فوق مداميك . لكلّ مدماك جهات أربع متساوية الطول ، وزوايا أربع . وكلّ مدماك يتقاعس قليلاً عن الذي تحته إلى أن يبلغ آخرها نقطة لا يتسع معها لمدماك فوقه . لذلك يُختم البناء الهائل بحجر واحد ، شكله شكل الهرم مصغّراً ، وهو ينتهي بنقطة في الفضاء .

هناك المداميك المغمورة بالتّراب . أولئك هم الناس ما برحوا أجنّة في ظلمات الرحم المولّدة — رحم الحياة .

وهناك المدماك الأوّل فوق التّراب . إنّهم الناس الذين قذفتهم الرحم المولّدة من الظلمة إلى النور . ولكنّهم ما خبروا بعد شيئاً من عجائب النور . إنّهم الناس البدائيون لا يحسّون من حاجات الوجود غير حاجات البطن والظهر . ولكنّهم يحملون من أثقال الهرم أقلّ ممّا يحمله الذين تحتهم .

وتمضي المداميك تتعدّد ، وتضيق ، وترتفع . وكلّما ارتفع مدماك خفّت عليه أثقال المداميك التي فوقه ، وخفّت أثقاله على المداميك التي تحته . والارتفاع يعني اتّساعاً في الأفق ، وبالتالي اتّساعاً في الخبرة والمعرفة .

ثمّ يأتي الحجر الأخير الذي يتوّج البناء كلّه . ذلك الحجر هو الإنسان الذي اكتملت خبرته فاكتملت معرفته ، فانتهى في الفضاء – في اللامحدود واللامتناهي . أي خارج الزمان والمكان ، وفوق الخير والشرّ . إنّه لا يحمل أثقالاً على الإطلاق . أمّا أثقاله فخفيفة إلى حدّ أن البناء يكاد لا يشعر بها .

ولأن الهرم الإنساني هرم متحرّك أبداً ، ففي استطاعتك أن تؤمن بما يدعونه « التقدّم » . إذ أنّ المداميك التي في أسفل تنهض أبداً بالتي فوقها . والمداميك الأعلى تشدّ التي تحتها إليها . ولكنّه تقدّم يبدو بطيئاً جدّاً للذين في أسفل . ثمّ يتسارع بالنسبة إلى اقتراب المداميك من القمّة .

وإذا كنتَ من الذين يفكّرون في ما يدعونه « الخلاص » فالخلاص ، كما أقرأه في حجارة الهرم ، لا يتمّ ، ولا يمكن أن يتمّ ، للجماعات دفعة واحدة . بل للأفراد ، وعلى فترات متباعدة في الزمان . فالذي يخيّل إليّ هو أن مداميك الهرم تمثّل حقباً طويلة في حياة الإنسانيّة . ولك أن تدعوها مدنيّات

والفرق بين حقبتين متلاصقتين في الزمان يكاد لا يشعر به الناس . ولكنّه يغدو فادحاً وواضحاً بين حقبة تتمثّل في المدماك الأوّل من الهرم وحقبة تتمثّل في المدماك الأخير .

وأنا ، إذ أفكّر في الهرم ، لا أستطيع إلاّ أن أفكّر في جاره ، ورقيبه ، وحارسه العجيب — « أبي الهول » . ويا ليت الذين أطلقوا عليه ذلك الاسم الرهيب كانوا أدقّ حسّاً ، وألطف ذوقاً ، وأبعد خيالاً . إذن لاختاروا له اسماً يوحي الأنس ، والطمأنينة ، والعزم ، والطموح ، والثقة اللامتناهية بالقدرة على بلوغ أقصى ما يطمح إليه أجرأ خيال في أبعد وثباته .

وأين الهول في أبي الهول ؟

أهو في ذلك الجسم البديع التكوين — جسم الأسد الرابض — وكلّ ما يتمثّل فيه من بأس وبطش وشراسة ورعب يلقيه في قلوب سكّان الغابات والبوادي من حيوان وإنسان ؟

ولكنّه جسم يسيطر عليه رأس يتخيّل ، ويقارن ، ويستنتج ، ويريد ، ويشفق ، ويحبّ ، ويحرّم ، ويحلّل ، ويصبو إلى الأبعد ، والأجمل ، والأبقى — إلى المطلق .

الجسم جسم وحشٍ ضارٍ تتحكّم فيه جميع الغرائز الوحشيّة . ولا قدرة له على معاندتها . فهو إذا جاع ، وتيسّرت

له الفريسة ، افترسها في الحال ، لا تردعه شفقة ، ولا يزعجه وخز ضمير . وإذا أثارت الأنثى فيه شهوة الجنس استمات في سبيل إطفائها . وإذا استفزّه عدوّ ، وتمكّن من عدوّه ، مزّقه إرباً إرباً .

كذلك هو الإنسان من أسفل رأسه وحتّى أخمصيه . إنّه وحش ضارٍ تتحكّم فيه جميع الغرائز الوحشيّة . ولكنّه متوّج برأس إنسان . ولله كم في ذلك الرأس من الكنوز ، ومن العجائب والأسرار ، إنّه القيثارة الإلهيّة التي لا تنفكّ أوتارها السحريّة توقظ في الإنسان أشواقه إلى المطلق . إنّه الدفة التي بها يسيّر المطلق حياة الإنسان ليقوده في النهاية إليه .

بفضل ذلك الرأس وما انغلق عليه من طاقات لا تُعدّ ولا تُحدّ بات في استطاعة الإنسان أن يكبح جماح الوحش في جسده . كأن يفرض على نفسه الصوم ، والجوع يضجّ في معدته ، والأكل موفور له في كلّ ساعات النهار والليل . وكأن يؤثر العفّة على إطفاء الشهوة الجنسيّة ، وإطفاؤها ميسور . وكأن يصفح عن عدوّه ، وعدوّه في قبضة يديه . أو كأن يبلغ به الشعور بوحدة الحياة حدّاً تصبح معه محبّة جميع الكائنات غذاء لروحه أين منه الخبز والماء والهواء لجسده .

وبفضل ذلك الرأس أصبح للإنسان خيال وفكر يرتاد

بهما مجاهل أعلى الأعالي وأعمق الأعماق ، وأبعد الأبعاد ، ويدقّ بهما كلّ باب مغلق في وجهه . وأصبحت له إرادة عنيدة لا ترضى بالهزيمة . فهي ما انكفأت يوماً إلى الوراء إلاّ لتستجمع قواها وتندفع من جديد إلى الأمام .

ثمّ يحدّثونك عن صمت أبي الهول الرهيب . يا لهم من طرشان !

وأيّ خطيب أبلغ من أبي الهول إذ هو يروي لك حكاية صراع الإنسان مع الحيوان ؟

وأيّ بصر أحدّ وأنفذ من بصر أبي الهول إذ هو يتطلّع إلى البعيد الأبعد — إلى ما وراء سجف الزمان والمكان ؟ وهو يتطلّع بعين الواثق من قدرته على اختراق تلك السجف .

هنالك أكثر من مثال واحد لأبي الهول . منها ما هو برأس رجل . ومنها ما هو برأس امرأة ذات ثديين بارزين . ذلك هو عنوان الحياة المرضعة ، الكريمة ، المحبّة حتى التفاني . ومنها ما هو ، بالإضافة إلى الثديين ، مسلّح بجناحين قويّين هما جناحا الخيال الذي لا يعبأ بالحدود والسدود ، ولا يلذّ له شيء مثلما يلذّ له التحليق في الأبعاد .

تلك المعاني التي أقرأها في الأهرام وفي أبي الهول هي التي تجعل لها ، في نظري ، قيمة تكاد تكفّر عن جميع المآسي والمظالم والمآثم التي ارتُكبت في تشييدها . فحسبها أنّها ،

منذ آلاف السنين ، ما برحت تشهد بعظمة الإنسان ، وتشدّ أزره ، وتشحذ عزيمتَه ، وتدعم ثقته بالنصر في كفاحه المرير مع الوحش في نفسه السفلى ، وفي صراعه العنيد مع المجهول الذي يسدّ عليه الدروب إلى نفسه العليا . حسبها أنّها ما فتئت تذكّر الإنسان بأنّه أكثر من حيوان ومن إنسان ، وأوسع من كلّ محدود ، وأبقى من كلّ متناهٍ ، وأبعد من أبعد البعيد .

لكنّ شهادة الأهرام وأبي الهول كانت ، ولا تزال ، شهادة لا يسمعها ولا يتأثّر بها إلاّ القليل القليل من الناس . ولذلك تغمر النفسَ سحابةٌ كثيفة من الحزن والألم كلّما فكّرتْ بجيوش العمّال المسخّرين ، المعذّبين ، المهانين ، المسوقين بالعصيّ وبالسياط ، الذين لولا ما قدّموه من عرق ودم وأرواح لما قامت آثار مصر المدهشة .

أولئك المساكين عاشوا أذلاّء ، محرومين . وعملوا أذلاّء محرومين . وماتوا أذلاّء محرومين . ولكنّهم تمنّوا لو كان في مستطاعهم أن يحوّلوا الحجارة بين أيديهم وعلى ظهورهم خبزاً ، أو أن يعصروا منها قطرة ماء ، أو لو أنّها تتحوّل ناراً تلتهم الذين لهم وباسمهم كانوا يعملون مكرهين . أولئك لا شأن لهم بما ترمز إليه مداميك الهرم وقمّته ، أو جسم أبي الهول ورأسه .

وعلى نقيض أولئك هم الذين ، بعد أجيال وأجيال ، قاموا اليوم يبنون سدّ أسوان . هؤلاء لم يساقوا إلى العمل بالسوط والعصا ولا بحدّ السيف . ولا هم يعملون مسخّرين . والأهم أنّهم يعرفون الغاية من العمل الذي يعملون . إنّهم يشيدون سدّاً منيعاً ، رفيعاً ، في وجه نهر يقال إنّه أطول نهر في الأرض . وهذا النهر لولاه لما كان فراعنة مصر ، ولا أهرام مصر ، ولا هياكل مصر . لا ولا كانت مصر .

لقد كان النيل العظيم ، منذ آلاف آلاف السنين ، يجري على هواه . فتفيض بركاته على ما جاوره من أرض عن جانبيه . وتنحبس عن أراض شاسعة تتحرّق على قطرة من الماء فلا تحصل عليها . ثمّ تمضي مياهه الغزيرة ، المحيية ، إلى البحر لتضيع في البحر .

هكذا كان النيل منذ آلاف آلاف السنين . أي قبل أن يبدأ تاريخ مصر وغير مصر . لقد كان يجري على هواه ولا يخطر في بال أحد أن يحيده عن مجراه . إلى أن كان النهار الذي أكره فيه ذلك النهر الجبّار على تغير مجراه . والذي أكرهه على ذلك هو جبّار أقوى منه . إنّه الإنسان .

وكيف غيّر الإنسان الجديد مجرى النهر القديم ؟

بماكينات تقوم الواحدة منها مقام مئات العمّال ، وتعمل ما تعجز عن عمله السواعد والأكتاف والظهور مهما

تكاثرت أعدادها وبلغت قوّتها . ومن وراء هذه الماكينات العجيبة الإنسان الذي هو أعجب منها بما لا يقاس . فهو خالقها . أمّا عن الموادّ الحديثة التي لم يكن للأقدمين عهد بها . فحدّث — كما يقولون — ولا حرج .

ولماذا غيّر الإنسان الجديد مجرى النهر القديم وأقام في وجهه سدّاً سيكون ، عند إتمامه ، من أروع وأضخم السدود في العالم ؟

غيّره ليحبسه في بحيرة عظيمة تحوّل الظلمات نوراً والجمود حركة ، وتسقي أرضاً مواتاً فتحيا وتجود بالخيرات . وبحياتها وخيراتها تحيا الملايين ممّن ضاقت بهم سبل العيش فباتوا عبئاً على أنفسهم وعلى بلادهم .

فما أعمق الهوّة وأوسعها بين الأهرام وسدّ أسوان !

إلاّ أنّها تبدو هوّة وما هي بالهوّة . وكيف تكون هوّة ما دام الإنسان هو العبّارة التي تصل بين طرفيها ؟

في الأهرام متعة للعين وزادٌ للروح .

وفي سدّ أسوان متعة للعين وزاد للجسد .

ومن قديم قيل : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » .

* * *

على أن أبا الهول قد أدركَه الهرَم . وكذلك الأهرام .

فسوس الزمان الذي لا يعفّ عن أيّ شيء في حوزة الزمان والمكان قد أخذ ، منذ اللحظة الأولى ، ينخر الأهرام وأبا الهول . حتى ليبدو الحجر الصلد في تلك وفي هذا كما لو كان من الإسفنج . إنّه أشبه ما يكون بوجه المجدور . لقد حفرت فيه الدقائق والعناصر حُفراً متفاوتة العمق والاتساع . وهي ماضية في عملها الحثيث ليل نهار . لا تكلّ ولا تملّ ، ولا تستريح لحظة واحدة .

وماذا بعد الهرم إلاّ الانحلال ؟

سيأتي يوم ينحلّ فيه الهرم الكبير ، وكلّ هرم ، وينحلّ أبو الهول . وتعود جميعها تراباً .

وسيأتي يوم ينحلّ فيه حتى سدّ أسوان ، وإن يكن من حديد وإسمنت وصوّان .

سينحلّ كلّ ما يصنعه الإنسان بيديه .

أمّا الإنسان المبدع ، الخلاّق ، التوّاق ، فسيبقى ينحلّ ويتجدّد ، كما ينحلّ ويتجدّد طائر الفينكس ، إلى أن يقهر التحوّل والانحلال ، وبقهرهما يقهر الزمان .

هدية الميلاد

أفاقت العجوز صباح الرابع والعشرين من كانون الأوّل — دسمبر — وقد تولاّها شعور غريب ، قويّ ، بأنّ في الجوّ ما ينذر — أو يبشّر — بانقلاب بالغ الأهميّة في حياتها . وعبثاً حاولت أن تعرف مصدر ذلك الشعور ، أو أن تفهم شيئاً عن طبيعة ذلك الانقلاب .

وأيّ انقلاب يمكن أن يحدث في حياة امرأة انزوت في بيتها من زمان ، فلا هي تزور ولا تزار ، ولا هي تتّصل بالعالم الخارجيّ إلاّ لماماً ، ولقضاء حاجاتها الضروريّة ؟

إنّها ، منذ نصف قرن تقريباً ، تحيا حياة راهبة في دير . وذلك من بعد أن بلغها أن زوجها وابنها وابنتها غرقوا في باخرة لم ينجُ من ركّابها أحد . وكانوا عائدين من سياحة بعيدة في بلاد بعيدة . والغصّة لا تزال تخنقها كلّما فكّرت في أنّها لم تظفر ولو بجثّة واحد منهم . فلو أنّهم دُفنوا في مقبرة لكان لها بعض التعزية في زيارة المقبرة من حين إلى حين ، وفي حمل الرياحين إليها ، وفي الجلوس بقربها ومناجاة الراقدين فيها . ولكنّهم ابتلعتهم اللجّة وباتوا طعاماً للأسماك .

وكان زوجها من كبار التجار ، وفي الثلاثين من عمره . وكان ابنهما في السابعة ، وابنتهما في الخامسة . ولكنّها سبقتهم في العودة بأسبوعين لتحضر حفلة زفاف شقيقتها . ثمّ كان ما كان . فترنحت من هول الضربة وكادت تفقد عقلها . وزهدت في العالم زهداً ما بعده زهد ، وأقفلت دونه باب بيتها وباب قلبها . وانكفأت على نفسها لعلّ جروحها تندمل . ولكنّها ما كانت تندمل . وعندما اقترب أوّل عيد للميلاد بعد وقوع الفاجعة أظلمت الدنيا في عينيها إذ تذكّرت الساعات الحلوة التي كانت تمضيها مع زوجها وولديها حول شجرة الميلاد . فجلست وحدها تبكي وتأبى أن تكفكف دموعها .

وبغتة خطر لها خاطر غريب . وهو أن تأتي بشجرة وتزيّنها مثلما كانت تفعل من قبل . ثمّ تضيئها ليلة الميلاد وتوهم نفسها أن زوجها وولديها يشاركونها في بهجة العيد . ومَن يدري ؟ فلعلّ للأموات عيوناً تبصرنا ولا نبصرها . ولعلّ لهم آذاناً تسمعنا وإن تكن آذاننا لا تسمعهم . وفي كلّ حال ، فلتكن هذه الشجرة رمزاً محسوساً للقرابين غير المحسوسة التي يقدّمها في كلّ ساعة قلبها المحبّ لقلوبهم المحبّة .

وراقتها الفكرة فحققتها . وبالغت في تزيين الشجرة . وعندما أضاءتها وجلست قبالتها خيّل إليها أن جبلاً تزحزح

عن صدرها ، وأن صاحب العيد كذلك جاء يؤكّد لها ولزوجها وولديها عظيم عطفه عليهم جميعاً .

من بعدها درجت المرأة على الاحتفال بشجرة الميلاد في كلّ عام . إلى أن كان اليوم الذي أحدّثك عنه ، وكان شعورها الغريب بأن انقلاباً عجيباً سيحدث في حياتها ليلة الميــلاد .

في ذلك اليوم أمضت العجوز ساعات طوالاً في ترتيب الشجرة وتزيينها حتى جاءت أروع شجرة ميلاد شهدها بيتها . ولكنّها – وأعني العجوز – أُرهقت إلى حدّ أن خارت قواها ، وأضربت رجلاها عن المشي والوقوف ، ويداها عن الحركة . فارتمت على أقرب أريكة ، وتنهّدت تنهّد المغلوبة على أمرها ، وأغمضت عينيها ، وحاولت أن تنسى ما بها .

لقد فارقها الشعور الغريب الذي نهضت معه من فراشها في الصباح ، وحلّ محلّه شعور من نوع آخر . وذلك الشعور هو أنّ ما فعلته اليوم وفي مثل هذا اليوم على مدى خمسين سنة لم يكن غير سخافة في سخافة ، لا يقدم عليها إلاّ كلّ مجنون وأرعن . فأيّ نفع للموتى في شجرة تقيمها لهم في صحن الدار ، وتزيّنها أجمل الزينة بالأنوار الملوّنة والهدايا النفيسة ؟ وأيّ خير لعجوز مثلها في حياة نهاراتها سود سواد لياليها ؟

إنّها والموت سيّان . فحتّى متى تخدع نفسها ؟ إنّها حرف مهمل في كتاب الكون العظيم . وموتها خير من حياتها . بل إنّها قد ماتت منذ لم يبقَ لها مَن تزوّدهم من قلبها وتتزوّد من قلوبهم . وقلبٌ لا يزوّد ولا يتزوّد لقلبٌ يشبه الجيفة وإن هو تابع النبض . وصاحب العيد يبدو وكأنّه غافل تماماً عن وجودها . فلماذا تحتفل بعيده ؟

كاد الليل ينتصف والعجوز لا يأتيها النوم ، ولا تتحرّك يداها لإنارة الشجرة التي تعبت في تزيينها . وفيما هي تصارع أفكارها المظلمة إذا بجرس الباب يدقّ . وإذا الذي دقّه ولد صغير ، لطيف الملامح ، حافي القدمين ، رثّ الثياب ، ومحمرّ الأنف والوجنتين من شدّة البرد . وعندما سألته العجوز عن حاجته أجابها بصوت متلعثم وعينين تملأهما الدهشة :

— إنّي . . . أفتّش عن . . . بابا نويل .

— ومن قال لك إنّه عندي ؟

— الحارس . . . حارس الليل . قال لي إنّه رآه يدخل هذا البيت ، ولم يره يخرج منه .

ويبدو أنّه كان في صوت الولد ومنظره ما أثار اهتمام العجوز . فأخذته بيدها وقادته إلى الداخل وراحت تتأمّله . وقد تبدّلت ملامحها ، وبان ما يشبه البريق في عينيها الذاويتين . ثمّ سألته بمنتهى الرقّة والحنو :

– وماذا تريد من بابا نويل ؟

– أريد أن يزورنا . لقد زار كلّ البيوت إلاّ بيتنا . وأنا وأختي ننتظره كلّ الليل . . . كلّ الليل .

– وأين أختك ؟

– في البيت .

– وكم عمرك يا ابني ؟

– سبع سنوات .

– وعمر أختك ؟

– خمس .

– ومَن في البيت غيرك وغيرها ؟

– أبي . وهو مريض .

– وما مرضه ؟

– السعال . إنّه يسعل في النهار والليل .

– وماذا كان يعمل قبل أن يمرض ؟

– كان يعمل في منجم فحم .

– وأمّك ؟

– أمّي ماتت .

– من زمان ؟

– ماتت قبل عيد الميلاد الماضي بيومين . وفي العيد الماضي كذلك لم يزرنا بابا نويل . أذكر أنّه زارنا مرّة

واحدة فقط .

ــ وماذا حمل إليك في تلك المرّة ؟

ــ قرناً من الموز ، وحفنة من الملبس ، وصفّارة صغيرة .

ــ وماذا تريد أن يحمل إليك الليلة ؟

ــ لا شيء . . . أريد أن يأتي بدواء لأبي .

ــ هل لك يا ابني أن تقودني إلى بيتكم ؟

ــ بكلّ تأكيد . ولكنّني أحبّ أن أرى بابا نويل أوّلاً . اعملي معروفاً وقولي له إنّ هنري ينتظره .

انتفضت العجوز عندما سمعت الاسم كأن قد هزّتها رعشة من البرد . فالاسم كان عزيزاً على قلبها وأذنيها . إنّه اسم ابنها الحبيب . والغريب أن هذا الولد يشبهه إلى حدّ بعيد . فكأنّه توأمه .

وتابعت العجوز أسئلتها وقد أشرقت أساريرها وتغيّر صوتها :

ــ وأختك ما اسمها ؟

ــ لولو .

وهنا كذلك انتفضت العجوز ، ثمّ تابعت :

ــ شقراء ؟

ــ نعم . شقراء .

ـ انتظرني يا ابني قليلاً .

وغابت العجوز دقائق ، ثمّ عادت وفي مشيتها قوّة وعزم ، وفي يدها معطف صغير طرحته على كتفيَ الولد ، وحذاء سألته أن يحتذيه . وعندما أخذت بيده لتخرج وإيّاه من البيت ذكّرها ثانية ببابا نويل . فأكّدت له أنّهما سيرجعان ، وسيكون بابا نويل في انتظارهما .

لم يخطر ببال العجوز ، عندما دخلت منزل هنري ولولو ووالدهما ، أنّ في الأرض بشراً لا يزالون يعيشون في مثل تلك الأوجار الضيّقة ، المظلمة ، الرطبة ، القذرة . ومن غير أن تسمح لأيّ انزعاج أن يبدو في صوتها وعلى وجهها اقتربت من الوالد واستفسرت عن حاله ، وأعلنت له اسمها الذي لم يكن غريباً عنه . فهو اسم كان معروفاً لدى الجميع في المدينة . ومن بعد أن دسّت شيئاً تحت وسادة المريض ، طلبت إليه أن يسمح للصبيّ وأخته بالذهاب معها إلى بيتها ، وبالبقاء عندها ريثما يستردّ عافيته . أمّا هو فوعدت بأن تنقله في الصباح إلى أحسن مصحّ في البلد . وكان لها ما طلبت .

* * *

وفي البيت اهتمّت العجوز أوّلاً بتحميم الصغيرين في حمّامها الفخم . ثمّ جاءتهما بأحسن ما تبقّى لديها من ثياب

ولديها . وكانت تحتفظ بكلّ أثر من آثارهما احتفاظها بأقدس المقدّسات .

ومن بعدها جلس الثلاثة حول الشجرة المتلألئة بالأنوار ، والمثقلة بشتّى الهدايا التي تبعث الدفء والبهجة في قلوب الصغار . فكانت تلك الليلة بأفراحها فوق ما كان يرجوه الصغيران بكثير . وكانت أسعد ليلة على الإطلاق في حياة العجوز .

عندما ألقت العجوز رأسها على الوسادة قرّ رأيها على تبنّي هنري ولولو ، وشعرت كما لو أنّ ولديها قد عادا إليها .

وتذكّرت العجوز شعورها الغريب في الصباح ، وعبارتين حفظتهما من زمان ونسيت أين وقعت عليهما :

« يوم يفر الإيمان من نفسك تفر نفسك منك .

ويوم يكف قلبك عن العطاء يجف » .

جعل

دربي حجاره أكثر من ترابه . وأنا أستعين على المشي فيه بعصا من السنديان ، وبالنسمات المنعشة التي تهب علي من منعطفاته ، وبالأخيلة والأفكار والأحاسيس التي تثيرها في نفسي الصخور والأشجار عن جانبيه .

الشمس تقترب من البحر ، وعلي أن أدرك بيتي قبل أن يدركني الليل .

إلا أن جُعَلاً شاء أن يقطع علي طريقي، فيصرفني عن الشمس والبحر وعن بيتي . ولا أعني أنه كان ، في الواقع ، من قُطّاع الطرق ، وأنه تصدى لي بشيء من التهديد والوعيد . لا . لا . فالمسكين لم يكن من الحجم أكبر من حبة الفول . ولكنه أكرهني على التوقف لأرى ماذا سيكون شأنه مع كرةٍ صغيرة كان يجرها حيناً برجليه ، وحيناً يدفعها برأسه ويديه ، ويبدو كما لو كان يعاني في عمله مشقة بالغة ، في حين أن الكرة لم تكن أكبر من حبة الحمص .

لقد كان جعلاً سواده سواد الفحم . وكانت الكرة التي يجرجرها ويدحرجها بلونٍ أفتح قليلاً من لونه . والعجيب

فيها أن شكلها الكروي كان شكلاً كاملاً ما أظن أن الماكينات الحديثة تستطيع أن تنتج ما هو أدقّ منها كرويّة . ولأنّني أعرف أن للجعلان شغفاً بروث الدوابّ فقد أدركت في الحال أن الكرة كانت من الروث ، وأن الجعل كان يجري بها إلى بيته في مكان ما بالقرب من المكان الذي أدركته فيه .

والذي كنت أجهله هو المكان الذي فيه صنع الجعل تلك الكرة ، والمكان الذي كان يجرّها إليه ، والبركار العجيب الذي دوّرها به ذلك التدوير المدهش ، والوقت الذي أنفقه في تدويرها وشدّها بعضها إلى بعض ، ثمّ في دحرجتها إلى حيث أدركته . فقد كان يعمل وكأنّه في سباق مع أشعة الشمس الهاربة إلى ما وراء الأفق ، وكأنّ قدرته وصبره على العمل لا نفاد لهما .

وقفت أرقب ما يجري أمامي وقد غاب عن بالي كلّ شيء ما عدا الدويبّة السوداء وكرتها الصغيرة . لقد كان الجعل يجرّ الكرة بخفّة وسهولة حيث لا تقوم في وجهه أيّ عقبة . ولكنّه يجهد نفسه أعظم الإجهاد كلّما اعترضت سبيله حصاة كبيرة . فيترك الكرة هنيهة ثمّ يأخذ يتأمّل الحصاة وما حواليها كأنّه القائد المحنّك يرسم خطّة للهجوم . وكثيراً ما كان يقوم بحركة التفافيّة حول العقبة إذا أعياه اقتحامها مباشرة ٥

أخيراً ، وبعد جهاد طويل ، مضنٍ ، بلغ الجعل بكرته

نقطة بدت وكأنّها المأزق الذي لا مخرج منه . عن جانبيه حجارة تعلو عن الأرض نحو الفتر . وليس بينها منفذ حتّى لقشّة . وأمامه حجر أملس بحجم البيضة وفي مثل شكلها ، وقد غاب بعضه في التّراب .

وقف الجعل أمام الحجر الأملس وقفة القائد أمام حصن منيع لا مناص من قهره واحتلاله . وراح يتأمّله صعوداً ونزولاً ، ويميناً ويساراً . ثمّ لم يلبث أن شدّ رجليه على كرة الروث وراح يصعّد بها في الحجر أمامه . ولكنّه لم يبلغ نصفه حتّى أفلتت الكرة من رجليه ، وانزلقت يداه عن الحجر فعاد إلى حيث كان .

تكرّرت المحاولة مرّات عدّة . وفي كلّ مرّة كانت تمنى بالفشل . إذ ذاك غيّر الجعل خطته الحربيّة . فأخذ الكرة بيديه ثمّ راح يدفعها برأسه إلى فوق — أعلى فأعلى — وعندما ظنّ أن خطته قد نجحت أفلتت الكرة منه وتدحرجت إلى أسفل ، ثمّ انزلق هو كذلك عن الحجر ووجد نفسه بجانب الكرة التي أفلتت منه . وهذه التجربة أيضاً تكرّرت مرّات عدّة ، وبدون جدوى .

وبدا لي أن الجعل المسكين قد خارت قواه ، وتولاّه شيء من الذهول والقنوط . فحزنت لحالته وتمنّيت لو أستطيع أن أسعفه في التغلّب على محنته . لقد كان في إمكاني أن أرفعه

بيدي ، وأرفع كرته العزيزة على قلبه ، إلى ما وراء الحجر الأملس . ولكنّني خشيت ، إن أنا مسسته أو مسست كرته أن أفسد عليه عمل نهاره . فهو ، من غير شك ، سيطير قلبه هلعاً على حياته وعلى كرته حالما تلمسه وتلمسها يدي . وفي اللحظة الّتي أفلته فيها من يدي سيلوذ بالفرار ، وقلبه يتفتّت حسرة على الكنز الثمين الذي تخلّى عنه قسر إرادته ، وعلى صغاره الذين سيبيتون ليلتهم على الطوى .

وطغت عليّ موجة عارمة من الأحاسيس والصّور . ها هو هذا الجعل الصغير يدأب ليبقى ويبقى أبناء جنسه . وكلّ ما في الأرض يدأب ليبقى ويبقى أبناء جنسه . تختلف الأجناس ويختلف الدأب . أمّا الغاية فواحدة : البقاء !

إنّها الحياة تأبَى أن تكون إلاّ حياة . لذلك تسخّر أكبر ما فيها لأصغر ما فيها . فهمّ الجعل ليس همّه وحده . إنّه همّ الشمس والقمر والنجوم ، والبحر وما فيه ، والبرّ وما عليه . إنّه همّ الكون . وها هو بات همّي في هذه اللمحة المتناهية من الزمان ، وهذه البقعة الصغيرة — الصغيرة من المكان .

التفتّ نحو البحر فإذا هنالك شفق أحمر ولا شمس لقد انصرفت عن دنيانا إلى غير دنيانا . وأغلب الظنّ أن الجعل شعر بانصرافها مثلما شعرت ، وخشي ، مثلما خشيت ،

أن تدركه الظلمة وهو بعيد عن بيته . وإذا به يهجم على الكرة الصغيرة ويشدّ عليها رجليه ، ثمّ يتوجّه نحو الحجر الأملس الذي أعياه أمر تسلّقه ويثب عليه وكأنّه يقول : « الموت ولا الهزيمة ! »

وتمّت العجيبة !

فانصرفت عنه مسلّماً عليه وعلى الحياة التي أنجبته وما أهملته ، وراجياً له أن يدرك بيته قبل أن أدرك بيتي .

رفيقان

العمّ بو مرشد لا يملك من وسائل النقل والتنقّل غير رجليه وحمارة بلغت من العمر عتيّاً . إنّها ، على زعمه ، في سنتها الثانية والعشرين . وهو عمر قلّما بلغته حمارة من قبل ، وعلى الأخصّ إذا كانت وَلُوداً ، وفي رأسها نخوة . وأكبر الفضل يعود من غير شكّ إلى بو مرشد في طول عمر حمارته . فهو يعاملها كما لم يعامل إنسان حيواناً .

أمّا بو مرشد نفسه فقد بات على عتبة الثمانين . ولكنّه يتمتّع بحيويّة ليست لابن الستّين . والمعروف عنه أنّه آثر العُزوبة على الزواج ، وأنّه الرجل الوحيد في قريته الذي لم يتغرّب ، ولم يركب في حياته سيّارة ، ولم يمرض مرضاً يُلزمه بيته ، أو يقعده عن العمل في أرضه التي أصبحت ألصق به من جلده . والذي أطلق عليه كنية « بو مرشد » أطلقها لا تهكّماً ،بل تودّداً وتحبّباً ، وهو ، في الواقع ، محبوب من جميع أهل القرية — صغارها وكبارها . رجالها ونسائها .

تبعد أرض بو مرشد عن القرية بضعة كيلومترات ، وتقع في أعالي الجبل . وقد ورثها عن والده ، فحسّن فيها

كثيراً وزاد في محاصيلها زيادة تفيض عن حاجته وتمكّنه من العيش مرفوع الرأس ، مطمئن البال . وهو مضطر ، حالما يعتدل الطقس في الربيع ، أن يقسم وقته بين الضيعة والأرض في الجبل . ومن هنا حاجته إلى دابّة تحمله وتحمل غلاله .

إذا سألت بو مرشد عن حمارته فرك يديه ، وردّ اللبّادة على رأسه إلى الوراء ، والتمعت عيناه تحت حاجبيه الكثيفين ، الأشيبين ، ثمّ حكّ صدغيه ومسّد شاربيه وراح يروي لك كيف حضر بنفسه ولادة « الشقرا » في يوم من أيّام ايّار ، وفي مرجة تموج بالأخضر والأحمر والأصفر وجميع ألوان زهر الربيع ، وكيف أسعفها لتقف وتمتصّ شيئاً من حليب أمّها . ثمّ كيف خاط طرفَي أذنيها معاً مخافة أن تكبر وأذناها هابطتان إلى أسفل بدلاً من أن ترتفعا أبداً إلى فوق .

كذلك يروي لك بو مرشد ، وبالكثير من الاعتزاز ، أنّه استبشر الخير بولادة « الشقرا » لأنّها كانت تحمل على كتفيها علامة سوداء تشبه علامة الصليب ، ولأن خطمها كان أبيض كالثلج .

ولكي تعرف ما بين بو مرشد والشقرا من عظيم التعاطف والتفاهم والاعتبار المتبادل ، تعالَ نرافقهما ولو ساعة من الزمن .

نحن في أواخر نيسان . بو مرشد ينهض من فراشه مع إطلالة النور على الجبال ، ويفتح باب بيته ليستقبل النهار الجديد بالتسبيح المعتاد – « السّبح لك يا الله . يا فتّاح . يا رزّاق . يا مقسّم الأرزاق . ارزقنا وارزق عالمك الحياة » . ثمّ يغسل يديه ووجهه ، ويمضي يعدّ العدّة لنهاره : بعض الزاد من حواضر البيت يضعه في الجراب . وبعض البذار من اللوبياء والبطاطا والخيار يوزّعه بالتساوي في جَيبتَي الخُرج ، وأشياء أخرى يعرف أنّه سيحتاج إليها في عمله .

ويحمل بو مرشد الجراب والخرج إلى مصطبة أمام البيت ، ويوصد بابه ، ويضع المفتاح الكبير في مكان يصعب أن يهتدي إليه أحد . ثمّ ينحدر إلى حيث مربط الشقرا . فما إن يفتح الباب ويجدها نائمة حتّى يبادرها بالتحيّة:

– شقّورة ! صباح الخير ! نائمة وطلع الصباح من زمان ؟ يا عيب الشوم . يا عيب الشوم . فِزّي . يالله .

وتنهض الشقرا متواكلة ، متكاسلة . فيقترب منها بو مرشد ويمر بأصابعه الطويلة ، الثخينة العقد ، على أذنيها ، فعينيها ، فخطمها . ثم يمد يده إلى المعلف فلا يجد فيه إلا العيدان :

– اسم الله . اسم الله يا شقرا ! ضرسك طيّب والحمد لله . أكلت كلّ ما تركته لك في المساء من الحشيش الأخضر .

صَحتَين . صَحتين ! تقولين إنّك جوعانة ؟ لا . لا أصدّق .
وإذا صحّ وكنت جوعانة فالنهار طويل . والعشب في الجبل كثير . وستملإين بطنك الكبير . هيّا . تكاد تدركنا الشمس .

ويأتي بو مرشد بالمحسّة ويروح يحسّ الشقرا من أذنيها وحتى الحوافر . وهي ، من شدّة اغتباطها ، تميل برأسها عليه وتحكّ بأسنانها كتفيه . وينتهي بأن يضع عليها الجُلّ ، ويشدّ الحزام شدّاً تتبرّم به الشقرا بعض التبرّم . ويلحظ بو مرشد ذلك فيقول لها :

ـ لا تكبّري مصيبتك . أحسن أن نشدّ الحزام أم نتعرّض أنا وأنت للخطر ؟ وأنا وأنت ذهبت أيّامنا يا شقرا . ذهبت القوّة . ذهب الزهو . ذهب العزّ . يالله ! يومان ويمضيان .

ويفكّ بو مرشد رسن الشقرا ويقودها إلى المصطبة حيث الخرج والجراب . ومن بعد أن يحكّ بأظافره جبهتها ويعلّق على الشيب البادي فيها ، وفي الحاجبين الكثيفين ، والشعر الطويل في الأذنين ، يضع الجراب في كتفه ، والخرج على الجلّ . ثمّ يقفز قفزة رشيقة إلى ظهر الشقرا ، ويضرب كَفَلَيها بطرف الرسن ضرباً رفيقاً ، ويهزّ رجليه على بطنها وكأنّه يخشى أن تتضايق منه وتعتب عليه . ورجلا بو مرشد من الطول بحيث لم يبقَ بينهما وبين الأرض إلاّ القليل . إنّه

ـ تبارك الله ـ من العمالقة .

وتمرّ الشقرا ببعض الأعشاب الشهيّة على جانب الطريق فتتوقّف لترعاها . ولا يزجرها بو مرشد بل يعاتبها بلطف :

ـ دربنا طويل يا شقّورة . وإذا توقّفنا عند كلّ حفنة من العشب فلن ندرك أرضنا حتّى الغياب . ها أنا لم أكسر الصفرا بعد ـ لم أفطر . وليس بالصعب عليك أن تفعلي مثلي . وإذا فعلتِ فسأطعمك رغيفاً كاملاً من الخبز ـ خبز أمّ منصور على التنّور . امشي . يالله !

ويبدو لبو مرشد أن الشقرا فهمت ما قاله لها . فهي تتوقّف عن الرعي ، وترفع رأسها عن الأرض ، وتلوي عنقها صوبه كأنّها تقول له : « هات رغيفك الآن إذا كنت صادقاً » . فلا يخيّب بو مرشد فألها ، ويمدّ يده إلى الجراب ويخرج منه رغيفاً ويمضي يناول الشقرا نتفاً منه حتّى يأتي عليه كلّه .

ـ هاتي . أريني همّتك الآن . اصدقي مع بو مرشد مثلما صدق معك . يجب أن نقطع طريقنا قبل أن تطلّ الشمس من فوق الجبل . يالله يا شقرا ، يالله !

ويستدرك بو مرشد بلسان الشقرا :

ـ ما أهون أن تقول « يالله ! » يا بو مرشد . والله الذي أعطاك القوّة هو الذي سلبك إيّاها . ما كنتُ أحتاج

إلى تنخيتك يوم كانت قوائمي تسبق الريح . أنسيتَ أنّك دائماً كنت تشدّني بالرسن إلى الوراء ، وتربّت كتفيّ ، وتقول لي : « على مهلك يا شقرا ! » ؟ أنسيت كيف كانت الحصى تفرّ من تحت حوافري كأنّها العصافير المذعورة ؟ أنسيت أنّني ما كنت أطيق، إذا تكاثرت الدوابّ في الطريق، إلاّ المشي في المقدّمة ؟ وأنت ، أما كنت تؤثر المشي على الركوب ، فلا تعتلي ظهري إلاّ حيث الطريق سهل وممهّد ؟ وها أنت تركبني اليوم من أوّل الطريق حتّى آخره ، لا تبالي بالوعر منه ولا بالذي يصعّد في الجبل وكأنّه السلّم . أنسيت ؟ أنسيت ؟

ويردّ بو مرشد على الشقرا :

ــ لا . لا . يا شقورة . ما نسيت . الحق معك . شمسنا باتت على المغيب . والذي أخشاه يا شقرا هو أن أموت قبلك . ماذا يحلّ بك إذا أنا متّ قبلك ؟ هل فكّرتِ في ذلك ؟

ــ وإذا أنا متّ قبلك يا بو مرشد ، فماذا يحلّ بك ؟ هل فكّرت في ذلك ؟

ــ أتعرفين يا شقرا ماذا يدور في خاطري ؟

ــ ماذا ؟ أرجو أن يكون أمراً يُفرح قلب الشقرا .

ــ عندي إلهام أنّنا سنموت في يوم واحد . بل في ساعة واحدة .

ـ عظيم ! ونُدفن في تربة واحدة ؟

ويفترّ ثغر بو مرشد عن ابتسامة عريضة تحت شاربيه الكثيفين ويجيب بعد فترة من السكوت :

ـ يا ليت . يا ليت .

ـ ولماذا هذه الـ « يا ليت » ؟

ـ لأن الناس يصلّون على موتاهم ولا يصلّون على موتى الحمير !

ـ ولماذا لا يصلّون على الموتى من الحمير ؟

ـ لأن الحمير من غير فصيلة الناس . الصلاة للناس فقط . إنّهم أحوج إلى الرحمة من الحمير .

ـ أمر عجيب يا بو مرشد . أمّا تعاونّا وترافقنا طوال هذه السنين ؟ أما أكلتَ من تعبي ، وأكلتُ من تعبك ؟ أيتجاور جسدي وجسدك في الحياة ولا يتجاوران في الموت ؟ إذا كانت صلوات الناس تنفع الناس فلماذا لا تنفع الحمير ، والحمير شركاء الناس ورفقاؤهم في حياتهم ؟

في تلك اللحظة تتعثّر الشقرا بحجر في الطريق فتكاد تكبو ، ويكاد بو مرشد يقع عن ظهرها . فيزجرها بلطف :

ـ تطلّعي أمامك يا شقرا . تطلّعي أمامك . ليشرد فكرك أينما شاء . أمّا عينك فيجب أن تبقى على الطريق . الطريق أوّلاً ـ للحمير ولغير الحمير .

وبغتة تتوقّف الشقرا عن السير ، وتضمّ أذنيها فوق رأسها ، ثمّ تحنيهما إلى الأمام . لقد طرق سمعها زمّور سيّارة قادمة من الوراء . وكان الطريق يلتف كالأفعوان على كتف وادٍ سحيق تراكمت فيه الصخور ، وكانت الشقرا تسلك جانبه الذي من جهة الوادي . وما هي إلاّ لحظات حتّى تقبل السيارة وهي تجري بسرعة صاروخيّة . فيشدّ بو مرشد برسن الشقرا ويصيح بها :

– مكانك يا شقرا !

وتجمد الشقرا مكانها . وتمرّ السيارة فإذا بها مشحونة بأدوات الصيد والصيّادين الذين اشتدّ لغطهم وعلت قهقهاتهم مع زعيق راديو كأنّه زعيق الجنّ . ولولا قليل لدفعت سيارتهم ببو مرشد وحمارته إلى الهاوية . ويستأنف بو مرشد الحديث مع الشقرا إذ هما يستأنفان السير :

– الحمد لله يا شقرا . لم يبقَ بيننا وبين الموت إلاّ قشّة .

– العمى بعيونهم !

– لا . لا يا شقرا . لا تدعي عليهم . الزمان زمانهم . والطريق طريقهم . ونحن نعيش على فضلاتهم – على الهامش .

– فشروا !

– لنا في ذمّة الزمان يا شقرا لا أقلّ من مئة سنة . ذلك هو مجموع عمرك وعمري . والله يعلم كم لنا في ذمّة

هذا الطريق . فمن يدري كم برى من حوافرك ومن رجليّ ؟ ولكنّنا ، مع ذلك ، أصبحنا غرباء عن الزمان وعن الطريق . فالزمان اليوم للّذين يقتلون الزمان بقتلهم مخلوقاته ، وبالهرج والمرج ، وبالقيل والقال ، وبالسعايات والنكايات ، لا بزرع البطاطا واللوبياء والخيار . والطريق اليوم هو للبنزين ودواليب المطّاط ، لا لحافرك ورجلي .

ـ بو مرشد ! بو مرشد !

ـ ما بك يا شقرا ؟ هل أحزنك كلامي ؟

ـ كلامك على الرأس والعين . ولكنّ غيرك الآن يتكلّم . أما تسمع ؟

ـ بلى . سمعت .

ـ وماذا سمعت ؟

ـ سمعتُ حَجَلاً يكرّ في الوادي .

ـ وما أدراك أنّه حجل وليس حجلة ؟

ـ صوته صوت ذكَر لا صوت أنثى . إنّه ينادي أنثاه ، وحنجرته تكاد تنشق من شدّة شوقه إليها .

ـ أرجو ألاّ يسمعه الصيّادون فيقتلوه .

ـ لن يكون أوّل مَن قضى شهيد حبّه .

ـ حرام أن يموت المحبّون .

ـ وبيد المحبّين .

ـ حرام أن أموت وتموت يا بو مرشد .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنّني أحبّك . ولأنّك تحبّني . أمّا الصيّادون فلا يحبّون . ولو أحبّوا لما اختاروا أن يكونوا رُسُل موت لا رسل حياة .

ـ دعينا من الصيد والصيّادين يا شقرا . وأجهدي نفسك قليلاً في السير . فالشمس توشك أن تطل من خلف الجبل . يالله !

وتحاول الشقرا أن تلبي نداء بو مرشد . ولكن أنّى لها ذلك وليس في عضلاتها من القوّة فوق ما أبقت عليه الاثنتان والعشرون من السنين ؟ فما إن وسّعت بين خطاها حتى عاد ما وسّعته فضاق . ويبدو أن بو مرشد رضخ للأمر الواقع ، فما حاول ثانية أن يحثّ الشقرا على السرعة . واكتفى بأن شدّ الرسن قليلاً ، وردّ اللبّادة على رأسه إلى الوراء ، وسوّى سرواله الفضفاض من تحته ، ثمّ راح يلوّح برجليه الطويلتين ذات اليمين وذات اليسار فيكاد نعلاه المثقلان بالمسامير يتلاقيان تحت بطن الشقرا . وهكذا يرين عليه وعليها صمت عميق .

ويطول الصمت . ولكنّ الشقرا تقطعه بوقفة فجائيّة وكأنّها تريد أن تقول شيئاً . فيرخي بو مرشد لها الرسن ويسأل :

ـ من الأكيد أنّ صوت طائر الكوكو في أعالي الجبل قد أغصّك مثلما أغصّني . أليس كذلك يا شقرا ؟ فيه جرحة ، وفيه وحدة ، وفيه وحشة . إنّه ينادي وليس من مجيب . إنّه يندب الزمان وجميع السائرين في ركاب الزمان ـ وأنا وأنت منهم .

ولكنّ الشقرا تكتفي بأن تعطي بو مرشد أذنها اليمنى أوّلاً ، ثمّ اليسرى . ثمّ تهزّ رأسها وكأنّها تريد أن تقول : « لقد طاش سهمك » . ويحكّ بو مرشد رأسه هنيهة كمن يحاول أن يحلّ حزّورة من الحزازير .

ـ ها . ها يا شقرا . الآن عرفت معنى وقفتك . تريدين أن تقولي : « ما أصغر من عقلي إلاّ عقلك يا بو مرشد . تحثني على السرعة ولا تسأل نفسك : لماذا السرعة ؟ »

عندها هزّت الشقرا برأسها هزّة إيجاب واستحسان . أو هكذا ، في الأقلّ ، بدا لبو مرشد . فتابع كلامه :

ـ الحق معك يا شقرا . الحق معك . لماذا السرعة ؟ نركض . نجدّ . نجتهد . نخاصم . نسابق . نزرع . نحصد . نغرس . نجني . نبيع نشتري . نتزوّج . نزوّج . نبني . نهدم لننتهي حينما يجب أن ننتهي وحيثما يجب أن ننتهي . لماذا السرعة والفصول لا تسرع دقيقة ولا هي تبطىء دقيقة . وليس لنا أن نسوقها بالعصا ؟ الحق معك يا شقرا . على ستّمئة

مهلك . أو نَصِل ، أو لا نصل . وفي الحالين نصل إلى حيث يجب أن نصل . ذلك ما يقوله الكوكو في أعالي الجبل . على مهلك يا أخيّتي . على مهلك . كو — كو ! كو — كوا ! شو صاير بالدني ؟

شقرا يا شقرا ! لولاك لما كانت هذه الدنيا تساوي في عين بو مرشد قشرة بصلة . إذا تحنّن الله وأعطانا موسماً جيّداً فسأشتري لك جُلاً جديداً في آخر الصيف . وسأزيّنه بالخرَز والودَع . وسأشتري لك رسَناً جديداً ، وعقداً فاخراً لعنقك . سأردّ إليك شبابك .

— ومَن يردّ إلى بو مرشد شبابه ؟

— عندما يعود إليك شبابك يعود إلى بو مرشد شبابه .

— هيهات ! هيهات ! الثياب يا بو مرشد لا تردّ الشباب .

— ولكن ما لنا وللثياب والشباب يا شقرا ؟ ها هي الشمس تسلّم علينا . وما أحلاها !

— تسلّم علينا وحدنا ؟

— بالطبع — لا . تسلّم على كلّ الناس وكلّ شيء . على الذين يولدون الآن ، والذين يموتون . على الذين يرقصون ويغنّون ، والذين يتوجّعون وينتحبون . على الذين يصومون ويصلّون ، والذين يعربدون ويفحشون . على الذين يباركون ،

والذين يلعنون . على الجياع والشباع ، والصادقين والكاذبين ، والمؤمنين والملحدين، والعاملين والخاملين، والقاتلين والمقتولين .

إنّها تسلّم على النسر والخنفساء ، وعلى الشاة والذئب الذي يفترس الشاة ، وعلى الزنبقة والقطربة ، وعلى السروة والعوسجة ، وعلى البحر والجبل . تسلّم على كلّ ما في الأرض والسماء . ولكن قلّ من يردّ لها السلام .

أمّا أنت وأنا يا شقرا فنعرف كيف نردّ السلام بأحسن منه . أنت وأنا نبارك الشمس أبداً . نباركها في شروقها ، وفي غروبها . ونباركها حتّى عندما تصلينا بنارها ، وعندما تتحجّب عنّا بالغيوم .

تباركت الشمس يا شقرا . وتبارك عالم هي فيه . وتباركت أرضنا لأن الشمس تشرق عليها . وها نحن قد بلغناها . فلتبارك الشمس ما سنزرعه فيها !

تعبتِ يا شقرا . أعرف جيّداً أنّك تعبتِ . ولكنّ تعبك سيذهب حالما أرفع الخُرج والجلّ عن ظهرك ، فتمضين إلى حيث بقعة الرمل الناعم ، وهناك تتمرّغين وبالشمس تستحمّين ، ثمّ تنهضين لتملإي بطنك بأشهى الأعشاب ، ثمّ تقصدين النبع لتطفئي عطشك بمياهه الباردة ، ثمّ شجرة الجوز الكبيرة ، وهناك في ظلّها تقيلين » .

وينزع بو مرشد الخرج والجلّ عن ظهر الشقرا ، ثمّ

يقبّلها بين عينيها ويصرفها إلى المرعى بهذه الكلمات :

ـ سلِمَتْ لي هاتان العينان وسَلِم هذا الظهر . ما دامت لنا نعمة الشمس يا شقرا فأنا وإيّاك بألف خير . روحي يا روحِ بو مرشد . من ساعة لساعة فَرَج . ذنَبك وراكِ . ربّ السما والشمس يرعاكِ !

اكياس سود

وقعتُ في إحدى الصحف على صورة غريبة ما استطعت أن أسلخ عنها بصري إلاّ بعد جهد ، وإلاّ من بعد أن انطبعت تفاصيلها في ذاكرتي فكأنّها حُفرت بإزميل .

والصورة ما كانت تمثّل فينوس ، أو ديانا ، أو غيرهما من الإلاهات الفاتنات . وكانت تمثّل عدداً من الأعمدة الخشبيّة العالية وقد نُصّبت في ساحة من الساحات ، وتباعدت بعضها عن بعض مسافة ذراعين أو ثلاثة . وهذه الأعمدة كانت تحمل آثار ثقوب كثيرة . وإلى أسفل كلّ منها قد شُدّ بحبل طويل وغليظ ما يشبه الكيس الأسود ، المستطيل . وهذه الأكياس كان بعضها موثوقاً بكامل طوله إلى العمود ، وبعضها حتّى النصف ، بحيث كان النصف الآخر يتدلّى من فوق في شكل قوس . فكأنّه الدودة الهائلة التصقت بالنصف الأسفل من جسدها إلى جذع شجرة وأرخت النصف الآخر إلى الوراء . وبعضها كان منطرحاً على الأرض عند أسفل العمود وقد التفّت الحبال من حوله كأنّها الأفاعي .

ولولا العناوين التي فوق الصورة، والشروح التي من تحتها.

ثمّ لولا أنّني أبصرت رأساً بشريّاً يُطلّ عليّ من فوهة أحد تلك الأكياس السود لما فهمتُ الصورة ، ولا أدركت ما تنطوي عليه من فظاعة . فقد كانت تمثّل عدداً من الضبّاط في جيش دولة عريقة في المدنيّة من بعد أن أُعدموا رمياً بالرصاص . والأشكال التي بدت لي للوهلة الأولى كما لو كانت أكياساً سوداً لا أكثر ما كانت في الواقع غير أجساد بشريّة لُفّت بالسّواد ، ثم شُدت بالحبال إلى الأعمدة الخشبيّة ، ثم غدت جُثثاً هامدة من بعد أن اخترقها الرصاص ففتح فيها المهارب للدم ، وسد عليها أبواب التنفّس ، فلم تبقَ مساكن صالحة للحياة التي غادرَتْها في الحال — ولغير رجعة .

وكان ممّا زاد الصورةَ فظاعة وبشاعة في نظري أن عدسة المصور التي التقطتها التقطت إلى جانبها صورة النائب العسكري الذي أصرّ في مطالعته لدى المحكمة على إعدام أولئك الضباط . فكان له ما أراد . وما اكتفى بذلك ، بل وقف في ساحة الإعدام الرهيبة يُشرف بنفسه على تنفيذ الحكم وكأنّه في نشوة القائد الذي ربح المعركة الفاصلة في صراع الخير والشرّ . فصرع الشرّ وجحافله صرعاً لا قيام لهم بعده . ورفع فوق أشلائهم راية الخير والحقّ والعدل والحريّة عاليةً ، طاهرةً ، مطمئنة .

وإنّي ، حتى الساعة ، لتعروني قشعريرة كلّما عادت

إلى ذاكرتي صورة ذلك النائب العام وقد التهبت عيناه بشهوة الثأر ، وتقنّعت أساريره بقناع النقمة الظافرة .

ووجه آخر في تلك الصورة لا أزال حتّى الساعة أشعر بقشعريرة في جسدي ، وانقباض في قلبي ، كلّما أطبقت أجفاني واسترجعته إلى ذاكرتي . ذلك وجه واحد من أولئك الضبّاط وقد لفّوه بالسواد ، وأوثقوه بالحبل إلى العمود . ولكن الجلاّد الواقف من خلفه ما أنهى بعد مهمّته . فالوجه الصبيح سافر ، والرأس الأبيّ حاسر ، والعينان الواسعتان تتطلّعان إلى بعيد . ولو كان للحقد الكامن خلف أجفانهما أن يلتهب لالتهم في لمحة الطرف كلّ ما حواليه ومَن حواليه . وفي تطلّع تينك العينين ألف معنى ومعنى . أبرزها تصلّب في عقيدة ، وتفانٍ في الدفاع عنها، وتحدٍّ للموت في سبيلها. فكأن صاحب ذلك الوجه كان يقول للجلاّد من ورائه :

« هاتِ كلّ ما في بلادك من حبال فهي أوهى من أن تشلّ إرادتي ، وتخنق عقيدتي » . وللجنود الواقفين ببنادقهم أمامه :

« لهف قلبي عليكم ! فأنتم آلات مسيّرة . والصدر الذي ستخرقونه برصاصكم هو صدركم – لو تعلمون ! »

وللنائب العسكري :

« هذه ساعتك فاغتنمها . ولكن يا ويلك من ساعات

– بل من سنين – بل من قرون تتمخّض عنها هذه الساعة ! »

لقد خانني خيالي عندما حاولت أن أصوّر لنفسي جميع ما انغلقت عليه تلك الأكياس السود من عجائب تفوق حدّ التصوّر : فهياكل بشريّة أنفقت الطبيعة ملايين السنين في بنائها حتّى جاءت آية في الهندسة ، ومعجزة في الإبداع . وحياة انتشرت في قباب تلك الهياكل وحناياها وأعمدتها وزواياها ، ومع الحياة الحركة ، ومع الحركة أمواج هادرة من الأفكار والآمال والأحاسيس الّتي لا حصر لأنواعها وألوانها ، ولا لمنابعها ومجاريها ، ولا للكائنات الّتي اتصلت بها من قريب أو من بعيد .

وهذه العجائب كلّها عطّلتها في لمحة الطرف رصاصة ! ومن يد مَن ؟ – من يد إنسان . وبأمر من ؟ – بأمر إنسان كذلك . ولماذا ؟ – لأنّها جسرت أن يكون لها رأي في حياتها ، واتجاه في تفكيرها غير رأي السلطة واتجاهها . . .

ولقد خانني فكري عندما سألته عن السلطة – أيّ سلطة بشريّة – ما هي ؟ ومن أين هي ؟ أليس أنّها من الناس للناس ؟ فكيف بها لا تستنكف في ساعة غضب ، أو ساعة ذعر ، أو ساعة جنون من أن تنكل أفظع التنكيل بالعشرات والألوف والملايين من الذين ائتمنوها على أعناقهم وأرزاقهم ، فتحوّلهم بين لحظة ولحظة من كائنات حيّة تفكّر وتسعى

وتؤمّل إلى أكياس سود مشدودة إلى أعمدة من خشب ؟ أو إلى فزّاعات مدلاّة من أعواد المشانق ؟ أو إلى أشلاء في ساح القتال تتلمّظ بدمائها ، وتسمن بلحومها الغربان والعقبان والحيتان ، والضباع والذئاب وبنات آوى ؟

كيف تنسى السلطة أن الذين تنكل بهم مثل ذلك التنكيل كانوا في جملة الذين رفعوها على سواعدهم ، وسقوها عرق جباههم وعصارة أدمغتهم ، وأنّهم ما خلقوها إلاّ لتيسّر لهم ما تعسّر من أمر معيشتهم ، لا لتحرمهم أسباب العيش والحياة ؟

أم ترى السلطة تدّعي لنفسها العصمة والاستقرار والخلود ، وتنسى أنّها مستمَدّة من بشر ما برحوا من عيشهم في برية التيه ؟ فلا أعمالهم ، ولا أفكارهم ، ولا نياتهم على شيء من الثبات والاستقرار والدوام . فكيف لسلطة يعطيها بعضهم لبعض أن تكون على شيء من الثبات والاستقرار والدوام ؟

وهل سألت السلطة يوماً ذاتها لماذا ينقم عليها الناقمون ، ويتمرّد المتمرّدون ، ويثور الثائرون ؟ ألعلّهم ينقمون لأنّهم في عيشهم هانئون ؟ أم يتمرّدون لأنّهم إلى موارد السعادة يُقادون ؟ أم يثورون لأنّهم بكامل حرياتهم وحقوقهم يتمتّعون ؟

أم تحسب السلطة أنّها بإزهاقها أرواح الناقمين والمتمرّدين والثائرين إنّما تمكّن لعرشها ، وتمدّ في عمرها ، وتزهق في الواقع روح النقمة والتمرّد والثورة ، وتقضي على الزعازع التي تهبّ عليها من حين إلى حين ؟

ذلك لعمري هو الجهل المطبق والعمى الذي ما بعده عمى . ففي استطاعتك ، إذا صفت نيّتك واستقامت حجّتك ، أن تمحو العداوة من قلب عدوّك ما دام حيّاً . أمّا متى أرديته برصاصة فقد جعلت من العداوة التي في قلبه صلاً لا ينفك ينهش قلبك . فالقلوب تتوقّف عن النبض عند الموت . أمّا الأحقاد والضغائن التي كانت تعمر بها في الحياة فتنساب في الأرض وفي الفضاء انسياب الريح والنسيم . وتردّ الكيل كيلين للذين أثاروها في القلوب التي كانت تسكنها قبل الموت . وهذه الأحقاد والضغائن هي التي تقضي في النهاية على كلّ سلطة قامت بحدّ السيف ، وعاشت في حماية رصاصة .

فيا ليت كلّ سلطة بشريّة تدرك ذلك ، لعلّها تتورّع عن أخذ الناس بذنوب هي، في الواقع ، ذنوبها . ثمّ يا ليتها تدرك أنّها ، مهما امتدّ بها العمر ، مقضيّ عليها بالإعدام يوماً ما . فكيف يقضي بإعدام غيره مَن كان هو نفسه مقضيّاً عليه بالإعدام ؟

قرأت مرّة عن قاضٍ كان يتلو الحكم بالموت على رجل متّهم بالقتل . فما إن بلغ نهاية الحكم حتّى انفجر قلبه فخرّ على الأرض بغير حراك . فقلت : يا لها من عظة بليغة لكلّ ذي سلطان ، لو أنّ ذوي السلطان يتّعظون ! فهل أدعى إلى الشفقة من قاضٍ يلفظ الحكم بالإعدام على غيره في اللحظة التي فيها ينفّذ حكم الإعدام فيه — ولكن من قاض أعلى منه ، ومن محكمة فوق محكمته ؟ !

فمتى ترعوي هذه المدنيّة الهمجيّة عن غيّها ، فلا تمعن في أجساد الناس وأرواحهم تمزيقاً وتشويهاً كلّما ساورها قلق على سلطة من سلطاتها ؟

فالجسد البشري أقدس من أن يقام هدفاً لرصاصة . والدم البشري أزكى من أن يراق في سبيل أيّ سلطان .

بائع المكانس

كان حرّ تموز على أشدّه عندما شعرت بما يشبه الخدر في مفاصلي وفي دماغي . حتّى القلم أخذ يعرق بين أناملي . فالقيته من يدي ، وخرجت من غرفتي أبتغي نفحة من النسيم في ظلّ شجرة أمام بيتي . وكان لي ما ابتغيت . فما بخلت عليّ الشجرة بمراوحها المنعشة .

وما هي إلاّ دقائق حتّى تزحزح عن صدري كابوس تموز ، وحملتني أفكاري إلى دنيا من الأحلام والرؤى العذبة . وأنا كذلك ، إذا بوقع أقدام يدنو مني ترافقه همهمة وغمغمة . وإذا بي ألتفت فأبصر رجلاً مديد القامة ، نحيلها ، في يده عصاً معقوفة الرأس ، مقوّسة الظهر ، معقّدة البدن ، وعلى كتفه اليسرى مرسة شُدّت إلى طرفيها رزمتان من المكانس ما بين طويلة وقصيرة ، وثخينة ورقيقة ، وخشنة وناعمة . أمّا رأسه الصغير المكسو بالشعر الفاحم فكان حاسراً . وأمّا رجلاه المفلطحتان فكانتا في حذاء ذي سيور بينه وبين الإسكاف جفاء قديم .

لم يبادرني الرجل بأيّ تحيّة . ولم يبدُ منه أنّه رآني أو

اهتمّ بوجودي . ولكنّه نزع المكانس عن ظهره وصدره وألقى بها على مهل إلى الأرض . ثمّ مرّ بسبّابته على جبهته فتساقط منها العرَق قطرات كبيرة ، متلاحقة . وفعل مثل ذلك بأنفه الحادّ الأرنبة ، الضيّق المنخرين . فتبلّل التراب أمامه . ثمّ امتخط وتنحنح وتفل وجلس إلى جانبي سانداً ظهره إلى جذع الشجرة وممدداً ساقيه بطولهما . وبعد فترة من الصمت خلتها ساعة فتح الرجل فاه وقال :

ــ عرَقٌ ولا خبز . عرق ولا مَرَق . عرق ولا مَن يقول : عافاك الله . عرق . عرق . عرق . لقد أخطأ ربّنا ، له المجد .

قالها بمنتهى الجدّ وكمَن يتلو آيات بيّنات . وعاد يمسح العرق المتصبّب من جبينه . يمسحه آناً بسبّابته ، وآونة بكمّه .

وشعرت أن الرجل كان يتوقّع مني تعليقاً على كلامه . وبالأخص على قوله إن ربّنا ــ له المجد ــ قد أخطأ . ولكنّني آثرت السكوت . فأزعجه سكوتي . ولذلك ناب عني بالكلام فمضى يقول :

ــ تسألني : وأين أخطأ ربّنا ــ له المجد ؟ لقد أخطأ عندما قال لآدم : بعرق جبينك تأكل خبزك . فما قوله بالذين مثلك ــ لا يعرقون ويأكلون ؟ والذين مثلي ــ يعرقون ولا يأكلون ؟

وآلمني أن يضعني الرجل في صفوف الذين يأكلون ولا يعرقون ، وهو لا يعرف عني أكثر ممّا أعرف عنه . فأخفيت عنه امتعاضي وقلتُ مداعباً :

ـ أما كان من الأفضل لك لو كنت تبيع المراوح في مثل هذا الحرّ بدلاً من المكانس ؟

ولشدّ ما أذهلني أن ينتفض الرجل كالملسوع ، فيستوي جالساً ، ثمّ يأخذني من كتفي ويهزّني هزّاً عنيفاً ، ويصيح بأعلى صوته :

ـ المراوح ؟ المراوح ؟ ! لم يُفسد الأرض غير المروحة . ولن يصلحها غير المكنسة . لذلك صادقت المكنسة وعاديت المروحة .

قلت وقد أزعجتني الحدّة في صوته والشرارات المنطلقة من عينيه :

ـ لو كان للمكنسة أن تطهّر الأرض لباتت الأرض فردوساً من زمان . أليس أن المكنسة رافقت الإنسان منذ أوّل عهده بالأرض ؟

فأجابني وقد انكسرت الحدّة في صوته ، وانطفأ الشرار في عينيه :

ـ ما كلّ المكانس مكانس . ـ قلت :

ـ أتعني أنّ مكانسك غير المكانس التي ألِفَها الناس ؟

– أجل . إن مكانسي غير مكانس الناس .
– ألعلّها من نبات ما اكتشفه غيرك من قبل ؟
– بل هي من النباتات المألوفة من زمان .
– إذن ما ميزتها ؟
– ميزتها في أنّها تطهّر السكّان إذ هي تطهّر المساكن .
– تطهّر السكّان ؟ !
– نعم . تطهّر السكّان والمساكن معاً . وأيّ خير في مكنسة تطهّر المسكن دون ساكنيه ؟ أما قيل من زمان : السرّ في السكّان لا في المكان ؟
– إذا صحّ ما تقول يا هذا فأنت ، من غير شكّ ، أكبر مصلح ظهر في الأرض .
– وإنّه لصحيح يا هذا .
وشدّ على كلمة « هذا » كأنّه أراد بذلك أن يؤنّبني لمخاطبته كذلك . وشعرت بتأنيبه . فلطّفت لهجتي وحاولت أن أخفي الشكّ الذي بدأ يساورني في اتزانه العقلي :
– أرجو أن يكون صحيحاً يا صاحبي . ولكن . . .
فقاطعني بنزق وتهكّم :
– ولكن . . . ولكن . . . لا مجال لأيّ ولكن . اسمع ! لعلّك تحسبني بائع مكانس لا أكثر . لا تلتفت إلى كسائي وحذائي . فما أنا في كسائي وحذائي . إنّني في

مكانسي . ولمكانسي شرف ليس للألماس والياقوت . ولا للذهب والفضّة ، ولا لأيّ شيء تحتويه البيوت والمتاحف . ومكانسي ستطهّر الأرض من أرجاسها . لا . ما أنا بائع مكانس وحسب .

ورحت أتوقّع أن أسمع أشياء غريبة . ولكنّ الرجل لاذ بالصمت ، وأغمض عينيه ، وأطرق ، ثمّ راح يفرك شعره بكلتا يديه فركاً موصولاً . وظلّ كذلك فترة طويلة .

وبغتة فتح عينيه ، ووثب واقفاً على قدميه ، فبدا لي أطول بكثير ممّا رأيته ساعة قدومه . ونفر من صدغيه عرقان ثخينان ، وبرزت تحت ذقنه غدّة كغدّة الكوبرا المهتاجة . وراح يقذفني بوابل من الكلام ، وقامته الفارعة تهتزّ كأنّها الخيزرانة في الريح ، وجبينه يتفصّد بالعرق ، والزبد يتجمّع عند طرفي فمه :

– اسمع ! ما نفع المقاعد المخمليّة يجلس عليها التهتّك ؟ والأسرّة اللمّاعة ينام فيها الفسق ؟ والمرايا المجلوّة تتبرّج أمامها السخافة ؟ والجدران والسقوف الطاهرة من الغبار يعشّش فيها الغشّ والعار ؟ والأرض المفروشة بالطنافس الوثيرة يتخطّر عليها الغدر والجشع ؟ والثريّات المذهّبة تتلألأ مكراً ورياء ؟

أيّ خير في الحمّامات الفخمة يستحمّ فيها الكفر

والبغض ، والفجور والغرور ؟ وفي الأكواب البلّوريّة يشرب منها الهمّ والغمّ ؟

أيّ النظافة هي نظافة كراسي الحكم يتربّع عليها الجور ، وتحرسها الرشوة ، ويدعمها الدهاء والنفاق ؟

أيّ النظافة هي نظافة المعابد يصلّي فيها الحقد والحسد ، والذلّ والمسكنة ؟

أيّ النظافة هي نظافة المخادع الزوجيّة تأوي إليها الخيانة والشقاق والتفجّع ؟

أيّ النظافة هي نظافة الأبدان تسكنها الأوجاع والدموع والأحزان ؟

النظافة . . . النظافة . . . النظافة . . . ليت الناس يفهمون معنى النظافة ! »

وهدأت ثورة الرجل بغتة مثلما ابتدأت فارتدّ على مهل إلى مكانسه . وأمسك بالمرسة فطرحها على كتفه وراح يوازن نصفها على صدره ونصفها على ظهره . وعندما تمّ له ذلك زفر زفرة طويلة وعاد يردّد :

– عرق ولا خبز . عرق ولا مرق . عرق ولا مَن يقول : عافاك الله . عرق . عرق . عرق . . .

ثمّ راح يبتعد عني بخطى وئيدة . ومن بعد أن خطا زهاء عشرين خطوة توقّف فجأة واستدار نحوي وقال بصوت

خافت جدّاً سمعت فيه شيئاً من الانسحاق والمذلّة :

ــ أرجوك يا أفندي . لا تؤاخذني . إنّه الظّهر ، وأنا لم أستفتح بعد بقرش واحد . أفلا اشتريت ولو مكنسة واحدة من مكانسي ، حتّى وإن كنت تحسبك في غنى عنها ؟

فأجبته وقد أوجعتني الضراعة في صوته :

ــ أعطني بدل الواحدة خمساً .

ونقدته ثمن خمس مكانس ثمّ قلت :

ــ ولكنّك لم تهدني إلى السرّ في مقدرة مكانسك الخارقة على تنظيف السكّان والمساكن معاً .

فلم يجبني في الحال . بل جاءني جوابه من بعد أن كاد يغيب عن بصري : ــ اقرأ التعليمات !

وبالفعل ، وجدت ما يشبه الحجاب مربوطاً بكلّ من المكانس الخمس التي اشتريتها . وفضضت واحداً من تلك الحجب وإذا بي أقرأ فيه ما يلي :

« باسم الواحد القهّار .
قُلْ لأهل الدّارْ
أنتم وداركم للنّار
ما لم تكنسوا قلوبكم وأفكاركم من الأكدار
قبل أن تكنسوا داركم من الأقذار .
آمين » .

شعرة

لو كان للمسبحة التي في يده أسنان لقضمت أصابعه من زمان . ولو كان لكلّ حبّة من حبّاتها لسان لأغرقته بالشتائم واللّعنات . فهو لا يدعها تستريح منذ أن ينهض من فراشه مع الفجر وحتّى يعود إليه قبيل نصف الليل . إلاّ في الساعات التي ينصرف فيها لغسل وجهه ، وحلق ذقنه ، ولبس ثيابه ونزعها ، وتناول طعامه ثلاث مرّات في النهار . أمّا شرب القهوة ، وتدخين اللفائف ، ولعب النرد فما كانت تصرفه عن مسبحته .

لقد كان في الجيش مثال النشاط والحيويّة والطموح . فقد تمكّن بجدّه واجتهاده أن يرتقي من جندي شبه أمّي إلى ضابط برتبة مقدّم ، وأن يتقن اللغة إلى حد أن بات ينظم الشعر ، وأن يتولّى رئاسة تحرير المجلّة التي كانت تنطق باسم القوى المسلّحة في البلاد . ولكنّه ما إن أُحيل على التقاعد قبل أعوام حتّى فقد كلّ رغبة في العمل ، وراح ، بينه وبين نفسه ، يعلّل ذلك تعليلاً لا يخلو من المنطق ، ويرضيه كلّ الرضى :

« التقاعد يجب أن يعني التقاعد – أي الانقطاع عن كلّ عمل يتحكّم فيك ولا تتحكّم فيه . من حقّ رجل مثلي خدم في الجنديّة ثلاثين عاماً أن ينام ويقوم ساعة يشاء ، وأن يذهب أينما شاء ، وأن يأكل ويشرب ما يريد ، وساعة يريد . كفاني تقيّداً بالأوامر والساعات . وآن لي أن أكون ربّ نفسي ووقتي . ثمّ إن للخمس والستّين حقوقاً ليست للخمس والعشرين . وأنا لا وَلَد ولا تَلَد . وراتبي التقاعدي يكفيني وزوجتي مؤونة الحاجة . فلماذا العمل ؟ لماذا اللجاجة ؟ »

وفي الواقع ، عاش الرجل الأشهر الأولى بعد تسريحه من الجيش وكأنّه في نشوة . لقد أحسّ لأوّل مرّة في حياته أنّه سيّد نفسه ، وأن الهمّ لم يكن يقاسمه فراشه ، ويجلس وإيّاه إلى المائدة ، ويرافقه في ذهابه وإيابه .

إلاّ أنّ تلك النشوة أخذت تفتر وتتبخّر يوماً بعد يوم إلى أن انقلبت ضجراً ممضّاً ، مرهقاً ، وإلى أن بات ذلك الضجر عدوّ الرجل الأكبر والألدّ . فهو لا ينفكّ يفكّر في استنباط أسلحة جديدة لمحاربته وقهره . فكانت مسبحة الكهرمان أولى تلك الأسلحة . وكانت السيكارة ثانيتها .

ولكنّ الحظ شاء للمقدّم المتقاعد أن تتحالف زوجته وعدوّه ضدّه . فقد راحت الزوجة من حين إلى حين تؤنبه على استسلامه للخمول والكسل ، وتعيّره بجيرانه الأكبر منه

سنّـاً ، والأوفر دخلاً . فهؤلاء لا يستنكفون من العمل المنتج في حقولهم وكرومهم وجنائنهم . والعمل شرف وعافية للنفس والبدن . أمّا التنبلة فمذلّة وسوس ينخر النفس والبدن معاً . وهذا التحالف بين الزوجة والضجر ما كان منه إلاّ أن زاد في إصرار المقدّم على التمسّك بالنهج الذي اختاره لنفسه . وفي تفتيشه عن أسلحة جديدة تعينه في حربه الضروس مع خصميه العنيدين .

من بعد تجارب كثيرة تبيّن للمقدم أن أنجع سلاح ضد زوجته هو الصمت . وضدّ الضجر هو قتل السنة بقتل الشهور . وقتل الشهور بقتل الأيّام . وقتل الأيّام بقتل الساعات . وقتل الساعات بقتل الدقائق . وقتل الدقائق بقتل الثواني . فالوقت إذا نازَلْته مجزّأً قتلتَه . وإذا نازَلته موحّداً قتلك .

لذلك اقتنى المسبحة ليستعين بتعداد حبّاتها وبطقطقتها على قتل الدقائق والساعات . مثلما اقتنى روزنامة فيها ٣٦٥ ورقة ، تحمل كلّ منها على وجهها رقم السنة واسم الشهر واليوم وتاريخه ، وتحمل على قفاها بعض الحِكَم والفكاهات مع أسماء المأكولات المستحبّة لذلك اليوم . وباتت لذّته الكبرى في كفاحه مع الوقت أن يختم يومه بانتزاع ورقة من تلك الروزنامة عندما يأوي إلى فراشه ، فيتفكّه بما على قفاها ؛ ثمّ يمزّقها نتفاً نتفاً ويرمي بها من الشبّاك وهو يتمتم باعتزاز :

« قتلتك . قتلتك . اذهب إلى غير رجعة . وغداً أقتل خلَفك كما قتلتك ! » أمّا نهاية الشهر فكانت عنده شبه عيد . وأمّا نهاية السنة فكانت وليمة .

من أبرع الحيَل التي استنبطها المقدّم لقتل الوقت التلهّي بالأعداد . فقد كان يعدّ أنباضه مرّات في النهار . ويعد الذين عرفهم وماتوا . والذين عرفهم وما يزالون قيد الحياة . ثمّ يعدّ المتزوّجين وغير المتزوّجين ، والذين هاجروا ولم يعودوا . والذين هاجروا وعادوا . والبيوت التي كانت عماراً فباتت خراباً ، والتي كانت خراباً فباتت عماراً .

إذا سار في الطريق عدّ خطواته ذهاباً وإياباً . وإذا توقّف ليستريح في ظلّ شجرة اقتطع غصناً من أغصانها وراح يعدّ أوراقه . وإذا سمع ديكاً يصيح أحصى عدد صيحاته . وإذا رأى ذبابة على حائط عدّ المرّات التي تطير فيها وتحطّ ، والمرّات التي فيها تمسح عينيها وجناحيها بيديها . وإذا جلس في النهار أمام بيته المطلّ على الطريق العام راح يعدّ السائرين فيه من بشر وبهائم وسيّارات . وإذا جافاه النوم في الليل انشغل بعدّ النجوم التي تطلّ عليه من شبّاكه حتّى يوافيه النعاس .

على أن المقدّم كان يفتك أفظع الفتك بالوقت كلّما نزل إلى السوق — لحاجة أو لغير حاجة . فقد كان يتنقّل

من دكّان إلى دكّان ، ومن مقهى إلى مقهى ، يلعب النرد ، ويتسقّط الأخبار ، ويبدي رأيه في آخر التطوّرات السياسيّة من خارجيّة وداخليّة . ويروي النوادر عن حياته في الجيش للذين يلقى منهم أذناً صاغية . فلا تنتهي جولته إلاّ إذا حان وقت الغداء — أو العشاء — فبات مكرهاً على العودة إلى البيت .

وكان يوم زاره فيه أحد معارفه من موظفي الدولة وأخبره أنّه ، هو كذلك ، أحيل على التقاعد . وأنّه سيستأجر بيتاً بالقرب منه . فالعيش في القرية للمتقاعدين أفضل بكثير من العيش في المدينة ، وأقلّ كلفة . فأشرقت أسارير المقدّم واستبشر خيراً . فها هو الحظّ يرسل إليه حليفاً قويّاً في حربه مع الوقت . إنّه لاعب نرد من الطراز الأوّل ، ومحدّث من أفكه المحدّثين .

— يا ألف أهلاً وسهلاً ، يا ألف أهلاً وسهلاً يا بو سليم .

— بك التأهيل يا صديقي . أتعرف ماذا يجول في خاطري؟

— أنّنا سنلعب النرد حتّى يبرى الزهر بين أيدينا . أليس كذلك ؟

— لا . لا يا صديقي . النرد لم يوجد إلاّ لقتل الوقت . وقتل الوقت حرام . بل هو جريمة . الوقت يا صاحبي من ذهب . وأنا قد تركت النرد من زمان .

جاء هذا الكلام صدمة عنيفة . وغير منتظرة . للمقدّم فزمّ شفتيه ، وقطّب حاجبيه ، وجرض بريقه ، وسكت .

ـ لم تسألني يا صاحبي عن الذي يجول في خاطري .

ـ لا بدّ أنّه شيء عظيم يا بو سليم .

ـ عظيم . عظيم جدّاً : تربية الدواجن .

ـ الدجاج ؟ !

ـ نعم . الدجاج . عمل هيّن . والربح مكفول . تربح من بيضه ، ومن لحمه ، وحتّى من برازه . إنّه السماد الذي لا مثيل له . إذا شئت أن تكون شريكي فمرحباً بك . سنقتل الوقت بالعمل بدلاً من أن يقتلنا الوقت بالضجر .

ـ شكراً يا بو سليم . بعد أن كنتُ قائد رجال لن أكون قائد دجاج . ولن أتلوّث بوسخ الدجاج . أمّا الوقت فقتله حلال . وأمّا الحرام فهو العمل حيث لا حاجة إلى العمل . وأنا ، من كرم الباري ، في غنى عن العمل . راتبي يكفيني .

ـ ليست المسألة مسألة راتب يا صاحبي . إنّها قضيّة قتل الوقت . فالوقت إن لم تقتله قتلك . وخير وسيلة لقتل الوقت هي العمل ـ أيّ عمل . والأفضل أن يكون عملاً مثمراً . والعمل المثمر هو الذي يدرّ عليك المال . ففي المال وحده المنعة والاستقلال . وهل يضيرك لو بات دخلك السنويّ ضعفَي ما هو ؟

ـ كلامك من فضّة وذهب يا بو سليم . ولكنّني عملت ما فيه الكفاية . وآن لي أن أستريح .

ـ صحيح . صحيح . من حقّ العامل أن يستريح . والراحة بعد العمل نعمة من نِعَم الحياة . ولعلّها أكبرها . على أن تكون الراحة راحة . أصدقني الخبر يا صاحبي . هل أنت في نعمة ؟ هل أنت حقّاً مرتاح ؟

عندها تجهّم وجه المقدّم ، وجمدت المسبحة في يده ؛ فما يُسمع لحبّاتها صوت . وبعد سكوت حكّ رأسه وقال :

ـ تريد الحقيقة يا أخي بو سليم ؟

ـ ولا شيء إلاّ الحقيقة .

ـ لا . لستُ مرتاحاً .

ـ وماذا يضنيك ؟

ـ الضجر . منذ تركت الخدمة في الجيش وأنا في حرب مع الضجر . أحاربه بشتّى الوسائل . أعدّ الثواني والدقائق . أعدّ الأحياء والأموات . أعدّ نجوم السماء ونبات الأرض . أبني أبراجاً في الهواء . ويبقى الضجر يشدّ على خناقي حتّى ليكاد يزهق أنفاسي .

ـ الضجر يا صاحبي داء قتّال . ولا دواء له إلاّ العمل . لذلك أفكّر في تربية الدواجن .

ـ والعمل الذي يتحكّم فيك يا بو سليم فيبريك داء

قتّال . وأيّ العمل لا يتحكّم في العامل ؟ حتّى العمل الذي نحبّه يبرينا ويمتصّ دماءنا .

– ولكنّنا إن لم نعمل متنا جوعاً . من العمل خبز الحياة .

– وفي العمل مِبرد الحياة . كلّ أعمالنا ضرب من لَحْسِ المبرد . يبرى اللسان ويبقى المبرد . نفنى وتفنى أعمالنا ولا يفنى الوقت .

– حيّرتني والله يا صاحبي . لا تريد أن تعمل ، ولا تريد أن تضجر ، ولا تريد أن تجوع ، ولا تريد أن تموت . والذي لا يعمل يضجر ويجوع . والذي يجوع يموت . فماذا الذي تريد ؟

– حيّرتُ نفسي قبل أن حيّرتُك يا أخي بو سليم . إنّني أعرف ما لست أريد . ولكنّني لا أعرف ما أريد . لست أريد أن ألحس المبرد – أن أعمل لأقتل الوقت فإذا بي أمضي ويبقى الوقت . ولعلّني أريد أن أعكس الوضع فأكون المبرد ، ويكون الوقت اللسان الذي يلحسني . أمّا كيف يكون لي ذلك فلست أدري . بيني وبين الجنون شعرة .

– كلّ شيء ولا الجنون يا شيخ .

– وبإمكانك أن تقطع تلك الشعرة أو أن تبقي عليها .

– وكيف ؟

– آ ! ههنا السرّ . أتعرف ماذا يدور في خاطري ؟

– قل .

– لقد اشتقت إلى ألعابك بالنرد . ما قولك ؟

– إذا كان في النرد ما يُبقي على الشعرة التي بينك وبين الجنون فمرحباً بك . سألعب إكراماً لعينيك .

وفي الحال ، وبخفّة السنور ، قفز المقدّم إلى طاولة النرد وركّزها بينه وبين ضيفه ، ومن بعد أن ناوله حبّة من الزهر وأخذ الأخرى ، مسح ذقنه بكفّه وتلمّظ ثمّ تنحنح وقال ووجهه طافح بالغبطة :

– حطّ بالخرج يا شيخ . الدنيا كلّها « شيش – بيش » – « إكّي – بيرْ » . كلّها لَحْس مبارد . الكبار والصغار . الأغنياء والفقراء . العلماء والجهلاء . الفلاسفة والشعراء . أفلاطون وشكسبير – « شيشْ – بيشْ » و « إكّي – بيرْ » ! كلّها لحس مبارد .

– المهم أن لا تنقطع الشعرة .

– والأهمّ أن نصبح المبرد ، ويصبح الوقت القطّ الذي يلحس المبرد .

– وما أدراك أن الأمر ليس كذلك ؟

– آه لو أدري ! هات ! شيش – بيش !

– إيكّي – بيرْ !

صورة (إلى مي)

استدعتها رئيسة المدرسة إلى مكتبها ، فارتجف قلبها ، وامتقع وجهها ، واضطربت أنفاسها ، وأحسّت ارتخاء في ركبتيها وتفككاً في سائر مفاصلها . فهي تتسلّق الدرج إلى الدور الثاني من البناية ويبدو لها أنّها لن تبلغ نهايته .

دخلت على الرئيسة فوجدتها مكبّة على بعض أوراق أمامها . وتلعثمت في إلقاء التحيّة . ولكن الرئيسة أنجدتها عندما رفعت رأسها الأشيب عن الأوراق أمامها ، وانتزعت النظارتين عن عينيها ، وخاطبتها بمنتهى اللطف :

ـ أغلقي الباب يا سعاد ، وتعالي اجلسي هنا . هنا بالقرب مني .

وللحال عاد قلب سعاد ينبض نبضه السويّ ، وزال التوتّر في أعصابها . لقد كان في وجه الرئيسة وفي صوتها وحركاتها ونظراتها ما يبعث الاطمئنان في نفسها المضطربة . فاطمأنّت . وجلست .

إنّها تعرف السبب الذي من أجله استدعتها الرئيسة ـ أو هكذا كان يخيّل إليها . وتعرف عظيم حبّ الرئيسة لها ،

وعظيم حبّها للرئيسة . فهذه المرأة كانت في نظرها عنوان المرأة الفاضلة . مسحة قويّة من الجمال برغم الخمسين ورغم الشيب الباكر . هدوء ، واتّزان ، ولطف ، وعدالة ، وبشاشة دائمة . والذي لم تكن تعرفه سعاد هو كيف ستبدأ الرئيسة حديثها معها .

وران صمت طويل كانت الرئيسة في خلاله تتأمّل وجه سعاد ولا ترفع بصرها عنه ، وكانت سعاد مطرقة لا تميل بصرها عن أصابعها التي كانت لا تنفكّ تلعب بزرّ من أزرار فستانها الأزرق . أخيراً افتتحت الرئيسة الحديث :

ـ تعرفين ، من غير شكّ ، لماذا استدعيتك يا بنيّتي .

لقد كان في كلمة « يا بنيّتي » وفي صوت الرئيسة من العذوبة والعطف ما جعل وجه سعاد يطفح بالدم ، تتخلّله هنا وهناك بقع بيضاء ، صغيرة . وأحسّت الفتاة أنّ قلبها قد قفز بغتة إلى وجهها ، وأنّه بات كتاباً مفتوحاً أمام رئيستها . فارتعشت وحاولت قصارى جهدها أن تخفي ما بها . ولذلك لم تنطق بكلمة .

وعادت الرئيسة فاستأنفت الكلام :

ـ إنّي في حيرة كبيرة من أمرك يا سعاد . أكاد لا أصدّق أنّك رسبت في امتحانات نصف السنة . سعاد التي كانت فخر مدرستنا وزينة بناتنا . سعاد التي اكتمل لها

من الصفات ما ندر أن اكتمل لأيّ فتاة : الحسن البارع ، والذوق الرفيع ، والعقل النيّر ، والدعة مع النسب الكريم والسعة في العيش . سعاد التي كانت الأولى أبداً في صفـّها ــ سعاد هذه ترسب في امتحاناتها ! لا أصدّق . لا . لا أصدّق . لا بدّ أن يكون في الأمر سرّ .

كانت سعاد تسمع بأكثر من أذنيها ــ بكلّ خليّة وكلّ قطرة دم في جسدها . وبدا لها أن سنواتها الخمس عشرة باتت خمسة عشر جبلاً تضغط عليها . فتمنّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعها ، أو لو يشتدّ الضغط قليلاً بعد على حلقومها فيحجب الهواء عن رئتيها . وحاولت أن تقول شيئاً فلم تستطع . وأحسّت أنّها ساعة ترفع بصرها إلى وجه الرئيسة ، وساعة تفتح فمها سيفيض قلبها من عينيها وستختنق الكلمات في حنجرتها . فآثرت أن تبقى معتصمة بالصمت ، وراحت أصابعها تداعب أزرار فستانها بحركات أشدّ اضطراباً من قبل . وهذا الاضطراب انعكس في وجه الرئيسة وصوتها وحركاتها :

ــ سعاد . اعتبريني أمّاً لك . اعتبريني صديقة . كوني صريحة . لا تخافي . لعلّني أحبّك مثل أمّك وأكثر . لعلّني أريد لك الخير أكثر من أيّ صديقة . أعرف أن الفتيات في مثل سنّك يتعرّضن لشتّى المفاجآت والتجارب . منها السار

ومنها المؤلم . ومنها ما يلاحقنا أذاه حتّى آخر العمر . هل بينك وبين أحدٍ من معلّميك أو معلّماتك نفور أو سوء تفاهم ؟

ـ لا .

ـ هل بينك وبين إحدى رفيقاتك خصام ؟

ـ لا .

ـ هل الجوّ في بيتكم مضطرب : نزاع . مرض . خسارة ماليّة أو نحو ذلك ؟

ـ لا .

ـ إذن ماذا يضنيك يا بنيّتي ؟ ماذا صرفك عن الدرس ؟

سكوت .

ـ اسمعي يا سعاد . اسمعي يا حبيبتي . لا رغبة عندي على الإطلاق في أن ألعب دور رجل التحرّي ، أو المستنطق ، أو القاضي ، أو الديّان . كلّ ما في الأمر أنّي أحبّك وأغار عليك كثيراً ، كثيراً ، كثيراً يا سعاد . ولأنّني أحبّك أحبّ أن أدرأ عنك كلّ سوء . ليس يقلقني رسوبك في الامتحانات على قدر ما يقلقني الذي أقرأه الآن في وجهك . أرجو أن أكون مخطئة في قراءتي . أتعرفين ماذا أقرأ في وجهك يا سعاد ؟

سكوت .

– اعذريني يا سعاد . أريد أن أكون صريحة حتى وإن جرحتك صراحتي . والذي سأقوله يجرحني قبل أن أقوله ، وقبل أن يجرحك . قولي الحقّ يا سعاد . أجيبي ولو بـ « نعم » أو « لا » . هل . . . هل . . . هل خدعك . . . هل غرّر بك أحد الشبّان ؟

وجاء الجواب بعد تنهّد عميق :

– لا .

– إذن أنتِ عاشقة من غير شكّ . هذا هو التفسير الوحيد والمعقول لسلوكك وللأشياء التي أقرأها في وجهك . وليس في العشق أيّ عيب يا بنيّتي . بل العيب أن لا نعشق . على أن يرفعنا العشق إلى فوق ، لا أن يحطّنا إلى أسفل . وعلى أن لا يصرفنا عن واجباتنا نحو أنفسنا ونحو غيرنا . أعاشقة أنت يا سعاد ؟

كان في نيّة الرئيسة أن تتابع الحديث . ولكنّها توقّفت بغتة عندما أبصرت الدموع تسحّ على وجنتي سعاد وتتساقط بغزارة على ثيابها ، ومن ثيابها على الأرض . فنهضت للحال عن كرسيّها ، وتناولت منديلها ، وراحت تكفكف به دموع الفتاة . وما اكتفت بذلك ، بل أخذت رأس سعاد بين يديها ، وضمّته إلى صدرها ، وانحنت فوقها . وطفقت تجفّف دمعها بشفتيها . وإذا بعينيها كذلك تفيضان بالدمع ،

وإذا بصوتها يخونها فلا تستطيع النطق بأكثر من « سعاد ! سعاد ! احكي يا حبيبتي . . . »

بعد فترة طويلة كان الدمع الخطيب الوحيد فيها تمكنت الفتاة من النطق فقالت والغصّة ما برحت تشدّ على حلقومها :

– لن تضحكي مني ؟

– معاذ الله يا بنيّتي .

– سأحكي كلّ شيء .

– كلّ شيء . كلّ شيء .

– وستفهمين ؟

– سأحاول . سأفهمك لأنّي أحبّك .

– منذ سنة وقعتُ في مجلّة على صورة . . .

وخنقتها العبرات فتوقّفت عن الكلام . فأنجدتها الرئيسة وهي تمسّد شعرها بيمناها وتلملم الدمع عن وجنتيها بمنديل في يسراها :

– وقعت على صورة . نعم . نعم .

– صورة شاب لم أرَ أجمل منه في حياتي .

– شابّ خارق الجمال . شيء عظيم .

– بقيت ساعات أتأمّل الصورة ولم أستطع أن أسلخ نظري عنها إلاّ من بعد أن انطبعت جميع تقاطيعها في ذهني .

– شيء مثير . تابعي ، تابعي يا سعاد .

ــ وكان بيننا حديث طويل . لا تضحكي مني .

ــ معاذ الله . معاذ الله يا بنيّتي . أتذكرين شيئاً من ذلك الحديث ؟

ــ لا أذكر الحديث ، وأذكر الشعور الذي تركه في نفسي .

ــ كان شعوراً لذيذاً بالطبع .

ــ لا يوصف . كنت أسمع الناس يتحدّثون عن السعادة . ولا أفهم ما هي السعادة . ولقد فهمتها آنذاك . قبضت عليها بيدي . الصورة لم تكن عندي صورة على ورق . أصبحت من لحم ودم . تبسم . تضحك . تنطق . تتحرّك . تتطلّع إليّ من أيّما زاوية تطلّعت إليها . لا أدري كيف أصفها لك .

ــ وصفك جميل ومؤثّر . تابعي . تابعي .

ــ لا . لا . لساني قاصر . كلماتي قاصرة . تعرفين كيف يشعر الولد الصغير إذا جاؤوه بشيء يشتهيه ولا يؤمّل الحصول عليه ؟ يطير فرحاً . يصفّق . يصيح . يرقص . يعدو في كلّ جانب . يظنّ أن الدنيا كلّها أصبحت ملك يديه وطوع بنانه . هكذا كان شعوري مع الصورة .

ــ تابعي . تابعي .

ــ دخلت الصورة قلبي ، وبؤبؤ عيني ، ومشت في

دمي . احتلّتني من رأسي وحتى أخمصيّ . فأنا غير أنا . أنا الفرح . أنا النسيم . أنا نور الشمس . أنا البهجة . لا يؤذيني أيّ شيء . ولا أعادي أيّ شيء . ولا حدّ لطموحي . ولا أنا أفعل أي شيء إكراماً لنفسي ، بل إكراماً له . كلّي له . وكلّه لي .

ـ الآن فهمت سرّ تفوّقك المدهش يا سعاد . تابعي . تابعي .

ـ اقتطعت الصورة من المجلّة وخبّأتها في خزانتي . كنت كلّما اختليت بنفسي ، أو جلست لأعدّ دروسي ، أخرج الصورة من مخبئها ، ومن بعد أن أقبّلها مرّات ومرّات ، أضمّها إلى صدري ، ثمّ أعيدها إلى مكانها وأمضي في عملي شاعرة أنّها كانت تساعدني في كلّ ما أعمل . كنت حريصة جدّاً على أن لا يباغتني أحد وأنا أتأمّلها وأحدّثها ، وأن لا يهتدي أحد إلى مخبئها .

ـ حكايتك مؤثرة جدّاً يا سعاد . وبعد ؟

ـ وبعد . . . باغتتني أمّي منذ أسبوعين والصورة في يدي ، وأنا أقبّلها وأناغيها ، وقلبي يذوب غبطة في صدري . فما كان منها إلاّ أن اختطفت الصورة من يدي بمثل لمح البرق وراحت تمزّقها نتفاً نتفاً دون أن تنظر إليها . ثمّ انهالت عليّ بوابل من التقريع : « يا قليلة الحياء . يا عاهرة . في

الخامسة عشرة تفعلين هذا. فماذا ستفعلين في الخامسة والعشرين؟ يا لخيبة آمالنا فيك ! » — ونحو ذلك . . .

وانفجرت الفتاة بالبكاء من جديد . فعادت الرئيسة تكفكف دمعها وتلاطفها :

— لا بأس يا سعاد . لا بأس . لا تختنقي على أمّك . أما قلت إن الصورة مطبوعة في ذهنك ؟

— ولكن . . . ولكن . . . الصورة غير التصوّر . لقد مزّقتني أمّي عندما مزّقت الصورة .

— ألم يكن على الصورة أيّ اسم يا سعاد ؟ ألا تذكرينه ؟

— بلى . لقد كُتبت تحتها كلمة « أپولّو » — كلمة لا أفهمها ، ولا أنا سمعتها في زماني .

— ألا تعرفين مَن هو أپولّو ؟

— لا .

— إنّه إله من آلهة اليونان والرومان .

— إله ؟ !

— نعم . إله يا سعاد . لقد عشقتِ إلهاً يا بنيّتي وأنتِ لا تدرين .

وفي الحال جفّت دموع الفتاة ، وجمدت عيناها ، ويبست يداها على ركبتيها . وبعد قليل عادت فتمتمت بشفتيها :

ـ إله ؟ ! ولكنّه كان يناغيني وأناغيه . ويحدّثني وأحدّثه . وكان يملأني سعادة . أمّا من بعد أن مزّقته أمّي ـ من بعد أن غاب عن بصري ـ فأنا فارغة . أنا صدَفة تصفر فيها الريح . أنا لا شيء .

ـ هوّني عليك يا بنيّتي . سيعود كلّ شيء كما كان .

قالت الرئيسة ذلك ومضت إلى دُرج في طاولتها ففتحته واستخرجت منه ورقة ناولتها لسعاد . وهذه ما إن وقع بصرها عليها حتّى شهقت ، وقفزت عن الأرض ، وصفقت بيديها ، وهجمت على الرئيسة فطوّقتها بذراعيها وراحت تقبّلها وتصيح بأعلى صوتها :

ـ ما أحلاك ! ما أطيبك ! ما أعجبك يا ساحرة ! من أين ؟ من أين ؟ من أين جئتِ به ؟ هذا هو . هذا هو . أتتنازلين لي عنه ؟

ـ خذيه يا حبيبتي . لقد كان لي معه مثل ما كان لك معه .

خذيه . على أن يكون لك قلبان : قلب للآلهة . وقلب للنّاس .

مدفن الهم

جاءني منذ أيّام أحد الأصدقاء وكان ، على غير عادته ، ضاحك الوجه . مشرق الأسارير . فبادرته بقولي :

– لكأنّك اليوم غيرك في ما مضى . فمن أين هذا النور في عينيك ، وهذه الإشراقة في وجهك ؟ وعهدي بك مستودع للهموم ، وبوق للتأفّف . ألعلّك دفنت همومك ؟

فأجابني والابتسامة لا تفارق وجهه :

– أجل . دفنتها .

– ومتى كان ذلك ؟

– دفنتها وأنا في طريقي إليك .

– وأين دفنتها ؟

– هناك . هناك .

وأشار صديقي إشارة مبهمة إلى الأفق البعيد حيث البحر والجبل يتلاقيان . قلت :

– أتعني البحر أم الجبل ؟

– لا هذا ولا ذاك . هناك . هناك . في الفضاء الأوسع حيث تدور أجرام لنا حول الأرض ، ويدور واحد حول الشمس .

فضحكت وقلت :

– نعم المدفن . ولكن لماذا اخترت لهمومك ذلك المدفن لا سواه ؟

– ما أنا اخترته . بل هو الذي فرض عليّ ذاته فرضاً . أتريد أن أخبرك كيف تمّت المعجزة ؟

قلت ، وقد تبيّن لي أن الرّجل في منتهى الجدّ من بعد أن كنت أحسبه مازحاً :

– إنّها لمعجزة حقّاً أن أراك ولا هموم تطلّ من عينيك . هات أخبرني كيف تمّت العجيبة .

وانبرى صاحبي يقصّ عليّ حكايته – يقصّها بلسانه وشفتيه ، وبحاجبيه وعينيه ، وبرأسه ويديه ، وبكلّ عضل من عضلاته . فلا يتوقّف لحظة إلاّ ليزداد اندفاعاً :

– تمّ كلّ شيء في مثل لمحة الطرف . نعم . نعم . في مثل لمحة الطرف . هكذا . . .

وشاء أن يمثّل لي تلك الـ « هكذا » بحركة من إبهامه والوسطى ظننّها ستحدث صوتاً ، ولكنّها لم تحدث أيّ صوت . فانزعج قليلاً وتابع :

– أجل . هكذا – في مثل رفّة الجفن . كنت في طريقي إليك وكأنّني جبل من الهمّ يمشي بين جبال من الهموم . هل اتّفق لك في حياتك أن رأيت خليّة من النحل دبّ فيها

الذعر والهياج ؟

– مرّات لا مرّة . فأنا ، كما تعلم ، أربّي النحل .

– كذلك كان رأسي وأنا في طريقي إليك – هموم تطنّ وتدندن وتتزاحم كأنّها النحل وقد اجتاحته عاصفة من الذعر والغضب .

ابني لا يطيعني في شيء . ويعيد كلّ صفّ من صفوفه مرّتين . وابنتي تريدني أن أكون لها خاتم لبّيك . وامرأتي لا تهتمّ بشيء وتتطلّب كلّ شيء . المعيشة في ارتفاع مستمر . وراتبي لا يدرك أوّله آخره في أيّ شهر من الشهور . لقد ورم رأسي حتّى ليكاد ينشقّ . لم يبقَ بيني وبين الجنون إلاّ قيد أنملة – بل قيد شعرة – بل قيد لا شيء .

كنتُ أمشي كالمخبول . وأنظر إلى الماشين حولي من الناس فيخيّل إليّ أن جميعهم مثلي ، وأن ليس بينهم واحد لم تركبه الهموم مثلما ركبتني . حتّى إذا رأيت اثنين يتحدّثان قلت إنّهما يتبادلان الهموم . وإذا سمعت إنساناً يضحك قلت له في قلبي : إنّك كذّاب ، دجّال . فأنت تتظاهر كما لو كنت بغير همّ . والذي يضحك ليس أنت . إنّه الهمّ يضحك منك كلّما ظننتك قد هربت منه .

لا . لن تهرب من الهمّ يا صاحبي . فهو أتبع لك من ظلّك . وهو الذي يضحكك لحظة ليبكيك أيّاماً . إذا نسيك

همّك هنيهة فلن ينساك همّ جارك — همّ ذويك — همّ بلدتك — همّ بلادك — همّ العالم المتربّع على فوهة بركان — همّ الموت الذي لا مفرّ منه . هموم . هموم . هموم . مشاكل بغير نهاية .

نعم . نعم . كنت أمشي جبلاً من الهمّ بين جبال من الهموم . وبغتة . . . »

وتوقّف صاحبي عند الكلمة الأخيرة ، واتّسعت عيناه ، وارتفع الدم إلى وجهه ، وانتفخت أوداجه . وطال توقّفه حتى خشيت أن يكون قد أصيب بغصّة ، أو أن تكون ذاكرته قد خانته فنسي ما كان بصدده . فقلت محاولاً أن أخفي ارتباكي ، وأن أردّه إلى ما كان فيه :

— وبغتة ؟

فانتفض وتابع :

— إي . إي . وبغتةً . وهاهنا الأعجوبة . وأخشى أن لا تصدّقها . وبغتة تذكّرت أن هناك — هناك — في الفضاء الكونيّ — أقماراً يدور بعضها حول الأرض ، ويدور واحد حول الشمس . وشعرت كأن يداً خفيّة — يد مارد — صفعتني صفعة مدوّية . فأفقت كمن كان في غيبوبة . أو قل صحوتُ من سكرةٍ ولا سكرة الموت . وسمعت صوتاً يهدر في أذني : « تلك الأقمار هي أقمارك يا أبله . أقمارك وأقمار كلّ

إنسان عرفته الأرض منذ أن كانت الأرض وكان الناس . إنّها خيالك وخيالهم ، وفكرك وفكرهم ، وإرادتك وإرادتهم وقد أفلتت من قبضة الأرض – من أقفاص الساعات والأميال ، من عبودية الدروب المطروقة – لتشقّ لك ولهم دروباً ما وطئتها بعد رِجل ولا ارتادها جناح ، ولا وقعت عليها عين ، ولا انساب في أرجائها حلم ، ولا رنّ وتر ، ولا انسكبت دمعة ، ولا أريقت قطرة من الدم . إنّها الحلم الذي حلمته وحلمه رفاقك الناس منذ آلاف آلاف السنين وقد أخذ يتحقّق . إنّها الكوّة الضيّقة تطلّون منها على العالم الأبعد والأوسع الذي هو عالمكم . ذلك العالم الذي تقيسون اليوم أبعاده بملايين الملايين من السنوات الضوئيّة ، فتضيق بكم الأرقام ، وتتخدّر الأدمغة ، ويتعطّل حتّى الخيال .

« ذلك العالم ، على سعته ، ليس بأوسع منك يا أبله . بل إنّه بالنسبة إليك لكالساقية بالنسبة إلى البحر . ولو لم تكن أوسع منه بفكرك وخيالك لما كان لك – وأنت القزم بجسدك – أن تتشوّق إلى اقتحام أبعاده ، وفكّ طلاسمه ، وتذليله لإرادتك . إنّك الأكبر . وهو الأصغر . وإنّك الباقي . وهو إلى الزوال .

«لقد تبدو لك هذه الأقمار معجزة من المعجزات . ولكنّها ستغدو بعد حين ألاعيب صبيانيّة . إنّك الآن في

أوّل الطريق . فاذكر ما قاله قائل منكم : كلّ مَن سار على الدرب وصل . أجل . ستصل أنت . سيصل جارك . سيصل جميع الناس على دفعات . وستعلم ويعلم الناس أن ما من سرّ في الكون لا يستطيع الإنسان هتكه — يوماً ما . وأنّ ما من معجزة إلاّ الإنسان . إنّه المعجزة الكبرى .

« أفلا خجلت من نفسك — وأنت من أنت — تمشي جبلاً من الهمّ بين جبال من الهموم ؟ »

وانقطع الصوت . ولبثت هنيهة مكاني وأنا كالمصعوق . ثمّ أخذت أتلمّس نفسي لأتأكّد من أنّني أنا — أنا . لا . لم يتغيّر في ظاهري شيء . وقد تغيّر في باطني كلّ شيء . فكأنّني أنا وغير أنا . في رأسي صفاء ولا صفاء عين الطفل . وفي قلبي طمأنينة غريبة . وفي جسمي خفّة النسيم ورشاقته . حتى إنّني بلغت بيتك وكأنّني محمول على بساط من الريح . وتلك هي الأعجوبة .

وتوقّف صاحبي عن الكلام ليأخذ رأسه بين يديه ويفركه فركاً عنيفاً . فقلت :

— حقّاً إنّها لأعجوبة . ولكن كم تراها تدوم ؟

فأجاب وقد بدا شيء من القلق في عينيه :

— إنّها تهرب مني الآن . إنّها تتلاشى . . . لقد تذكّرت في هذه الدقيقة أنّ شركة الكهرباء أنذرتني بقطع

التيّار غداً إذا أنا لم أدفع اليوم المبلغ المترتّب لها . اعذرني يا صاحبي . إنّي مضطرّ أن أذهب . اعذرني وإلى اللقاء .

فقلت مداعباً :

– إلى اللقاء يا صاحبي – وفي العالم الأوسع إن شاء الله !

الغزال الشارد

مسز تشابمن سيدة أميركية في نحو الخمسين ، ترمّلت بعد زواجها الباكر ببضعة شهور ، وورثت عن زوجها ثروة طائلة . ولأنّها ، منذ الصغر ، ألهبت خيالها حكايات الشرق وأساطيره ؛ ثمّ لأنّها فُطرت على حبّ البطولات والمغامرات ، فقد هجرت بلادها بعد وفاة زوجها بقليل ، واختارت أن تسكن سوريا .

وهناك ، على مشارف البادية ، بَنَت مسز تشابمن لنفسها قصراً جاء في هندسته ، وفي أثاثه مزيجاً من قصور الأمويّين والعبّاسيّين ، وحفرت الآبار ، وغرست الأزهار والأشجار ، وملأت الإسطبلات بأكرم الجياد العربيّة ، وباتت ولها من الخدم والحشم جيش صغير . ولم تلبث أن أتقنت العربيّة ، ولغة البدو بالأخص ، فباتت تتكلّمها كإحدى بنات البادية .

تردّدت مسز تشابمن في أن تُدخل ، أوْ لا تدخل إلى قصرها مستنبطات المدنيّة الحديثة كالتدفئة المركزيّة ، والسيارات والكهرباء وما يتبعها من تلفون وراديو وتلفزيون وثلاّجات

وغسّالات وحمّامات وأجهزة لتكييف الهواء وما أشبه . ولكنّها ، في النهاية ، أذعنت لمتطلبات العصر ورضيت أن تعيش عيشة مخضرمة ما بين القديم القديم والجديد الجديد .

لكنّ أمراً واحداً لم تتساهل فيه مسز تشابمن . وهو أمر الصيد . فقد خلا قصرها تماماً من البارود والرصاص وجميع أدوات الصيد الحديثة . وحلّت محلّها السيوف والرماح والقسيّ والسهام . وكانت لا تملّ من التحدّث في ذلك إلى زوّارها الذين لم يكن يفرغ القصر منهم إلاّ نادراً . لقد كانت تقول :

« قبل زمان البارود والرصاص كان هنالك ما يشبه التكافؤ بين الإنسان وبين الطير والحيوان في ما يتعلّق بوسائل الدفاع عن النفس . فللطير الجناح والمنسر والمخلب . وللحيوان القرن والظفر والناب ، أو شدّة البأس ، أو خفّة الرجل ، أو غرائز عجيبة تساعده على الهرب أو التخفّي . وللإنسان العقل يدعم قواه البدنيّة بما يستنبطه من حيَل .

« إنّها البطولة أن ينازل بِشر بن عوانة وحده الأسد في البريّة ، وليس في يده غير سيفه . فيهوي على الأسد بالسيف ويقدّ عشراً من ضلوعه . وليس من البطولة أو الرجولة في شيء أن تنازل أسداً ، أو نمراً ، أو فيلاً ، أو وحيد قرن ببندقيّة أوتوماتيكيّة . بل قد يكون ذلك منتهى الغدر والجبن ، إذ ليس فيه أيّ تكافؤ بين الجانبين .

« وإنّها الرشاقة في الحركة والتسديد أن تطارد الغزال السريع فتصرعه بسهم تطلقه عن قوسك . ولكنّها البشاعة والخساسة أن تطارد الغزال بسيارة إلى أن ينفجر قلبه من الإجهاد فيخرّ صريعاً . فقوائم الغزال من عظم وعضل ، ومحركه من لحم ، ووقوده من دم حيّ . أمّا السيارة فدواليبها من الحديد والمطّاط ، ومحركها من الفولاذ ، ووقودها من البنزين .

« لكن أبشع البشاعة وأخسّ الخساسة هو صيد العصفور بالبارود والخردق . فالعصفور من ألطف الكائنات المجنّحة صورةً ، وصوتاً ، وخلُقاً ، وحركة . وهو حليف الإنسان الأنفع والأوفى في كفاحه ضد الحشرات الّتي تؤذيه في قوته وفي عافيته . ووجوده في الغابات ، والبساتين ، والكروم ، والحقول ، والبراري يضفي عليها ألواناً وألواناً من الأنس ، والعذوبة ، والجمال . وهو بحجمه يكاد لا يملأ قبضة الإنسان . فلا تكافؤ بين الاثنين على الإطلاق حتّى بدون سلاح . فكيف بالإنسان يتسلّح ضدّ العصفور بالبارود والرصاص ؟

« إنّها لصورة تقشعرّ لها — أو ينبغي أن تقشعرّ لها — الأبدان . صورة إنسان بعقل إنسان ، وقدرة إنسان ، ووجدان إنسان يترصّد عصفوراً صغيراً ليرديه بخردقة ، فيحرمه لذّة البقاء ، ثمّ ينتف ريشه الجميل ، ثمّ يشويه على النار ، ثمّ

يلتهمه بلحمه وعظمه وهو لا يشعر أنّه يلتهم رجولته ، وشرفه ، وحقّه بلقب إنسان .

« كذلك هي صورة كوكبة من الفرسان المسلّحين بأحدث البنادق ، يتقدّمهم قطيع من كلاب الصيد ، وقد راحوا جميعهم يتعقّبون ثعلباً ، حتّى إذا أحاطوا به من كلّ جانب فتسلّق المسكين شجرة بغية النجاة بروحه ، أصلاه الفرسان ناراً حامية من بنادقهم فأردوه قتيلاً ثمّ طفقوا يتندّرون بما أبدوه من براعة . يا لهم من أبطال ! »

هكذا كانت تتحدّث مسز تشابمن في شؤون الصيد . فتقسمه إلى نوعين : الصيد الحلال ، وهو الذي يكون فيه شيء من التكافؤ بين الصياد وما يصطاده . والصيد الحرام وهو الذي ترجح فيه كثيراً كفّة الصياد على الطريدة . فكانت تدعو الأوّل رياضة مستحبّة أو « سبورت » . وتدعو الثاني بربريّة لا تليق بالإنسان المتمدّن .

* * *

كان يوم خرجت فيه مسز تشابمن لصيد الغزلان . ولم تشأ أن يرافقها أحد . فامتطت جوادها ، وأخذت قوسها وسهامها وسيفها وحاجتها من الزاد والماء ، وانصرفت في طريقها . ولكنّها ، رغم توغّلها البعيد في البادية ، لم تصب

أيّ صيد طيلة ذلك النهار . فانكفأت راجعة إلى بيتها وفي قلبها وحشة موجعة لم تشعر بمثلها قطّ في حياتها .

وفيما هي تسير في شعب ضيّق تراكمت عن جانبيه بعض الصخور الدُّكن إذا بحصانها يجفل بغتة ويشخر فيكاد يرميها عن ظهره . ثمّ إذا بصبي بدويّ يبرز من بين الصخور ويدنو من الحصان ويمسك باللجام . لقد كانت الشمس على وشك الغياب ، وكان الصبي في قميص أزرق يغطيه حتّى الكاحلين ، وقد نصلت جدّته وكثرت خروقه . وكان حاسر الرأس ، حافي القدمين ، مشعّث الشعر ، وقد بدت بعض الخدوش في وجهه الوسيم ، وشيء من الاستعطاف في عينيه السوداوين ، الواسعتين .

لأوّل وهلة مدّت السيّدة الأميركيّة يدها إلى قبضة سيفها . ولكنّ الذي قرأته في عيني الصبيّ جعلها تستردّ روعها وتوقن أنّ الولد لا يضمر لها أيّ شرّ . فخاطبته بلطف :

— ماذا تريد يا ولد ؟

فأجابها بصوت مرتجف :

— خذيني معك .

— إلى أين ؟

— إلى حيث تذهبين .

— ولكنّني ذاهبة إلى بيتي .

– إذن خذيني إلى بيتك .

– وماذا أفعل بك في بيتي ؟

– افعلي ما تشائين .

– غريب أمرك يا ولد . وما اسمك ؟

– صميم .

– اسم لطيف . وكم عمرك ؟

– لا أدري بالضبط – أربع عشرة . خمس عشرة .

– ومن أيّ قبيلة ؟

– لا تسأليني عن عشيرتي .

– ولماذا ؟

– لا تسأليني .

– وهل هي بعيدة من هنا ؟

– مسيرة أربعة أيّام .

– وماذا جاء بك إلى هنا ؟

– هربت .

– ارتكبت جريمة ما – سرقت ؟ قتلت ؟

– لا . هربت من جور أبي وزوجته .

– تزوّج أبوك بعد وفاة أمّك . أم أنّها لا تزال حيّة ؟

– ماتت . فتزوّج أبي بعد وفاتها .

– أنت جائع من غير شكّ ؟

ـ أكلت اليوم بعض الجراد .

ـ تعالَ . سأطعمك في البيت بعض الحساء الساخن . معدتك فارغة يا مسكين . لم يبقَ أمامنا غير شوط قصير .

وأردفت مسز تشابمن الولد وراءها ، وسارت خبباً ، وقد ازدحمت في رأسها أفكار ما خطرت لها من قبل في بال :

لقد تبيّن لها ، بعد حديثها المقتضب مع هذا الولد البدويّ ، أنّ سبب الوحشة الموجعة التي أحسّتها في آخر نهارها لم يكن فشلها في الصيد . بل فشلها في أمر أهمّ من الصيد بكثير . وهذا الفشل أخذت تشعر به في الزمان الأخير. ولكنّها لم تكن تجرؤ أن تبوح به لنفسها ، وأن تستقصي أسبابه . ولو أنّها استقصت الأسباب لوجدتها في تفاهة الحياة التي تحياها .

أليس أنّها هجرت بلادها هرباً من تفاهة الحياة الرتيبة فيها ؟ أليس أنّها حاولت أن تعوّض نفسها عن تلك التفاهة بتفاهة أكبر منها ؟ قصر شرقي تحسدها عليه القصور في الشرق والغرب . خدَم وحشم ومآدب سخيّة . حدائق عامرة بأصناف الزهر والشجر . اسطبلات زاخرة بأكرم الجياد . سيوف ورماح وقسيّ ونبال من أجود ما صنعته أمهر الأيدي في الزمان القديم والحديث . سهرات حافلة بالأنس والطرب . رحلات صيد وقنص ومغامرات بغير نهاية . إنّها لحياة لا مجال فيها

لأيّ فراغ .

ولكن الفراغ كان دائماً هناك — في قلبها . تحسّه فلا تلبث أن تخنق إحساسها به . إلى أن كان لقاؤها المفاجىء مع ذلك الولد البدويّ . لقد مسّها في صوته ، وفي وجهه ، وبالأخص في عينيه ، ما يشبه التيّار الكهربائي . وشعرت كأن جليداً كان في قلبها وبغتة أخذ يذوب . إنّها تريد أن تضمّ هذا الولد إلى صدرها ، وأن تلفّه بشغاف قلبها وأهداب عينيها ، وأن تمحو من ذهنه كلّ أثر للحزن والخوف والقلق ، وأن تجعله أسعد الناس لتسعد بسعادته . إنّها تريد أن تتبنّاه . تريد أن تحيا له . لقد كانت حتّى تلك الساعة تحيا لذاتها فقط . ولذلك أحسّت تفاهة حياتها . أمّا بعد اليوم فستحيا لغيرها إذ هي تحيا لذاتها .

هذا الولد سيغدو محور حياتها ، وستنذر له ثروتها وجميع ما في دمها من عواطف جامحة وأمومة مكبوتة . وستتخلّى عن روحها قبل أن تتخلّى عنه لأحد — حتّى لوالده إذا اتّفق واهتدى إليه . حسبه أنّه ابن البادية التي هامت بها من زمان . ثمّ حسبه هذا الجمال المشعّ في تقاسيم وجهه الذي لوّحته شمس الصحراء ، وهذه الرجولة البادية في حركاته وعينيه ، إنّه رائع ، رائع . وهي ستجعل منه أسطورة أروع وأروع . ستأتيه بمن يعلّمه فنون الفروسية ، وفنون المدنيّة من

قراءة وكتابة ورسم ونحت وموسيقى وغيرها . ولعلّه يتفتّح عن شاعر لا مثيل له بين الشعراء . أكيد . أكيد . إنّه لن يكون من الكثرة الكثرة ، بل من القلّة القلّة . بهذا توحي جميع ملامحه .

لم تشأ مسز تشابمن أن يهتمّ بالصبي أحد غيرها . فجاءته بثياب نظيفة ، وأدخلته حمّامها الخاص وكان كلّ شيء فيه بلون السماء . وكانت تودّ أن تقوم هي بتحميمه . ولكنّها خشيت أن تجور على خجله وحيائه . فدلّته على الصابونة والليفة ، وعلى المغطس والمرشة من فوقه ، وعلى أنابيب المياه الساخنة والباردة ، وعلى كرسي المستراح ، وعلّمته كيف يعالج هذه كلّها . ولم تنسَ أن تدلّه على الجرس الكهربائي ليلجأ إليه إذا دعت الحاجة ، ولا أن تعلّمه كيف يلبس الثياب التي جاءته بها وكيف يستعمل المشط والمنشفة وغيرهما من الأشياء التي لم يعهدها في حياته .

وعندما خرج الولد من الحمّام اقتادته ربّة القصر إلى غرفة المائدة الأنيقة حيث جلست وإيّاه إلى طاولة فخمة عليها الصحون الصينيّة والملاعق والشوك والسكاكين الفضيّة ، وأصناف من لحوم الطير والضأن والسمك ، بالإضافة إلى أنواع كثيرة من الفاكهة والحلوى . ولقد وجدت السيّدة أكبر المتعة في تدريب الولد على الأكل بالملعقة والشوكة

والسكّين ، وفي إقباله على التهام ما تضعه في صحنه ممّا على المائدة . وبعد العشاء طافت به غرَف القصر غرفة غرفة . ولكنّم سرّها أن ترقب الدهشة على وجهه عندما أجلسته أمام جهاز التلفزيون وضغطت زرّاً من أزراره فلم يصدّق أن الأشخاص الذين أخذوا يتحرّكون ويتكلّمون ويغنّون ويرقصون على الشاشة كانوا من لحم ودم ، وأنّ صورهم وأصواتهم وحركاتهم كانت منقولة من بعيد .

وآن وقت النوم . فأخذت مسز تشابمن الصبي بيده وقادته إلى غرفة فيها سرير ملاءاته ووساداته بيض كالثلج ، وفيها المرايا والتحف وأدوات كثيرة لم يفقه لها أيّ معنى ، وفيها باب ينفتح على الحديقة . وعلّمته كيف ينزع ثيابه ، ويرتدي منامته ، ويضطجع في سريره ، ثمّ يضغط الزرّ الذي بقرب سريره قبل أن يستسلم إلى النوم . ولم تتمالك من تقبيله في جبينه عندما تمنّت له نوماً هنيئاً ، ومن الهمس في أذنه أنّ هذا القصر بكلّ ما فيه سيكون ملكه في حياتها وبعد مماتها .

وأصبح الصباح فهرولت ربّة القصر تسترق خطاها استراقاً إلى الغرفة حيث الصبي مخافة أن توقظه إذا كان ما يزال غافياً . ولبثت برهة أمام الباب لعلّها تسمع صوتاً أو حركة فلم تسمع . فانصرفت على مهل لتعود مرّة أخرى ، وثالثة ورابعة ، ولكن بنتيجة واحدة — لا أقلّ صوت ولا

أقلّ حركة . أخيراً ، وقد قاربت الساعة العاشرة ، رأت من الضروري أن تفتح الباب وتوقظ الصبيّ . ولكنّها ما إن فتحت الباب حتّى تسمّرت مكانها . لقد كان السرير فارغاً وعليه الثياب والمنامة التي أعطتها للصبي في الليلة البارحة . وكان الباب من جهة الحديقة مفتوحاً . أمّا القميص الأزرق الذي كان يرتديه الصبيّ عندما التقته في البريّة فلم تقع له على أثر ، لا في غرفة النوم ولا في الحمّام .

مرّ أسبوع من التفتيش المحموم والعقيم كادت مسز تشابمن في خلاله تفقد رشدها . لقد فرّ من يدها أعظم صيد اصطادته في حياتها . وطار من قلبها أعذب حلم حلمته . وتبخّرت من عينيها أجمل رؤيا أضفت على وجودها ألقاً ومعنى وخصوبة لم تكن له قطّ من قبل . فانكمشت على نفسها ، وباتت في قصرها وكأنّها الحبيس في صومعته . وشاع خبرها وخبر الصبيّ البدويّ بين معارفها وأصحابها فتوافدوا لمؤاساتها . وذات ليلة ، وهي بين « شلّة » من الزوّار ، لم تستطع حبس دموعها . وعندما لامها أحدهم في ذلك التفتت إليه وقالت بانكسار :

ـ آه لو كنت أعرف سبب هروبه من بعد أن قدّمت له من اللطف والمحبّة ما قدّمت !

فأجابها :

– السبب بسيط . إنها البادية يا سيّدتي تأبى الانقفاص حتّى في قصر كهذا القصر . ومن يدري ؟ لعلّها على صواب .

فردّدت بعده بصوت خافت :

– لعلّها على صواب . . .

ساعة

ـ تسألين عن عمري يا جارتي . عمري ساعة .

ـ دعينا من المزح يا خالتي . سمعت أنّك جاوزت التسعين . هل ذلك صحيح ؟

ـ قلتُ لك يا بنيّتي إنّ عمري ساعة . وذلك هو الصحيح .

وبدا شيء من الامتعاض على وجه الجارة الفتيّة . فالتفتت إلى طفلها الغافي في حضنها وكشّت عن وجهه ذبابة كانت تزعجه ، ثمّ عادت فرفعت بصرها إلى العجوز وكرّرت سؤالها :

ـ إنّي جادّة في سؤالي يا خالتي . كم عمرك ؟

ـ وأنا جادّة في جوابي يا بنيّتي . عمري ساعة .

ـ أحفادك الخمسة تزوّجوا وقريباً يزوّجون أولادهم . وتقولين إن عمرك ساعة فقط ، وإنّك لا تمزحين ؟ إذن أنت بي تسخرين .

ـ معاذ الله يا بنيّتي . حسبت أنّك ستفهمين في الحال ما عنيت .

– لم أفهم . يبدو أنّي بليدة .

– حاشاك . حاشاك . ولكنّني ظننتُ أنّك ستفهمين .

– أفهميني . ساعديني لعلّني أفهم .

عندها اعتدلت العجوز في جلستها على المقعد العربي المغطّى بالسجّاد العجمي . ثمّ ضمّت رجليها تحتها ، وسوّت المنديل الأسود على رأسها ، وشدّت طرفيه تحت ذقنها ، وردّت الشعر الأشيب عن صدغيها إلى تحت المنديل ، وأغمضت عينيها لحظة قبل أن تستأنف الحديث :

– إذا صحّ تاريخ ولادتي فأنا اليوم في الحادية والتسعين . ولكنّني لم أعش من هذه السنوات الإحدى والتسعين غير ساعة واحدة ، وقد عشتها أمس .

– كلامك مشوّق ومثير يا خالتي . ولكنّه ألغاز . وفهمي بليد . ولولا أنّني عرفت الكثير ، وسمعت الكثير عن جِدّك ورصانتك ، ورجاحة عقلك ، وجميل صبرك ، ولطيف ذوقك لما شككت في أنّك تهزئين بي .

– الهزء يفضح سخف الهازئين . وكيف أهزأ بك وأنت جارتي ، ولك من المعزّة عندي مثل ما لابنتي الوحيدة ؟ وكم عمرك يا ابنتي ؟ ثلاث وثلاثون ؟ خمس وثلاثون ؟

– أقرب إلى الخمس والثلاثين .

– وهل عِشتها كلّها ؟

ـ بالطبع .

ـ أعني ، هل عشتها بنسبة واحدة من الشعور بأنّها بركة لك ونعمة ؟

ـ بل كانت ـ ولا تزال ـ أحياناً بركة وأحياناً لعنة . أحياناً نعمة وأحياناً نقمة . أحياناً نعيماً وأحياناً جحيماً . وأكثر من مرّة تمنّيت لو أنّها لم تكن .

ـ أنا البليدة يا ابنتي ، لا أنت . لم أحسن التعبير . عنيت أكثر من البركة والنعمة . عنيت غير الفرح والكدر . غير اللذّة والألم . غير ما يدعونه سعادة وتعاسة . عنيت ما لست أجد الكلمة الصحيحة التي تعبّر عنه تعبيراً صحيحاً .

ـ وتلومينني لأنّي لم أفهم .

ـ بل ألوم نفسي لأنّني لم أحسن التعبير .

وقطّبت العجوز حاجبيها ، وأغمضت عينيها ، ثمّ راحت تمرّ بأصابعها على جبينها وكأنّها تدلك التغاضين التي فيه . ثمّ استأنفت الكلام وكأنّها تكلّم نفسها :

ـ نتنفّس ونتحرّك ونظنّ أنّنا نعيش . نأكل ونشرب ونحسب أنّنا نعيش . نتزوّج ونلد الأولاد ونعتقد أنّنا نعيش . نزرع ونحصد ، نقرأ ونكتب ، نبني ونهدم ، نصوم ونصلّي ، نبكي ونضحك ، نمرض ونتعافى ، نحبّ ونبغض ، نغتني ونفتقر ، نحارب ونسالم ، نشتري ونبيع ، نأمر ونؤمر ،

ونقول إنّنا نعيش . هذه كلّها أضغاث أحلام . هذه ليست عيشاً . هذه كوابيس . هذه حسك وهشيم .

– ولكنّها يا خالتي من مقوّمات العيش . وبدونها لا يكون عيش .

– لا . لا . العيش نكهة يا ابنتي . العيش نفحة من عبير ، وومضة من نور . العيش ما عشته أمس ساعة واحدة تجمّعت فيها كلّ ساعات عمري فنسيت أنّها ساعات ، وأنّها عمر ، وأنّها تتّصل بزمان مرّ ، وزمان يمرّ ، وزمان سوف يمرّ .

– ألا حدّثتني يا خالتي عن تلك الساعة ؟ إنّها لتبدو وكأنّها عجيبة بين الساعات وغير ما يعنيه الناس بقولهم « ساعة » .

– إنّها لكذلك يا ابنتي . ولكنّني لا أعرف كيف أحدّثك عنها . وأعرف مسبقاً أن حديثي عنها سيبدو تافهاً . ولكنّني سأحاول :

تعرفين يا جارتي أنّني أعيش في شبه عزلة عن الناس ، وفي بحبوحة يحسدني عليها الناس . وقد بلغ بي حبّ العزلة أنّني في شيخوختي البالغة لم أشأ حتى لابنتي الوحيدة – رغم إلحاحها الشديد – أن تسكن معي . واكتفيت بخادمتي الأمينة تعولني في شيخوختي . وابنتي هذه ، كما تعرفين ، تسكن

على بعد مئات الكيلومترات عني . وقد ربّت عائلة كبيرة ، وشقيت في حياتها كثيراً . وهي اليوم في السبعين ، وتعيش مع ولدها الأصغر وعائلته . وأمس جاءت تزورني .

ـ وحدها ، أم مع زوجها أو أحد بنيها ؟

ـ وحدها . وقد فرحت بزيارتها أعظم الفرح . وسرّها أن تجدني ولا يزال عندي شيء من النشاط وصفاء الذهن ، وأن تُفرغ في أذني جميع همومها ومشكلاتها ـ وهي كثيرة جداً . وفي المساء ، قبيل النوم ، وكنت جالسة حيث أنا الآن ، اقتربت مني وقالت بشيء من الخجل : « اسمحي لي يا أمّي أن أضع رأسي في حضنك » . ووضعت رأسها على فخذي هذا ، وطوت ركبتيها ، وأغمضت عينيها . فرحت أمسّد شعرها كما كنت أفعل أيّام كانت صغيرة . وما هي إلاّ دقائق حتى غرقتْ في نوم هادىء ، عميق . وهنا ابتدأت الساعة التي أحدّثك عنها ، ولا أعرف كيف أحدّث وأين أبدأ.

غفيتْ بنتي لتوقظ في نفسي أحاسيس لم أعرف لها مثيلاً طوال الإحدى والتسعين سنة التي عشتها على الأرض . لقد كنت ، وأناملي تتغلغل ببطء في شعرها ، وعيناي تتأمّلان عينيها المطبقتين ، وتجاعيد العمر في جبهتها وخدّيها وأنفها وذقنها ، وبسمة الطمأنينة الشفّافة المتماوجة على وجهها ، والطريقة التي بها طوت ركبتيها وذراعيها ـ كنت أتخيّلها

جنيناً في أحشائي ، وأتخيّل أحشائي أوسع من الفضاء ، ثمّ أتخيّل جميع ما في الكون من مخلوقات أجنّة في أحشائي .

في تلك الساعة — ولأوّل مرّة في حياتي — فكّرت في عجيبة الحَبَل ، وعجيبة الولادة ، وعجيبة الأمومة . فانقلبت أفكاري غمرة من الشعور الحادّ بأنّني — حتى في شيخوختي — حُبلى بما لم تحبلَ به أمّ بعد ، وبأنّني سأضع مولوداً لم تضع مثله الأمّهات ، وبأنّ بنتي النائمة في حضني ليست بنتي فقط بل هي أمّي كذلك . أنا أمّها وهي أمّي . وهي بنتي وأنا بنتها . وكلتانا بنت كلّ أمّ ، وأمّ كلّ بنت . بل أمّ كلّ شيء .

لو كان الشعور مادّة سائلة كالماء لقلت إنّ الذي كان يتدفّق من قلبي في تلك الساعة كان كافياً لأن يغمز الكون . لقد راح قلبي يتّسع ويمتدّ ويفيض حتى لم يبقَ في الأرض والسماء ما ليس مغموراً بفيضه . نسيت نفسي . نسيت بيتي وأهلي وجيراني وبلادي . نسيت ماضيّ وحاضري ومستقبلي . نسيت أنّني وُلدت وأنّني سأموت . هربت الأرض من تحتي ، والجدران من حواليّ ، والسقوف من فوق رأسي .

ولكن شيئاً واحداً لم يهرب مني ، وهو الشعور بالوجود الذي ليس فيه « قَبل » و « بَعد » ، ولا « فوق » و « تحت » ، ولا شكل من الأشكال ، أو لون من الألوان .

ذلك الشعور كيف أصفه لك يا جارتي ؟ إنّه لا يوصف.

إنّه يفرض الصمت فرفضاً » .

ـ وكم دام ذلك الشعور يا خالتي ؟

ـ نحو الساعة . ولذلك قلت لك يا بنيّتي إن عمري ساعة فقط . وما تبقّى فكوابيس وأضغاث أحلام .

حوار في ضوء القمر

البدر يطلّ على الأرض من سماء صافية تناثرت فيها آلاف آلاف النجوم . لكنّه ، وهو أصغرها ، يبدو بينها وكأنّه السلطان ، وتبدو من حوله وكأنّها الجواري .

الفصل صيف ، والساعة نحو العاشرة ، والليل يتنفّس بملء رئتيه أنفاساً لطيفة ، مطمئنّة ، منعشة .

في الطريق المتعرّج بين الجبال يسير بخطى وئيدة فتى وفتاة ما يزالان من عمرهما في الربيع ، وقد اشتبكت كفّه اليمنى بكفّها اليسرى ، وراح الاثنان يلوّحان بذراعيهما إلى الأمام وإلى الوراء تلويحاً ينسجم كلّ الانسجام مع وقع خطواتهما .

الطريق مقفر من المشاة والسيارات وحتّى من المخلوقات التي تنام في النهار وتستيقظ في الليل لتسعى وراء رزقها في غفلة من أعدائها ، وألدّهم الإنسان .

لا حفيف أوراق ، ولا خرير مياه ، ولا عواء كلب ، ولا نأمة بومة ، ولا صرير جدجد . لقد خرست الأرض ، وخرست السماء .

الطريق المصعّد في الجبل يتلوّى بين الصخور والأشجار ، فيشرف على وادٍ هنا ، وعلى أجمة هناك ؛ وقد فرشه القمر ببساط من النور والظلّ اللذين تفرّد وحده بغزلهما ونسجهما. فلا النور يفضح الأشياء ويجلوها ، ولا الظلّ يطمسها ويمحوها ، بل يلمّح كلاهما إليها تلميحاً ، فتبدو وكأنّها من غير العالم الذي تكشفه الشمس في النهار .

ويضغط الفتى بأصابعه على أصابع الفتاة ضغطاً شديداً حتى لتكاد تصرخ من الوجع . ولكنّها تتجالد ثمّ تضغط على أصابعه بكلّ ما في أصابعها من قوّة . فيتظاهر كما لو كان قد آلمه ضغطها ويصيح :

ــ آ ــ آ ــ خ !

فتردّ الفتاة عليه بكلمة واحدة تهمسها همساً :

ــ هِس !

ــ ولماذا هذه الـ « هسّ ! » ؟ كفانا صمتاً . تكلّمي . قولي شيئاً ما .

ــ ومن يجرؤ أن يتكلّم في مثل هذه السكينة التي تتكلّم بمليون لسان ؟

ــ ليكن لسانك واحداً من المليون .

ــ كلّ الكلام يبدو تافهاً في مثل هذا الليل .

ــ حتى الكلام عن الحبّ ؟

ـ بل قد يكون الكلام عن الحبّ أتفه الكلام .

ـ تعنين أنّ الحبّ شيء تافه ؟

ـ أعني أن الكلام عن الحبّ كلام تافه . إنّه تجديف على الحبّ .

ـ إذن كان الشعراء أكبر المجدفين .

ـ عندما يتغنّى الشعراء بالحبّ فتغنّيهم ليس بأكثر من هذيان . الحبّ في القلب ـ كالخميرة في العجين ـ يعمل عمله في صمت مطبق . أمّا الكلام عنه فهذيان .

ـ والكلام عن الجمال ؟

ـ هذيان .

ـ وعن الحقّ ؟

ـ هذيان .

ـ وعن الحياة ؟

ـ هذيان .

ـ وعن الله ؟

ـ هذيان .

ـ إذن كلّ حياتنا هذيان في هذيان .

ـ لا . لا . أن تُحسّ الحبّ والجمال والحقّ والحياة والله ليس بالهذيان . والهذيان أن تصوّر ذلك الإحساس بالكلام، أو بالخطوط والأشكال والألوان والأنغام . الهذيان أن تتّخذ

من لسانك لساناً لهذا الليل بدلاً من أن تحسّه وتمتصّه بروحك من خلال أذنك وعينك .

أيّ رسّام ، أيّ مثّال يستطيع أن يصوّر لك هذا القمر وهذه النجوم في سمائها ؟

أيّ قلم ، أي لسان يستطيع أن يصف لك هذا الوشاح السحري من النور والظلّ الذي تلتفّ به الآن هذه الجبال والأودية والتلال ، وهذا الطريق وما امتدّ عن جانبيه على مدى نظرك ؟

أيّ شاعر ، أيّ ناثر ، أيّ نبيّ يستطيع أن يترجم لك كلمة واحدة ممّا يقوله القمر للنجوم ، والنجوم بعضها لبعض، والقمر والنجوم معاً للأرض ، وهذه الصخرة لتلك الصخرة ، وهذه الشجرة لهاتيك ، وتلك الورقة أو العشبة لجارتها وباقي رفيقاتها ؟

تقول إنّها بكماء ، صمّاء ؟ لعمري إنّ في قولك لأكبر الدليل على أنّك الأخرس والأطرش لا هي .

مَن لهذه السكينة الرهيبة يسمع ما تقول ؟ إنّها تضجّ بالأخبار والألحان والكلام عنها هذيان . أجل . هذيان . هذيان .

ـ وها أنت تتكلّمين عنها ، وكلامك أبعد ما يكون عن الهذيان . لقد جعلتني أتمنّى لو أحس هذا الليل كما

تحسّينه . لو أستطيع ، كما قلتِ ، أن أمتصّه بروحي .

– إحساسك ، مع ذلك ، لن يكون إحساسي .

– بالطبع . لأنّني أعيش في الواقع ، وتعيشين في الخيال .

– الواقع ؟ أيّ واقع ؟ واقعك أم واقع كلّ الناس ؟

– الواقع واحد عند جميع الناس .

– عند الأبله والفيلسوف ، وعند الكفيف والأعشى والبصير ، وعند الكسيح والعدّاء ، والجائع والمتخم ، والعبد وسيّد العبد ، والدميم والوسيم ؟ واقع أيّ واحد من هؤلاء هو الواقع ؟

– الواقع هو واقع الإنسان السوي .

– وهذا الإنسان « السويّ » أين هو ؟ ألستَ ، في اعتقادك ، رجلاً سويّاً ؟

– بلى .

– ألستُ ، في اعتقادك ، امرأة سويّة ؟

– بكلّ تأكيد .

– لماذا ، إذن ، لا يتساوى عندك وعندي « واقع » هذا الليل ؟ لماذا لا تسمع فيه ما أسمع ، ولا تبصر ما أبصر ، وبالتالي ، لا تحسّ الذي أحسّ ؟

– لأنّني غير ما أنت ، ولأنّك غير ما أنا .

– إذن واقعي غير واقعك . وواقعك غير واقعي .

– بالطبع .

– وواقعي وواقعك هما غير واقع أيّ إنسان آخر . أليس واقع هذا الليل غير واقع النهار الذي سبقه ، والنهار الذي سيليه ، والليل الذي سيأتي بعد ذلك النهار ؟

– معقول .

– فأيّ واقع إذ ذاك هو « الواقع » ؟

– والنتيجة ؟

– النتيجة هي أن لكلّ لمحة من الزمان واقعها في حياة كلّ إنسان ، وهو غير واقعها في حياة غيره من الناس . ومن الأكيد أن ما تدعوه خيالاً ، وكأنّك تزدريه ، هو من صميم ذلك الواقع .

– أكرّر : والنتيجة ؟

– هذا الهذيان الذي شغلنا عمّا يكتنفنا من سحر حلال . شغلنا عن الأبعاد والأغوار التي يحملنا إليها هذا الليل . شغلنا عن امتصاص روح هذه السكينة بروحينا .

– وعن امتصاص ما لعلّه أشهى من روح هذه السكينة

– تعني يا عفريت . . .

– ومَن غيرك يفهم ما أعني ؟

وتلاقت أربع شفاه في ضوء القمر . وبارك القمر ذلك اللقاء .

حديث الحرف والقلم

أمهلني قليلاً بعد يا قلمي .
قليلاً ، وترتاح مني ،
وأرتاح منك .
أمهلني . ففي السراج ما تزال بقيّة من الزيت .
وفي الدواة بقيّة من المداد .
وقبل أن تستلّ الشمس نورها من عينيّ ، فتشرق ولا أراها ،
وتغرب ولا تراني .
وقبل أن يستردّ الهواء أنفاسه من صدري ،
فلا يعطيني فيما بعد ولا يأخذ مني .
وقبل أن يتجمّد السائل الأحمر في عروقي ،
فتتيبّس الأنامل التي تقبض عليك وتقودك ،
دعني أحرق ما تبقّى من الزيت في السراج تسبيحاً وشكراناً للذي وهبني السراج وزوّده بالزيت ،
وتكفيراً مني ومنك عن كلّ ما صدر عنّا وكان تدنيساً للسراج وللزيت .

ودعني أريق ما تبقّى من المداد في الدواة اعتذاراً وعرفان جميل للأرض التي ضيّفتنا طوال هذه السنين فكانت أكرم مَن سقى وأطعم ، ولم نكن أعفّ من أكل وشرب ؛

وكانت أروع مَن وعظ وأرشد ، ولم نكن أسرع مَن اتعظ وارتشد ؛

وكانت أحنّ من احتضن وربّى ، ولم نكن خير من احتُضن وتربّى .

* * *

ما نسيت يا قلمي — وكيف أنسى ؟ — ساعة أمسكت بك لأوّل مرّة لأتعلّم وإيّاك تصوير الألف والباء .

كان ذلك منذ سبعين من السنين . والأنامل التي أمسكت بك يومئذ هي عين الأنامل التي تمسك بك الآن . ولكن ، شتّان ما بينها في ذلك الزمان وفي هذا الزمان !

منذ تلك الساعة وحتّى الساعة وأنا وأنت يا قلمي نصوّر الحروف من الألف إلى الياء ، وفي أكثر من لغة . فنربط بعضها ببعض لتكون لنا الكلمة . ثمّ نزاوج الكلمات لتكون لنا العبارات . ثمّ نضفر من العبارات الصفحات ، ونخلق من الصفحات المجلّدات . ثمّ نقول في آخر كلّ مجلّد : « ها هو عمل من أعمالنا قد انتهى . فلنباشر عملاً جديداً » . — كأنّما

يمكن أن تكون لأيّ عمل بداية أو نهاية !

ونحن ، يا قلمي ، ما كدنا نتقن تصوير الحرف حتى وجدنا أن الحروف لا تترافق اعتباطاً لتتكوّن منها الكلمات . بل هي تتّبع في ذلك نظاماً علينا أن نتقيّد به صاغرين . وهذا النظام ما وضعناه نحن بل وضعه العرف والتقليد على مدى أجيال وأجيال سبقتنا بآلاف السنين .

هكذا وجدنا أنّ الحروف ب ح ر — مثلاً — تأتينا بأكثر من كلمة إذا نحن بدّلنا في مواقعها . فهي « بحر » . وهي « حرب » . وهي « حبر » . وهي « ربح » . وهي « رحب » . ولكلّ من هذه الكلمات مدلوله الخاص الذي لا قِبَل لنا بتبديله أو تعديله ، بل علينا أن نتقبّله كما هو وارد في القاموس .

وهكذا بات القاموس كعبةً لنا وإماماً . وبات الخزّان الذي منه نحشو الذاكرة بالمفردات ، والعشّ الذي فيه تنقف أفكارنا ومشاعرنا ، ومنه تطير ، وإليه تعود .

ثمّ عرفنا ، يا قلمي ، أن الحروف ليست سواسية . فمنها الساكن ومنها الصوتيّ . ومنها الشمسي ومنها القمريّ . ومنها السالم ومنها المعتلّ . وعلينا أن نحافظ على سلامة سالمها وأن نداوي علّة معتلّها .

كذلك عرفنا ، يا قلمي ، أن الكلمات ، كالحروف ،

لا تتزاوج كيفما اتّفق . بل هي تتبع في ذلك قوانين لا أدقّ ولا أقسى . فهناك المبتدأ وخبره . والفاعل ومفعوله . والجارّ ومجروره . وهناك اسم « كان » وخبرها . واسم « أن » وخبرها . وهناك المصروف والممنوع من الصرف . والمجزوم بـ « لم » وأخواتها . والمنصوب بـ « لن » وأخواتها . والجموع السالمة . والجموع المكسّرة وغيرها وغيرها من الأمور التي أفنينا جانباً كبيراً من العمر في درسها قبل أن تيسّر لنا أن نكتب العبارة التي تُقرأ وتُفهَم .

وترانا ، مع ذلك ، غير واثقين، يا قلمي، من أن جميع ما سطّرناه كان « حسب الأصول » ، وأن جميع الذين يقرأون ما نكتب يحسنون قراءتنا ويفهمون ما يقرأون . بل نحن غير واثقين من أن جميع ما سطّرناه كان يؤدّي كلّ ما كنّا نريد أن نقول .

* * *

منذ أن تعلّمنا الكتابة وحتّى الساعة وأنا وأنت ، يا قلمي ، نحاول أن نفرغ في الحرف كلّ ما تتناوله العين ، وتلتقطه الأذن ، ويشمّه الأنف ، وتلمسه اليد ، ويتذوّقه اللّسان ، وكلّ ما يثيره ذلك من انفعالات في الفكر والفؤاد والوجدان .

إن لم يكن ذلك هو الجنون بعينه فماذا عسى الجنون أن يكون ؟

كيف للحرف ، يا قلمي ، مهما شعّ ، أن يشعّ ولو بشعاع واحد من أشعّة الشمس ، أو القمر ، أو أيّ نجم في الفضاء ؟

كيف للحرف أن يسمع دبيب الجذور وهمس البذور في التراب ؟

كيف للحرف أن يشمّ عبير السحاب ، أو أريج نسمة في الشفق أو في الغسق ؟

كيف للحرف أن يتلمّظ بكسرة خبزٍ في فم جائعٍ ، أو بقطرة ماء في بلعوم عطشان ؟

كيف للحرف أن يتلمّس الظلمة في حدقة الكفيف ، أو النور في عين البصير ؟

كيف لحرفين هما « الحاء » و « الباء » أن يتوهّجا بحبّ نحلة لخليّتها ، ومليكتها ، وقرصها ، وللأزهار التي تتغلغل في أفئدتها مرّات في النهار ؟

أو بحبّ عصفورة لوكرها وفراخها ولمناغاة رفيقها تأتيها من أعالي فنن يميل مع النسيم ؟

أو بحبّ أيّ مخلوق من المخلوقات لأمّه الحياة ؟

كيف لحروف ثلاثة هي أ . ن . ا . أن تعبّر عنك

عندما تقول « أنا » ، أو عني عندما أقول « أنا » ؟

كيف لأيّ مجموعة من الحروف أن تسلك سبل العواصف والصواعق والزلازل ، أو أن تهدر هدير البحر إذا هاج ، وتغنّي أغانيه إذا سكن ؟

كيف للحروف مجتمعة أن تؤدّي معنى « الأزل » أو معنى « الأبد » ؟

أو معنى « الإنسان » ؟

أو معنى « الله » ؟

* * *

ذلك الجنون ، يا قلمي ، — جنون التهجّد والتعبّد للحرف — أما آن لنا أن نشفى منه ؟

أما آن لنا أن نعرف أنّ الحواسّ الخارجيّة أعجز من أن تلمّ بكلّ المحسوسات في الكون ؟ فكيف بما لا يُحَسّ ؟

أما آن لنا أن نعرف أن الحرف الذي هو ترجمان الحواسّ أعجز من أن يترجم ترجمة صادقة جميع ما تنقله إلينا الحواسّ ؟ فكيف بتلك التّرجمة إذا كانت الحواس ذاتها غير صادقة في ما تنقله إلينا ؟

أليس أنّ حواسنا عهد الطفولة هي غير حواسنا عهدَ الصّبا ؟ وحواسنا عهد الصبا غير حواسنا عهد الشباب ؟ وعهدَ

الشباب غيرها عهد الكهولة ؟ وعهد الكهولة غيرها عهد الشيخوخة ؟

بل أليست حواسّنا في الليل غير حواسّنا في النهار ؟ وفي الشتاء غيرها في الصيف ؟ وفي حالة الصحّة والسرور غيرها في حالة الحزن والمرض ؟

أليس أن الأشياء التي تقع عليها حواسّنا لا تستقرّ على حالة واحدة في لحظتين متعاقبتين ، وأن ما تنقله عنها الحواس إلينا يتغيّر ما بين رفّة جفن ورفّة جفن ؟ ثمّ إنّها تنقله إلينا بسرعة أين منها سرعة البرق ، فلا نستوعب منها إلاّ اليسير اليسير . وعندما نحاول التعبير بالحرف عن ذلك اليسير اليسير نشوّهه أفظع التشويه ؟

وبعد ، فهذه الكريّة البديعة التي نعيش على سطحها ، ما هي بالنسبة إلى الكون اللاّمتناهي الذي نحن منه وفيه ؟ إنّها نقطة في خضمّ اللاّنهاية . ونحن ، مع ذلك ، لا نتناول منها بحواسّنا إلاّ الرغوة التي تطفو على سطحها . أمّا قلبها ؛ وأمّا الخيوط الخفية التي تربط حياتها بحياة الكون اللاّمتناهي فلا وصول إليها على الإطلاق بالحواسّ .

فكيف للحرف ، الذي هو ترجمان الحواسّ ، أن يحدّث عن الأرض والكون ؟

وهنا يجدر بي وبك ، يا قلمي ، أن نتوقّف عند ظاهرة

عجيبة في حياة الناس . وهي أنّ السواد الأعظم منهم – وحالهم مع خداع الحواسّ والحرف ما ذكرنا – لا يتورّعون عن أن يزيدوا في طينهم بلّة بتسخيرهم الحرف لغايات خسيسة ، دنيئة ، تمسخ الإنسان فيهم ، وتجعل الحرف في أفواههم صلاً وأفظع من صلّ .

فهناك الذين يقولون « نعم » وهم يعنون « لا » . أولئك هم الماكرون .

وهناك الذين يدعون لجارهم « أطال الله عمرك » وهم يعنون « قصف الله عمرك » . أولئك هم المخاتلون .

والذين يطلبون العدل وهم أظلم من ظلم . أولئك هم المنافقون .

والذين يتبجّحون بالحريّة ، والعبوديّة السوداء معسكرة في قلوبهم وأفكارهم . أولئك هم الدجّالون .

والذين يمجّدون العفّة ، وهم أفحش مَن فحش . أولئك هم المراؤون .

والذين يقدّسون الوطن ، والوطن عندهم جيوب لا تشبع من المال ، ورؤوس منفوخة بحبّ المجد والنفوذ والسلطان . أولئك هم الذئاب في جلود حملان .

والذين يدعون الناس ليل نهار لعبادة الإله الواحد الصمد وهم لا يعبدون ، في الواقع ، إلاّ الشيطان . أولئك هم ألدّ

أعداء الحرف والقلم ، وألدّ أعداء الإنسان على الإطلاق !

* * *

كذلك يجدر بي وبك ، يا قلمي ، أن نتوقّف قليلاً عند جماعة من الناس يتعبّدون مثلك ومثلي للحرف . إنّهم إخواننا الأدباء الذين ما تعبّدوا للحرف — نظماً ونثراً — إلاّ ليصوّروا بالحرف حياة الناس في أدقّ دقائقها — من أتفهها إلى أسماها . والمجلّي المجلّي بينهم هو الذي جاءت صوره أكثر شمولاً ، وأوسع إطاراً ، وأروع تلويناً ، وأبعد وقعاً في النفوس . وهم إذ يفعلون ذلك إنّما يرفعون أمام الناس مرآة ويقولون لهم : « هذا أنتم . وهذه هي حياتكم » .

إنّهم يصفون للمحزون حزنه ، وللمهموم همّه ، وللجائع جوعه ، وللمقهور قهره ، وللموجوع وجعه ، وللمحبّ حبّه ، وللنشوان نشوته ، وللحائر حيرته ، وللمؤمن إيمانه ، وللكافر كفره . إنّهم يحدّثون الناس عن كلّ ما ينتابهم منذ أن يولدوا وحتّى يموتوا . وهناك الذين يحدّثونهم عمّا بعد الموت .

وهم يفعلون ذلك اعتقاداً منهم أن الناس متى أبصروا صورتهم في المرآة « على حقيقتها » ثابوا إلى رشدهم فأقبلوا على الصورة يجمّلون ما قبح فيها ، ويقوّمون ما اعوجّ ،

ويرأبون ما تصدّع ، ويبدّلون ألوانها القاتمة بألوان زاهية .

وقلّما يخطر لهم في بال أنّ الصورة التي صوّروها على أنّها « حقيقة » أو « واقع » قد لا تكون حقيقة أو واقعاً . فما من صورة في الكون إلاّ لها ما يسبقها ، وما يتلوها ، وما يتصل بها اتّصالاً مباشراً من خارج إطارها . فهي ليست « حقيقة » ولا « واقعاً » إلاّ إذا استطعنا أن نراها في إطارها الكونيّ . وأنّى لنا ذلك ما دامت حواسّنا ، ودام الحرف الذي هو ترجمانها ، من العجز على ما ذكرنا ؟

ماذا ينفع الضرير أن تصوّره تصويراً لا أدقّ ولا أصدق ؟ وينفعه ، إذا أنت لم تستطع ردّ البصر إليه ، أن تفتح له غير العينين نافذةً على النور تمكّنه من معرفة الأسباب التي جلبت له العمى عساه يدرك أنّها منه وفيه ، فيعكف على تلافيها ، ويتطلّع إلى مستقبل مشرق .

ماذا ينفع الوالدة التي تمخّضت عن مولودها البكر أن تصف مخاضها ، ثمّ فرحها بمولودها ، أروع الوصف ؟ وينفعها أن تعطيها القوّة على الاحتفاظ بفرحها حتّى وإن أُخذ مولودها منها بعد ساعة أو بعد عام .

ماذا ينفع المحتضر أن تحسن تصوير احتضاره ؟ وينفعه أن تمدّ ببصره إلى ما قبل الولادة وبعد الموت . لعلّه يستقبل الموت بمثل الطمأنينة التي بها يستقبل النوم ساعة يأوي إلى

فراشه في الليل .

لا . ليس ينفع التائه في الأدغال أن تصف له الأدغال التي يتيه فيها . وينفعه أن تشقّ له طريقاً وتعطيه سراجاً ينير له الطريق .

والناس من حياتهم في أدغال كثيفة ، مظلمة ، رهيبة . ولا قيمة على الإطلاق لما ندعوه أدباً إلاّ على قدر ما يشق طريقاً ، وينير سراجاً . والأديب الذي لا يسير في الطريق الذي يشقّه ، وعلى ضوء السراج الذي ينيره ، لا يصلح أن يكون دليلاً للناس ، لأنه ليس دليلاً صالحاً لنفسه . إنه لتائه بين تائهين . وإن أدبه لَدغل من الأدغال التي يتيه فيها التائهون.

* * *

رائعة هي الأرض ، يا قلمي . وأروع ما فيها الإنسان .

ورائعة هي الوليمة التي تبسطها الأرض للإنسان . فيأكل ولا يشبع . ويشرب ولا يرتوي .

ولكن ، أما ترى يا قلمي أنّه قد آن لنا أن نفطم النفس عن خبز الأرض وملحها ، وأن نفسح المجال لسوانا فنتّجه إلى وليمة غير وليمتها ؟ وما أكثر الولائم وأغناها في هذا المدى اللامتناهي حيث تبدو الأرض وكأنّها رأس دبّوس !

والوفاء يقضي ، يا قلمي ، قبل أن نتّجه إلى وليمة

غير وليمة الأرض،أن نشكر للأرض كلّ ما أطعمتنا وسقتنا . فطعامها – حتّى المرّ منه – كان أشهى الطعام . وشرابها – حتّى الكدر منه – كان أحلى الشراب . والزينة التّي زيّنت بها وليمتها من شكل ولون ونغم وعبير كانت أروع وأبهج من أن يحدّث عنها أيّ حرف .

فالشكر ، ثمّ الشكر ، ثمّ الشكر للأرض !

والشكر ، ثمّ الشكر ، ثمّ الشكر لأبناء الأرض الذين بهم ولهم عشنا وعاش الحرف العجيب ، وسيعيش ما دامت الأرض أرضاً ، ودام الناس ناساً .

إلاّ أنّ الأرض من طبيعتها أن تستردّ باليسار ما تعطيه باليمين . وذلك ما ينغّص على الناس عيشهم على الأرض .

أمّا نحن ، يا قلمي ، فلن ينغّصنا أبداً أن نردّ هبات الأرض للأرض . لأنّنا سنكتفي من هبات الأرض بما اختزنته النفس من طعمها وعبيرها .

ثمّ لأنّنا سنكتفي من أديم الأرض بحفرة صغيرة تضمّ عظامنا التّي هي من هبات الأرض . وهذه الحفرة ستبقى من الأرض وللأرض .

وإذا كان لي أيّها القلم أن أختار مكان تلك الحفرة فإنّي أوثر أن تكون في لبنان – في سفح صنّين – في الشخروب. ولا تسلنّي لماذا ؟ لعلّه حنين التّراب إلى التّراب .

على أن تعود عظامنا إلى التراب دونما أقلّ ضجّة . فلا كهّان ، ولا شموع ، ولا بخور ، ولا دموع . بل معاول ورفوش طاهرة في أيدٍ طاهرة تحفر الحفرة وتهيل التراب . وحسب عظامنا شرفاً ومجداً أن تتقبّلها الأرض وأن تلتفت إليها السماء .

* * *

لا . لن يوجعنا أبداً ، يا قلمي ، أن نردّ إلى الأرض ما اقترضناه من الأرض . ولن يشقّ علينا أن ندعى إلى الانصراف عن وليمة الأرض . بل لعلّنا سننصرف بإرادتنا ، وقبل أن نُدعى إلى الانصراف .

والذي عرف ، مثلما عرفنا يا قلمي ، أنّ أكبر مهزلة في حياة الناس على الأرض هي تهافتهم على القصاع ، وتكالبهم على تملّك الأرض وما تنتجه الأرض ، — ذلك لا يصعب عليه أن يترك الأرض بخاطر طيّب ، وفي قلبه بركة لا غصّة .

ونحن يا قلمي لن نترك وليمة نحن فيها إلاّ لنقبل على وليمة أخرى أين منها ولائم الأرض والسماء ؟

إنّها وليمة الروح للروح . وليمة الأزليّ للأزليّ ، والأبديّ للأبديّ .

إنّها الوليمة التي لا يتدافع المدعوون إليها بالسواعد

والمناكب تهافتاً على القصاع . ولا يتقاتلون ويتناحرون بالهراوات والخناجر ، أو بالبنادق والقنابل .

إنّها الوليمة التي لا يعربد فيها المعربدون ، ولا يتبارى الدجّالون والمخرقون .

إنّها الوليمة التي لا يتنافس فيها المدعوون بزيّاتهم وأوسمتهم ، ولا يتباهون بمال ، أو بجاه ، أو بسلطان .

إنّها الوليمة التي تتنازل فيها العين من لحم ودم لعينٍ ما هي من لحم ودم . ويتنازل اللسان للوجدان ، والكلام للصمت الذي هو أفصح من الكلام . فتتصل « الآن » بكلّ أوان . و « هنا » بـ « هنالك » وبكلّ مكان . ويتعانق الإله والإنسان .

إنّها الوليمة التي يتساوى فيها الضيف والمضيف .

إنّها وليمة الوجدان للوجدان .

إنّها وليمة الحياة للحياة وقد تعرّت من جميع أكسيتها . فلا ما يُبصَر ، أو يُسمَع ، أو يُذاق ، أو يُشَمّ ، أو يُلمَس .

* * *

تلك الوليمة ، يا قلمي ، تنتهي عند أعتابها مهمّتك التي هي مهمّة الحرف .

فالحرف ، وإن وسع صدره الفضاء ، لأضيق من أن

يتّسع لحفنة من عطاء الحياة ، أو للمحة من بهائها . سواء في ذلك الحرف المتزلق عن طرف اللسان والحرف المنبثق من شقّ قلم .

وها نحن ، يا قلمي ، نقف على عتبة تلك الوليمة .

فتعالَ نودّع الحرف ونستغفره كلّ إساءة بدرت منّا إلى طهارته وجماله وجلاله ، عن وعيٍ منّا وعن غير وعي .

وتعالَ نشكر للحرف كلّ ثانية كان لنا فيها جذوةً تدفىء القلب وتنير له الطريق .

ولننسَ ، يا قلمي ، ما شربه الحرف من دمنا ، ونهشه من لحمنا ، وامتصّه من نور أجفاننا ، واستبدّ به من أيّامنا وأحلامنا .

ولنودّعه بالبركات والبسمات ، لا بالعتاب والعبرات .

ثمّ تعالَ ، يا قلمي ، يا نبضاً في فؤادي ، ونفَساً في صدري — تعالَ نتودّع .

ولكن . . .

دونما كلام .

وأيّ الكلام يستطيع أن يعبّر عمّا يدور في خاطرك وخاطري ساعة الوداع ؟

وأيّ لسان يستطيع أن يخبّر ولو ببعض ما كان بيننا طوال هذه السنين ؟

وإذا كان لنا ما نتمنّاه قبل أن نفترق فلنتمنّ :
النور الذي يُبصِر ولا يُبصَر .
والمحبّة التي في قلبها النور .
والسلام الأعزل من كلّ سلاح إلاّ المحبّة .

بسكنتا في ٢٥ ت ١ ١٩٦٤

هوامش

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهبِ الريح
دروب

أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories.